

مُخْرِجَةُ الْمُغْنِيَةِ

فَلَيْسَ فِي حِلٍّ لِلْمُكَفَّرِ

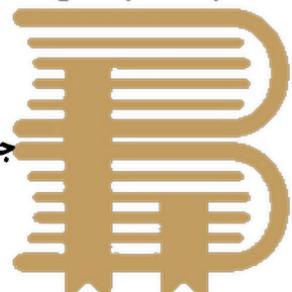


مُحَمَّد جَوَاد مُغْنِيَّة

فَلَيَسْتَغْفِرُ حَبْلَهُ لَهُ

شبكة كتب الشيعة

جميع حقوق الترجمة والطبع محفوظة



shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

الناشر مرکز مطبوعات دارالتبليغ الاسلامی

قم - ایران

چاپ حکمت - قم

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

ا لِعُودَةِ إِلَى نَقَاشِ الْجَاهِدِينَ

وبعد :

فإن هذا الكتاب واحد من تجاريبي التي مررت بها، أو مررت بي...
وبه تبلغ مؤلفاتي الأربعين، طبع منها ونشر أكثر من خمسة وثلاثين... و
كنت قد تصورت نفسي أنها طلقت التاليف ثلاثة، وأنها لن ترجع إليه أبداً
بعد «التفسيير الكافش» وما خطر بالبال وطاف بالخيال أن أعود إلى نقاش
الجاهدين بالتوحيد، والنبوة، والولاية، واليوم الآخر، كيف وقد سبق أن
كتبت وأذعت في هذا الموضوع مرات ومرات؟... وهو - أى النقاش في الأصول
الاربعة - موضوع كتابي هذا الذي شاء سبحانه أن يكون، فهياً أسبابه...
...

استفت قلبك

اجمع النحاة ومعهم علماء المعانى والبيان أن كل خبر مكتوبا كان او منطوقا فهو يحتمل الصدق والكذب، وبخاصة اذا كان المخبر يتحدث عن نفسه، وبصورة اخص اذا كان شغوفاً ومولعاً بالكلام عن عبقريته ، حيث يكون الحديث عندئذ مجرد ادعاء يحتاج الى اثبات.

وقد اكون انا لهذا الشغوف المولع دون ان احس وأشعر... ومع هذا لا يحق لاحد ايا كان ان يطالبني بالبينة، لسبب بسيط، وهو انني لا اطلب من القارئ ان يقتنع على كل حال، بل ادعه وما يحس من قلبه، ويكتشف بنفسه من خلال السطور والكلمات... ولا يهمني ابداً ان يشك ويرتاب مادمت على يقين مما اقول.

انا والقارئ

كنت، وانا اكتب التفسير الكاشف كلاعب الكرة، يركض وراءها انا تتجه، ولا يقف لحظة واحدة ليتوقف نفسي من انفاسه... آية لاتتجاوز كلماتها عددا اصبع - ابحث وانقب في العديد من المصادر لافهم المراد، ومتى وثقت باني صرت من اهل الفهم والعلم بما تعنيه الآية حاولت جهدي ان اعبر عنده بالأسلوب واضح، لا تضليل فيه، ولا تطويل كي يستسيغه القارئ، ولا يمله. وانا احب قارئي كثيرا حتى ولو انتقدني واعرض عن افكارى... لاني لولاهما فكرت ولا كتبت... ومن اجل هذا احرص على متابعته لى حتى النهاية، واقملق اليه. ما ممكن - خوفا ان يتذكرني الى غير رجعة، ولا سلطان لي على قلبه وعقله الا بما ينسجم مع ذوقه وطبعه.. وأية جدوى من كتاب لا يقرأ، ومن قول لا يسمع.

وخير وسيلة لاغراء القارئ ان يخاطبه الكاتب بالحقيقة، ويصوغها بشكل طبيعي، ولا يقتصر امامه بغير ما يؤمن ويدين، وأعني بالحقيقة كل ما يتصل بحياة الناس ، وينبع من حاجاتهم .. وأية فكرة تتجاهل هذه الحقيقة فما هي من الدين والعلم في شيء. اما الشكل الطبيعي فالمراد به ان يجري الكاتب على فطرته وسجيته ولا يعتمد الصنعة وخرافة الكلام، ومتى استمر على ذلك نما اسلوبه شيئاً فشيئاً، واصبح نفسه بنفسه.

نجاحي كمؤلف

قد يظن القارئ وغير القارئ ان نجاحي ككاتب او كمؤلف اسلامي يعود فقط الى ما أشرت..اماانا فاظن ان الكتاب الاسلامي لا ينبع، ويستحيل ان ينبع الامر بهذه الشروط بالإضافة الى ما تقدم:

الاول : ان يكون على علم او المام بالتيارات والمذاهب الفكرية الحديثة، ومدى سلطانها وتأثيرها في هذا العصر.

الثاني : ان يفهم الاسلام على حقيقته، وانه سهل يسير ومفهوم لكافة الناس، وان تعاليمه من الالاف الى الياء اساسها الاخلاص، والعمل الصالح ، ثم يعرضها بيايجاز ووضوح ، ويدفع عنها ما اثير او يثار حولها من شكوك وشبهات.

الثالث : ان يكون عالما بعيوب المجتمع الاسلامي واواعده ، كالتعصب الاعمى، والتمسك بالقشور، والایمان بالبدع، واللامبالاة بالصالح العام، وغير ذلك مما يبرر أمنه الدين والعلم ، ويأباد العقل والضمير، وان

ينقد هذه العيوب والوضع يجرأ على اخلاص، ويدرك ما يراه كفيلاً بازالتها (١). نفثة مصدور

خاطبت القارئ بما اعتقد، وظهرت له على حقيقتي لفظاً ومعنى في كل ما كتبت ونشرت، فتقبلني على علاني، واقبل الشباب والشيخ على مؤلفاتي، واهتمت بها الكبار دار للنشر في الشرق العربي، وكنت ومازلت أقبض منها في كل سنة بالآلاف لالآلاف ، فغبطني البعض ، وحسدني آخرون .

وأقسم لأولئك وهؤلاء أني أرني لحالى ، وأحزن على نفسي ، وأودمن أعمقى لو كنت داعياً وخطاباً.. وانتهيت إلى هذه الأمينة بعد العمر الطويل ، والتجارب الفاسية ، وفي كثير من الأحيان كان يخيل إلى أن حياتي هباء وان نشاطي في التأليف وهم ، واني تماماً كالآلة الصماء ، انحرك من غير شعور..

من أين جاء هذا الخيال وكتبى تعود على بكل خير ! .

الله أعلم .. ومعدنة من هذه الثرثرة ... انه نفثة مصدور .

الفرار

واخيراً ، وبعد أربع سنوات أمضيتها مع التفسير الكاشف تم بعون الله و توفيقه .. فسجدت له شكر ، واهتز قلبي فرحاً، وكنت في أسعد لحظة من حياتي وقلت : لتأليف ولا عمل بعد اليوم .. أبداً لأشيء الراحة و

(١) دارت في رأيي فكرة قبل سنوات ، وتعودني من حين لآخر ، وهي أن أصدر مجلة باسم «هدم وبناء» ، وابوابها الرئيسية ثلاثة ، وما عدتها أنواعي جانبى : الباب الأول الدفاع عن الإسلام . الباب الثاني تبسيط و توضيح مبادئه و تعاليمه . الباب الثالث نقد العيوب ، وهو المراد بالهدم وبيان ما يجب اتباعه على شرط الإسلام وهو بناء و اذا حالت الظروف بيني وبين هذه الفكرة او الأمينة فمعنى ان ينماج لها من هو كفؤ واهل .

السياحة، فلقد علت بي السن، وكفاني مالاقيت.. ولا بد من جو جديد، لا عواصف فيه، ولا قذائف.. وصممت أن أموت بلا متابعة وهموم – إن امكـنـ . وقال لي أخـ يعلمـ حالـيـ : يستحيلـ أنـ تـدعـ التـالـيـفـ ، وستـعودـ إـلـيـهـ منـ حـيـثـ لـاتـرـيدـ .. والـمـسـالـةـ قـضـيـةـ وـقـتـ، كـيـفـ وـقـدـ أـصـبـعـ التـالـيـفـ لـكـ طـبـعاـ ، وـمـنـ وـجـودـ كـجـزـءـاـ ، وـسـتـرـىـ .. فـرـدـدـتـ الصـدـرـ عـلـىـ العـجـزـ ، وـقـلـتـ لـهـ : اـنـتـ الـذـىـ سـيـرـىـ . ولـكـنـ مـنـ اـيـنـ اـبـدـأـ التـرـحـالـ؟ وـمـاـلـبـشـتـ حـتـىـ سـافـرـتـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ اـسـوـانـ، وـاـمـضـيـتـ فـيـهـاـ فـيـ الـفـاهـرـةـ حـوـالـىـ شـهـرـ ، وـفـكـرـتـ اـنـ اـبـقـىـ فـيـ مـصـرـ حـتـىـ النـهـاـيـةـ ، وـلـكـنـ اوـضـاعـ الـحـرـبـ يـبـنـهـاـ وـبـيـنـ اـسـرـ اـئـيلـ مـنـعـتـنـىـ مـنـ التـنـفـيـذـ .. وـالـاـنـسـانـ تـصـوـغـهـ اـحـدـاـثـ الـبـيـئـةـ الـتـىـ يـعـيـشـهـاـ ، وـلـنـ يـتـحـرـرـ مـنـهـاـ بـحـالـ ، وـانـ حـاـوـلـ .

إـلـىـ قـمـ

عـدـتـ إـلـىـ بـيـتـيـ وـمـكـتـبـتـيـ لـاـسـأـلـ مـنـ جـدـيـدـ: اـيـنـ الـقـىـ بـمـتـابـعـىـ وـهـمـومـىـ وـهـلـ يـتـاحـ لـىـ اـتـمـعـ بـالـبـقـيـةـ الـبـاقـيـةـ مـنـ اـيـامـىـ الـتـىـ تـقـصـرـ وـتـذـهـبـ مـعـ الثـوـانـىـ وـالـانـفـاسـ ! . وـتـرـدـ هـذـاـ التـسـاؤـلـ فـيـ نـفـسـىـ اـيـاماـ ، وـبـقـىـ قـائـمـاـ مـنـ غـيـرـ جـوابـ إـلـىـ اـنـ تـلـقـيـتـ دـعـوـةـ مـنـ الـمـرـجـعـ الـدـينـىـ آـيـةـ اللـهـ شـرـيـعـةـمـدارـىـ ؛ يـرـغـبـ إـلـىـ فـيـهـاـنـ اـدـرـسـ فـيـ دـارـ التـبـلـيـغـ ، فـوـقـتـ مـنـهـاـ حـائـرـاـ: هـلـ اـقـبـلـ، اوـارـفـصـ ! وـبـقـىـ فـيـهـاـنـ اـدـرـسـ فـيـ دـارـ التـبـلـيـغـ ، فـوـقـتـ مـنـهـاـ حـائـرـاـ: هـلـ اـقـبـلـ، اوـارـفـصـ ! وـبـقـىـ هـذـاـ التـسـاؤـلـ اـكـثـرـ مـنـ شـهـرـ .. ثـمـ اوـكـلـتـ الـاـمـرـ إـلـيـهـ تـعـالـىـ وـسـالـتـهـ بـاـخـلـاـصـ اـنـ يـخـتـارـلـىـ مـاـفـيـهـ الـخـيـرـ وـالـصـلـاحـ دـنـيـاـ وـآـخـرـةـ، وـاـسـتـفـتـحـتـ بـكـتـابـهـ الـمـجـيدـ، فـوـاجـهـتـنـىـ هـذـهـ آـيـةـ : «ـوـقـالـ اـنـىـ ذـاـهـبـ إـلـىـ رـبـىـ سـيـهـ دـيـنـ ٩٩ـ الصـافـاتـ .» . وـفـرـسـتـهـاـ بـمـاـ يـنـسـجـمـ مـعـ اـمـنـيـتـىـ ، وـهـىـ الـهـدـاـيـةـ إـلـىـ سـبـيلـ الصـفـوـ وـالـهـدـوـءـ وـالـرـاحـةـ وـالـتـحـرـرـ مـنـ الـهـمـومـ وـالـمـتـابـعـ ، وـمـاـخـطـرـ فـيـ بـالـىـ كـتـابـ

فلسفة التوحيد والولاية ، وانه قد ينتفع بي طلاب دار التبليغ وغيرهم من الذين يوجهون الاسئلة الى؛ ويندون باجوبتي ومعرفتي .. وعلى اية حال فقد اجبت الدعوة على شرط ان اسافر الى قم على حسابي ، وبصفتي زائرا لاماقيما ، وادرس الاوضاع فيها عن كثب ؛ وعلى ضوئها اقر رايجاب او النفي ، ولما قبل الشرط عزمت وتوكلت ، وقد استهواي بقم اكثرا من اي شى عالحركة العلمية ، فمن حلقات لدروس الخارج الى اخرى لدراسة السطوح ؛ وثالثة لتفسيير القرآن ؛ ورابعة لنهاج البلاغة ؛ ومن المحاضرات الاسبوعية هنا وهناك الى النشرات الدينية ل التربية الجميل؛ وليظل ارتباطهم بيدهم حيا وقويا .

اما دار التبليغ فرآيتها ان تعج بالاساتذة والتلاميذ ؛ هذا يلقى الدرس على طلابه ، وذاك يسأل ويذاكر ، وثالث مكتب على القراءة والمطالعة ، ورابع يترجم من لغة الى لغة ، وخامس يضرب على الآلة الكاتبة ، وسادس يراقب الاعمال ، ويهتم بشئون الطلاب وحل مشاكلهم ، فعزمت ان اخلص لهذه الدار ، وان اضعف العناية بطلابها جهدهما لاستطيع مادمت في ايران؛ وان لا اقيم اية علاقة مع انسان الاعلى اساس العلم ؛ وان لا استمع لاحاديث السياسة والتحزبات ، او ادخل فيها .. ومضيت على هذا العزم و التصميم وسابقى معي مادمت بعيدا عن وطني .. وليقل صر اصيل الدمن ماشاء لهم اللؤم والضفن .. فلقد االفت الشائعات المغرضة حتى اصبحت عندي كلاما فارغا غالبا تعنى شيئا ؛ او انها تعنى غيرى .

ومهما يكن فقد تقران ادرس فلسفة العقيدة ، والفقه المقارن على المذاهب الخمسة ؛ وقلت لا آية الله شريعتمداري : كيف ادرس باللغة العربية ،

والطلاب لا يفهمونها . قال: يفهمون ، وان صعب عليهم الكلام والتحدث .
قلت : قد يفهمون ما يقرأون ، ولكن هل يفهمون ما يسمعون ؟ . فاعاد كلمة
يفهمون واكدها .

وفي ذات يوم قلت للمطلاب ، وانا القى الدرس : اتمنى لو عرفت الفارسية
لادرسكم بها.. قالوا : نحن لان نرضى ؟ لان استماعنا الى اللغة العربية يساعدنا
على التحدث بها ، ويصحح الكثير من تعايبنا العربية .. ودرسنا يجمع بين
هذه الفائدة وبين ما تهدف اليه .. ثم اضفت الحقيقة عند الامتحان في نهاية
السنة الدراسية ، حيث نجح من تلاميذى الذين كتبوا باللغة العربية بنسبة
٩٨٪ . وتبين لي ان العديد منهم يجيدون هذه اللغة كتابة كابنائها؛ وعندئذ
تنبهت الى ان الانسان يستمع بوصفه متكلما ، لا بصفة ان له اذنين وكفى ،
وانه اذا استمع الى غير لغة الام ركز اهتمامه على فهمها من حيث يريده ؛
اولا يريده .

وبعد ان رسمت هذه الصورة للمجتمع العلمي القمي على ما هو ...
بعيداً عن الميل والتحيز - ابدي هذه الملاحظة بقصد التنبيه فقط ، وهى
ان المجتمع الدينى بقى - على وجه العموم - كغيره من المجتمعات الدينية
الاسلامية يعيش فى عزلة عن الاحداث والتغيرات العالمية نتيجة التركيز
على القديم شكلاً ومحتوى .. ولو كان مع تلك الجهود القيمة توجيه صحيح
لطرأة تغيرات كثيرة ونافعة دنيا وآخرة .. وعسى ان يتاح لهذا المجتمع
من يوقفه من غفوته ، ويوجهه الى الطريق القويم .

والذى تجدر الاشارة اليه ، بل وتجب ان الجهات الاستعمارية و

الالحادية تهتم كثيراً بمعرفة الاوساط الدينية في كل مكان اسلامية كانت ام غير اسلامية، وتجري عنها وعن سائر عادات الشعوب وتقاليدها دراسات واسعة و دقيقة باسم الابحاث الاجتماعية والانسانية ، و تتفق في هذه السبيل الاموال الطائلة، وتعرف عن النجف و قم اكتر مني ومن حجيج الاسلام وآيات الله الملك العلام.. و تهدف هذه الدراسات الى مقاصد معينة لاصحة لها بالعلم و لانسانية من قریب او بعيد، و كل همها واهتمامها ان تعرف تأثير الدين و علمائه في البلاد التي تطبع بخيراتها و اخضاعها لسياستها كى تتفادى كل ما من شأنه ان يتحول بينها وبين مصالحها وارباحها.

اعادة النظر برويه

قد يحاول المرء ان يبتكر و يتمضق فيما يعرضه على القارئ او السامع من عصارة افكاره، فينتهي الى السخف والتعقيد، وكثيراً ما يحدث هذا للذين يتطلعون الى الشهرة بالعلم، والى منصب المرجعية قبل الاوان.. وما اكثرهؤلاء بينما نحن المعممين و «المعبين» (١) و خير و سيلة لتنمية العقل الناقد - التكرار و اعادة النظر بصر و رؤية ، وبقصد التفهم و معرفة الحقيقة، لا بقصد ابراز الشخصية والعبقرية.

و كنت قد كتبت في العقيدة و فلسفتها الكثير من مرة، و اعدت النظائرات، ولكن في الاسلوب والتعبير بقصد التوضيح والايحاز - ما امكن و كنت اسرع الى المطبعة بمجرد ان اهتمى الى قصدى هذا؟ وبالخصوص ان دار العلم و مطابعها كانت تستعجلنى وتلح على .. هذا، الى متابعي الخاصة

(١) من لبس العبادة على غير قياس.

التي كانت تملأ قلبى و أنا بلبنان وقد تحررت منها أو من أكثرها، و أنا فى قم،
و الله لحمد ، وصفى لى جو التاليف و التفكير ، و انعكس آثاره فى هذه
الصفحات التي ادرسها فى دار التبليغ واحسب أنها فترق معه ودقة عما سبق لى
من المؤلفات فى العقيدة الاسلامية و فلسفتها . والله سبحانه وتعالى المسئولان
يتقبل و يثيب والصلوة على محمد وآل و ولاده لاطهار .

تنبيه

اهتم علماء الامامية أى اهتمام بنصوص الولاية كتابا وسنة، وبذلوا
كل جهد بحثا عنها فى كل مكان وبخاصة فى كتب المنكرين ومصادرهم ،
و وضعوا فيها عشرات المجلدات قديما و طبعت مرات ، وانتشرت أى
انتشار حتى أصبحت فى متناول كل يد ، وما زال الخطباء والقراء يكررونها
على المنابر ، ويرددوها العلماء فى المجالس و حلقات الدرس حتى حفظها
الالوف عن ظهر قلب تماما كالفاتحة . . ومن أجل هذا اوجزت الكلام عنها
ـ ما امكنـ واقتصرت على مارايتها ضروريا، و اشرت الى مصادرها السنوية
والشيعية، وأية جدوى من النقل المبذول الذى لا يكلف جهدا؛ ولا يضيف
جديدا ! وهو سبحانه الهدى الى طاعته . والصلوة على محمد وعترته .

فَلَسْفِتْرْ جِدْنْ
كَمْ الْتُّوْ جِدْنْ

أثبات الخالق

بمنطق الحسن والعقل

الدين والشباب

في كل العصور وجد اليمان والمؤمنون بالله ، والاتحاد والملحدون به ، و ماخلا يوم واحد من اولئك و هؤلاء ، ولكن لماذا اعرض الشباب عن الدين في هذا العصر اكثر من أي وقت مضى ؟ هل اكتشف فيه هذا الجيل عيوبا و اخطاء خفية على من عاش قبلهم في عصر الظلمات ، و هم يعيشون في عصر النور والتقدم . والمكتشفات والمخترعات ، او ان قادة الدين خانوه ، وانحرفوا عنهم ، فزعزت الثقة به وبهم ؟ .

ولايتجأ في التعليل الى الشطر الا احقاد او جاهم .
لان الكلام والسؤال عن الدين لاعن رجاله .. والمنحرفون من كل نوع ،
لامن رجال الدين فقط موجودون في كل زمان ومكان .

واجاب البعض من رجال الدين عن هذا السؤال من خلال مشكلاته
الجزئية ، ومصالحه الشخصية .. وليس في ذلك أية غرابة ، بل هو على الاصول
والقواعد ، بالإضافة الى عجزه عن تمحیص الادواء الاجتماعية ، و تحليلها
بطريقة موضوعية .

وقال آخرون : يرجع السبب في ذلك إلى تيارات ومذاهب فلسفية زائفة في تفسير الكون وخاصة المذهب القائل بأن المادة هي الموجود الوحيد . وان الحياة نشأت منها على غير قصد .. ولنا مع الماديين موافق في كتاب فلسفة المبدأ والمعاد .. وسنقف معهم اينما بعد لحظات .. ومن تلك التيارات والمذاهب نظرية التطور، فقد ظن البعض خطأ بأنها تتعارض مع الدين ونحوه ... ولكن عدداً غير قليل من الفائلين بهذه النظرية ، ومنهم دارون نفسه يؤمنون بالله ايمانهم بأنفسهم بعد ايمانهم بأنه لانفسير لتطور المادة يرکن اليه العقل والقلب لا بوجود قادر عليهم وراء الطبيعة والمادة ، ويأتي البيان في فقرة الانسان والفرد .. وقد اجاب شباب الهمبيز عن هذه التيارات ونحوها بالامعقول في المظاهر والافعال ، وفي المخاريق والمخدرات .

ونحن لانشك ابداً في ان بعض المدارس والمذاهب سبب من اسباب الالحاد ، واعراض الشباب عن الدين ، وان الكثير منهم انخدع باسماء تشير إلى تيارات مغرضه ، واسماء لامعة ، تكلم اصحابها عن الكون و تفسيره ، وهم في عمي عن اصله وسره ، نحن لانشك في ذلك ، ونعطي عليه سبباً آخر نعرضه على الشكل التالي :

تنقسم العلوم الى انسانية ، و طبيعية ، و تهدف الاولى الى دراسة الانسان وحياته ومشاعره وتاريخه ، و تهتم بالقيم والمثل العليا ويندرج فيها علم الدين والفلسفة والاخلاق ، والادب والفنون ، والتاريخ والسياسة والاقتصاد ، وما شبهه ، وقد تسهل العلوم الانسانية وسائل العيش لصاحبها ، ولكن هذه الوسائل غير مقصودة بالذات

اما العلوم الطبيعية فتهدف الى معرفة الطبيعة و اشيائها بصرف النظر عن حقيقة الانسان وتاريخه مع العلم با انه كائن طبيعي ، ولا مفر من اعتباره جزءاً من الطبيعة ، وان تميز عن غيره بالعقل والوعي ، والمقصود الاول من معرفة الطبيعة تسخيرها في وسائل العيش ، و مطالب الحياة ، ومن اجل هذا تدرج فيها الصناعة بشتى انواعها.. وقد تبؤت العلوم الانسانية في القديم ، وحيث لم تتقدم الصناعة بعد هذا التقدم الهائل ، و تجرد الانسان عن انسانيته ، تبؤت الانسانيات مكاناً علياً، وبخاصة الدين حيث كان تأثيره بالغاً في تفكير الناس ، و سلطانه قوي على حياتهم في شتى جهاتها .

دفجاة وبسرعة مدهشة خرجت الاله كالعفريت - كما شبهها البعض - وتطورت الصناعة من الاعتماد على اليد والدواب الى البخار، ثم الكهرباء فالذرة ، ووقع الانقلاب العميق والخطير في الحياة ، وترامت الثروات ، وامتلات الجيوب بالنقود ، و تأسست الشركات ، و اقيمت المصارف ، و ارتفعت البنىيات الى قمم الجبال . فتأثير الشباب اى تأثير ، و تمرد الابناء على الاباء ، و اصابهم ما يشبه المنس والحمى ، وابوا الان يتوجهوا الى المادة وعلومها ليحققوا ارفع مستوى ممكناً من الحياة و لوعى حساب الدين والضمير والقيم والمبادئ و علم الدين لا يوصلهم الى هذه الغاية ...

كيف ؟ و هل للدين مصانع و معامل تدر الاموال ؟ . فانصرفوا عنه الى العلوم العصرية وكل ما يحقق الامانى ويسبع الرغبات ، وبالتالي تمردوا على العقائد و الاخلاق و التقاليد .. وبهذا كان يعتذر الى عهد قريباً

المتشائمون من العلوم العصرية .. وكنا نسحر منهم اندماك ، انا وبعض
الرفاق يوم كنت طالبافي النجف الاشرف .

والاسلام يعترف باهمية العلوم الطبيعية و يعتبرها من ضرورات
الحياة وقد حث عليها كما حث على العلوم الانسانية و اعتبرها فريضة على
كل مسلم و مسلمة شريطة ان توجه الى خير الانسانية و صالحها و اي
شيء يجلب الشرور والالام فهو حرام ومن اكبر الكبائر في نظر الاسلام
سواء اسميناه علم انسانيا ، ام علمًا طبيعيا ، فالالة التي تصنع او تتحمل
للمستهلكين الطعام واللباس والدواء فهي عند الله خير ، اما اذا صنعت
او حملت الاسلحة الفتاكه ، واجهزة التجسس فهي شر و وبال .

والخلاصة ان الموجب لاعراض من اعرض عن الدين من الشباب
هو المذاهب المادية الالحادية وحب التباهي والمضاهاة في المظاهر و متع
الحياة ... و اي كان السبب فما نعرض في هذا الفصل الدليل على وجود الخالق من
الحس والعقل من غير تحييز او تقليد ، و بصرف النظر عن اي مان من آمن
والحاد من أللحد ، ونبأ قبل كل شيء في انه : هل يجب على البالغ العاقل
البحث والنظر لمعرفة الخالق ، او هو في حل من ذلك ؟ .

وجوب البحث والنظر

من توضيح الواضحيات ان نقول : العلم بالشيء أى شيء ، خير
من الجهل به ، فكيف العلم بانه : هل لهذا الكون خالق و مبدع ؟ . وهل
للإنسان مبدع و معيid ؟ . وهل هو مسؤول امام خالقه ؟ .. وايضا من نافلة
الكلام ان نقول : ان الجيل في هذا العصر قد اقبل على العلم و مدارسه

اكثر من أى وقت مضى .. ولكن نتسائل : هل الباعث للجيل على طلب العلم هو حب الاطلاع ، ومعرفة الحقيقة ، ام شيء آخر ؟ -

واشر ناقب لحظة ان الغالبية الكبرى من ابناء هذا الجيل يطلبون العلم كوسيلة للمال والعيش ، وانهم يقيسون الشهادة بما تدر عليهم من متع الحياة ، تماما كالبقرة يقاس ثمنها بقدر ما تجلب .. و لو كانوا من طلاب العلم واقعاً ، واهل الرغبة في التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر لاتجهوا ، ولو قليلا الى دراسة هذا الوجود :

« وهو كتاب الفه الله ، فاحكم تأليفه بان جعل كل عنصر من عناصر الوجود حرفاً من حروفه ، وكل ذرة من ذرات الكائنات كلمة من كلماته وكل عنصر يقوم به كائن هو جملة مقروءة، واذن فلله وجود لغة صصيحة سوية النظام ، وكل مركب من مركباته الطبيعية ورائع معنى كالكلمة تماما ووراء هذا المعنى حقيقة خفية ، تبعث على التفكير يفهمها كل لقن ذكي يدرك تعبير الحقيقة المطلقة خلال صحائف هذا الوجود .. بيدان تلك الحقيقة مجردة ، لا تفتح اصدافها عن معانيها تماما الا لكل ذى قلب ذكي ، ومنطق سليم ونظرة خالصة الى الوجود لاتشوبها نزوة من جمود ، لأن المخاطب بتلك اللغة انماهى السرائر الانسانية ، والضمائر الحية الكامنة في نفس البشر ، ومانكنته من مدارك وجودانيات » . (١)

هذا ، الى انا نعلم علم اليقين بان ملايين العقلاط قد آمنوا - على مر العصور - بان للكون خالقا حكيم ، وانه ماترك الانسان سدى ، بل امره

(١) من مقال نشرته جريدة الجمهورية المصرية ، عدد ٢٤ اغسطس ١٩٦٧
بقلم محمود ابي الفيش المنوفى .

ونهاه ، وانه يعيده بعد الموت للحساب والجزاء .. أليس هذا بكاف لوجوب البحث عن الدلائل ، والنظر في الكون وفي افسنتنا لنعلم: هل ايمان الملايين من العلماء والعلماء صواب ، او خطأ ؟ أليس معنى هذا ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه هو في جوهره بحث عن الانسان بالذات ، وعن مبدئه ومصيره ، وتقدير حياته ، وعن مسؤوليته اتجاه نفسه وغيره ؟ .. ان العلم بالله وكتبه ورسله يفتح للانسان ابواباً الى معرفة الكثير من الحقائق والاسرار التي لا يهتدى اليها عالم من العلوم : او عقل من العقول بالغاماً بلغ الابنور من دين الله وشرعيته ، وقد يرث العارفون بالمعنى الدقيق للعلم والمعرفة ، قالوا : ان العقل كالبصر ، والشرع الالهي نور يهديه الى الصراط القويم ، ومن لا عقل له فهو اعمى ، ومن جهل شريعة الله تختبط في الظلمات.

وبعد، فما من عاقل الا ويدرك بانه موجود ؛ وانه حي ، وله احساس و ادراك وانه ذرة في هذه الارض؛ وهي ذرة من الكون العجيب ... الا يوحى ذلك كله بان على الانسان ان ينشد الحقيقة ويفكر في سبب وجوده ومصيره ، فان بحث جاهداً واطمأن عقله الى السبب فذاك ، وان عجز توقف الى ان يزداد فهماً وعلماً ، وترك ما لا يستطيع الى ما يستطيع ولا يسع الى النفي ويقول : كل ما في الكون صدفة واتفاق ، وعثث في عبث ، وتجدر الاشارة الى ان ما ذكرناه في هذه الفقرة هو شرح وتفسير لقول علماء الكلام : «ان النظر في معرفة الله واجب باتفاق المسلمين».

دلالة الكون على علمته:

قال المثاليون : لا وجود لشيء الا اذا ادركه عقل من العقول ، وما لا يدركه عقل ما يسْتَحْيِلُ ان يوجد .

ويتلخص الرد عليهم بكلمات ثلاثة: الأولى أنهم يصادمون البداهة والعيان، لأن العالم الخارجي مستقل بوجوده عن الإنسان وادراته، الثانية أنهم أقاموا الارتكاب الأشياء مقام خالقها وموجدها، الثالثة يلزم على قولهم هذا أن يكون كل فردانياً بنفسه، وإن العالم الذي يعيش فيه زائد غير العالم الذي يعيش فيه بكر، والنتيجة الحتمية لذلك أنه لا معرفة عامة على الاطلاق، أذ يستحيل الاتفاق على شيء، وهذا مادعا «برتراند راسل» أن يقول عن «بركل» زعيم هذا المذهب: «أن مثالية بركل تصور لنا شكلامن الجنون الذي يطبع معظم الفلسفة المعاصرة».

ومن البداهة بمكان أن العالم الخارجي مستقل بوجوده وأنه عن الإنسان وعن ادراكه، وانفاته، لأن الطبيعة أسبق في وجودها من وجود الإنسان، وأيضاً من البداهة أن مامن شيء له نصيب من الوجود لا يمكن العلم به، وبعدها وبعد البحث والنظر، سواء أكان مادياً، أم غير مادي .. وهذا واضح لاريب فيه .. ولكن هل في الكون دلائل تكشف لنا عن وجود علته؟ وما هي هذه الدلائل على فرض وجودها؟.

وأجاب سيدحانه عن هذا السؤال بلسان رسالته وأبياته: أنه، جلت عظمته، هو خالق كل شيء، وقد نبه العقول إلى الأدلة والأمثال الظاهرة القاطعة على ذلك: «وَتَلِكَ الْأَمْثَالُ نُضِرَّ بِهَا النَّاسُ لِعِلْمِهِمْ يَتَفَكَّرُونَ - ٢١ الحشر». والأدلة التي ذكرها سيدحانه على وجوده كثيرة ومتعددة، ويجمعها أو يجمع أكثراها الانتقال والسير من المعلوم المأمول إلى العيان إلى علته، وتم عملية الانتقال من المعلوم إلى علته في ضوء الحس والعقل معاً، وتسمى هذه العلمية عند أهل المنطق بالبرهان الآني، واليه أشار سيدحانه بقوله: «سُنْرِيْهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ

وفي انفسهم حتى يتبيّن لهم انه الحق - ٥٣ فصلت».

وقوله تعالى : «سُنْرِيهِمْ ... حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ» يدل بوضوح على ان دين الله والايمان به يعتمد على منطق الحس والعقل ، اي على التفكير في الطبيعة بمعونة الحواس بحيث يكون الايمان بالله نتيجة للبحث والنظر في الشيء المحسوس ، لان نتيجة الوهم والخيال ، والتقليد والتلقين - كما يظن الجاهلون - ونطعف على منطق الحس و العقل منطق القلب ، فمامن انسان حتى الجاحد (١) الا وتمر بقلبه لمعة ، او تظهر على لسانه كلمة - من حيث لا يريد - تنبئ عن وجود المبدع لهذا الكون العظيم ، فهو يجحد بشيء يؤمن به في قراره نفسه دون ان يلتفت الى ايمانه هذا .. ولاتفسير بذلك الا ان الواقع يفرض نفسه حتى على اعدائه ومعانديه . وتساؤل : نحن نؤمن بفكرة واجب الوجود ايماناً بانفسنا ، لانه اذالم ففترض وجود هذا الواجب لاستحال ان يوجد شيء على الاطلاق .. ولكن لماذا تلفون دور في البحث عن علة واجبة الوجود لنفسه بها وجود الطبيعة ما دمنا في غنى عنها بوصف الطبيعة نفسها بواجية الوجود ؟ وانها لا تحتاج الى علة توجدها تماماً كما يقول المؤمنون عن الله الكائن وراء الطبيعة ، وبكلام آخر ان الماديين يسلمون مع المؤمنين بان واجب الوجود ضروري حتى ، ولكنهم

اجتمع تشرشل و ستالين اثناء الحرب العالمية الثانية وبعد الاجتماع نقل الى مراسلى الصحف ان ستالين كان مكرراً اسم الله في حديثه ويقسم به موكيداً اقواله ونشرت الصحف ما نقله تشرشل الوزارة الانكليزية عن امام الشيوعيين ورئيس الدولة الروسيه .

يقولون : هو الطبيعة . ويقول المؤمنون : بل هو الله الموجود وراء الطبيعة ولماذا الذهاب إلى الوراء ، والبحث عن الغائب مادام الحاضر كافياً وافي؟ . ومهمما يكن ، فإن الاختلاف بين المؤمن والجاحد إنما هو في التطبيق لافي المفهوم ، وفي الصغرى لافي الكبيري .

الجواب :

أولاً : لقد كشف العلم الحديث « إن المادة عبارة عن مجرد حوادث ظاهرة متتابعة لعوامل خفية تكونها ، ثم تتحول المادة إلى طاقة . والطاقة إلى مادة أخرى ، وبكيفية أخرى .. حتى الكائنات التي تبدو لاعيننا ثابتة هي في واقعها سريعة الحركة ، والتطور والتغيير ». ومن البداية بمكان ان ما كان على هذا الوصف والوضع من التحول والتغيير - يستحيل ان يكون واجب الوجود ، وعلة اولية لنفسه ولغيره .

ثانياً : إن المادة الجامدة العميماء لا تكون ولن تكون سبباً للحياة والادراك ، وللنظام والانسجام ، لأن فقد الشيء لا يعطيه .. و اي عاقل يقول : ان العقل في الانسان ، والنظام في الكون ، وما اليهما من حكمه وتدبره ، كل ذلك قد وجد من طبيعة جامدة ؛ او بنحو الصدفة التي رفضها العلم والفلسفة ، والعقل والوجودان .

اما القول بأنه لا فرق بين من آمن وجحد الافي التطبيق والتسمية فقد صدقه بعض السذج ، وهو جهل فاحش ، وخطأً كبيراً ، لأن الله المؤمنين عالم من يد ، يبدأ الخلق ، ثم يعيده للحساب والجزاء ، ويرسل الانبياء مبشرين ومنذرين ، واين منه المادة الجامدة العميماء ؟ .

نحن والتجربة

التجربة هم الذين قالوا : ان مصدر المعرفة كلها هو التجربة والخبرة الحسية ، وان سببها الوحيدة هي الحواس الظاهرة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .. وأية فكرة رأي اكانت او عقيدة لاستند الى حاسة من هذه الحواس مباشرة وبلا واسطة فهى سخيف وهراء وكلام فارغ .. وهذه عبارتهم بالحرف ، : «لواهفل باب الحواس لامتنعت المعرفة كلها ». فصححة الفكرة عندهم تقاس باعتمادها مباشرة على الحس وحده ، اما اذا اعتمدت على الحس و بديهيـةـ العـقـلـ مـعـاـتـكـوـنـ الفـكـرـةـ مـبـرـدـ وـهـمـ وـخـيـالـ ، وـبـالـاـولـىـ اـذـاـعـتـمـدـتـ عـلـىـ عـقـلـ فـقـطـ .

مثلاً نحن نتصور وجود الكون ، ونؤمن به ؛ فهذه الصورة صحيحة وهذا الایمان سليم حيث اعتمد كل منهما على الحس بلا واسطة اما اذا تصورنا وجود خالق الكون ، وآمنا به فيكون التصور و الایمان من وهم الخيال ، لأنهما لم يعتمدَا على شهادة الحواس وحدهما ، بل عليها و على النظر العقلى ، وهو بدأ العلية الذى لا يبتنى على الحس ، وانما العقل حين رأى الترابط والتلازم وجوداً وعندما بين حادثين استخلص من ذلك ان احدهما عملة للاخر ، او انهما معلومان لعلة واحدة مع انه لا ضرورة لهذه العلية على الاطلاق حتى ولو اطرب التلازم بين الحادثينآلاف المرات ، لانه على حد تعبيرهم - مازاينـالـهـذـهـ الضـرـورـةـ حـجـماـ اوـلـوـنـ ، وـلـاـسـمـعـنـاـ لـهـاـ صـوـتاـ اوـحـرـكـةـ ، وـلـاـذـقـنـالـهـاطـعـمـاـ ، اوـشـمـمـنـالـهـارـيـحـاـ ، فـكـيـفـ تـحـكـمـ بـوـجـودـهـاـ ؟ (انظر كتاب نظرية المعرفة للدكتور رزكي نجيب محمود ص ٥٢ وما بعدها ط ١٩٥٦).

ويجدر الاشارة الى ان التجربة يبيين لا يطلقون كلمة العلم الاعلى الخبرة الحسية التي جاءت نتيجة التجربة ، ويسمون سائر المعرف بالنظريات الغيبية والميتافيزيقية والمثالية والذاتية، ويسيخرون منها حتى ولو اعتمد الغيب فيما اعتمد على الواقع الفعلى التجربى.

الجواب:

١- نحن نسلم بالتجربة، ونصدق شهاد الحواس، بل ونعتبرها حججنا
دليل على الحق، ولأنّا نبحث عن سبب حجيتها ودليل اعتبارها، لأنّ علة
التصديق بها موجودة فيها بالذات حيث لا شيء يرافق الحس والعيان... نحن
نؤمن بذلك، وفي الوقت نفسه نؤمن بيداهة العقل وشهادتها، تماماً كما نؤمن
بشهادة الحواس، لأنّ الإنسان بعقله وحواسه، ولا غنى له بأحد همّا من الآخر،
فالحواس تهدي العقل إلى الطريق، وتفتح له باب المعرفة، والعقل يختبر
ما تراه الحواس وينظر: هل هو في حقيقته وواقعه على ما يبدأ للحواس، أو
على غير مرأة وشاهدت؟.

ونعني بـ **البداهة** الخبرة الفطرية التي يشتهر كفيها العالم والجاهل،
ولاتتأثر وتختلف باختلاف الامزجة والطبياع، والبيئة والتربية، كالعلم بـ **المساوي**ين لثالث متساویان، وان المثلث غير المربع، والكل اعظم من الجزء،
وان الشخص لا يوجد في مكانين بـ **ان واحد**، وان الشيء لا يصدق عليه النفي
والاثبات من جهة واحدة، بل اذا صدق احدهما كذب الآخر، وبالعكس،
من انكر هذه البداهة وصحتها فهو تماماً كمن انكر شهادة الحواس وسلامتها..
وما لنا ولعقول الناس ومعرفتهم ، فلندعها ونعرض على الواقع: هل يقبل

ان يكون الشيء واحداً وكثيراً، موجوداً وغير موجود في آن واحد؛
وهذه الشهادة الحسية والبداهة العقلية هما المطريان الاوليان
والاساسيان لمعرفة الحقيقة وقياسها بشتى انواعها ، وعليهما تمضي حركة
الفكر الانساني ، وهم مصدراً فعاله وآثاره ، وعلومه وتقدمه ، وبدونه لا يمكن
بحال الحديث عن الصواب والخطأ ، ولا عن العلم والجهل ... ولكن ليس معنى
هذا ان المعرفة او الفكر لا تكون صحيحة الا اذا استندت الى احد هذين
الاصلين مباشرة ، بل يكفي ان تنتهي اليه بواسطة او اكثراً ، فاية نظرية او
عقيدة تقوم على اساس من شهادة الحس او بديهية العقل ولو بالواسطة فهي
حق وصدق ، وعلم وصواب حتى ولو كانت غيبية ، والافهـي جهل وضلال .

واذن فالعبرة بدليل النظرية والعقيدة لابنوعها وغيبيتها او حسيتها .
اما لافرق ولا فقاوت عند العلماء حقوقها فاعادتى فى مقدار الوضوح والظهور .
بين الايمان بعالم الغيب والايام بعالم الشهادة مادام الشاهد منطق الحس و
بديهية العقل، وبهذا يتبيين الجهل والخطأ فى تقسيم النظرية الى غيبية وغير
غيبية، والحكم ببطلان الاولى على كل حال حيث يفرض علينا منطق العلم و
الحق ان نفس النظرية بدلليها ومصدرها لابنوعها وبماهى فى ذاتها .

والإيمان بالله ايمان بالغيب، لانه تعالى لا يقع تحت الحواس، ولا تصل اليه التجربة الالية، ولكن هذا الاعتقاد صحيح وصدق، لانه يقوم على اساس من شهادة الحسن، وبديهية العقل، فالعين ترى الكون وما فيه من نظام وقوانين ، ومن تغير وتطور، ثم تعرض مارأة على العقل ، وهو ينظر ويفكر في ان هذا الكون المتغير بل والمستمر التغير، والذى لا يحس ويشعر يستحمل ان

يكون علة لذاته و لنظامه و تغيره ، ولسيره في اتجاه معين، بل لا بد له من علة ثابتة أولية قد تفردت بالعلم والقدرة والارادة، وهي التي تحدد اتجاهه، وتنسق حركاته، وتنظم قوانينه، وتدفع به إلى الغاية المقصودة من وجوده.. ان العلة الأولية للكون خفية وغيبية، هذا صحيح، ولكن الايمان بها يبتدئ من الاعتماد على المعرفة الصحيحة وطريقها السليم، أي من الايمان بمنطق الحس والعقل، وليس كما قيل جهلاً أو عناداً : «ان الايمان بالله يبتدئ حيث تنتهي المعرفة»،

وبكلام آخر اقرب الى فهم التجربتين: ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه بحث ذاتي تأملي، وفلسفى عقلى، ما في ذلك ريب، ولكنه في الوقت نفسه بحث عن العلة الأولية للطبيعة، والسبب الموجب لوجودها، وعليه يكون البحث لمعرفته تعالى بحثاً لفلسفة الطبيعة نفسها، واقامة نظرة عامة عنها تشمل كلياتها وجزئياتها، وظواهرها وحقائقها، فاذا اعتمد الايمان بالله - مع ذلك - على شواهد من الطبيعة تكون مقدمات هذا الايمان بما فيها التفكير النظري المعتمد على الواقع ، تكون مقدمات الايمان بالله في مجموعها طبيعية او شبه طبيعية، ويكون الايمان بوجوده سبحانه تماماً كاالايمان بوجود الطبيعة، وانكار وجوده كانكاراً لوجودها.

وقد اطلقوا اسم علم الربوبية الطبيعى على البحث لمعرفته تعالى بالنظر الى اعتماده على منطق الحس وشهادته بوجود الطبيعة وروعتها، وايضاً اطلقوا عليه اسم علم الربوبية الفلسفى بلحاظ حكم العقل بمبدأ العلية واستحالة تسلسل العلل ، ولذلك ان تقول : «وبحث علمي فلسفى باعتبار الامرین معاً.

٢- من اوجه الرد على التجربتين الذين حسروا طريق المعرفة بالتجربة والخبرة الحسية: ان هذا الحصر لا دليل عليه من التجربة والخبرة الحسية.. فرأية حاسة من الحواس الخمس شهدت وادركت هذا «الحصر»؟.. ابداً ولا واحدة.. نقول هذا ردأ عليهم بمنطقهم ، حيث نفوا مبدأ العلية لأنهم ما رأوه بالعين ولا المسوه باليد، وفي الوقت نفسه يردون بالوهم على من يستدل بيداعنة العقل!.

٣- لو نفينا مبدأ العلية_ كما زعم التجربيون_ لانهارت قواعد العلم بشتى انواعه، وما امكن اليقين بشيء اسمه حق وصواب، وسيطر مبدأ الصدفة والاتفاق على كل شيء.. ومن هنا قال فيلسوف كبير: ان هذه النظرية اعظم فتنة ابتدعها الشيطان، وتشتبث بها المعرضون عن الحق.. وقال الفيلسوف الالماني ليينت: «لواقع يمكن ان يكون حقاً او موجوداً، ولا حكم يمكن ان يكون حقاً الا تكون هناك علة كافية لكونه كذلك ، وان كانت العلل في الغالب لا يمكن ان تكون معروفة لنا» .

٤- ان الحواس تختلف باختلاف الافراد، بل ان حواس الفرد الواحد تختلف بحسب ظروفه واحواله، فاذا حصرنا المعرفة بشهادة الحواس كان معنى ذلك ان المعرفة خاصة وفردية، وانه لا قواعد كافية ، وقوانين عامة تضم الواقع وتنظيمها، وبالتالي انكار العلوم من الاساس.

٥ - ان كثيراً من الكائنات الطبيعية تبدو لاعيننا ثابتة ، وهي في واقعها سريعة الحركة... كما ان كثيراً منها لا يمكن ان تراه العين بحال الطاقة تتحول الى مادة، او تتحول المادة اليها، قال علماء الطبيعة: ان

أشياء الكون في حقيقتها ليست طبق مانراه من مظاهرها المجردة وإنما هي في الواقع مجرد مظاهر وحوادث سريعة التتابع، كما جاء في نظرية النسبية لنيشتين.

وقال الدكتور فؤاد صروف في مقال نشرته مجلة عالم الفكر الكويتيية في العدد الثاني من المجلد الثاني: « إن علماء الطبيعة في هذا العصر رأوا بعقولهم مالا يمكن أن يرون به عيونهم، أو بمصوراتهم الضوئية، وقد أفالهم ذلك فهم ما جديداً لأمور كانت غامضة عليهم من قبل ».

آمن علماء الطبيعة بأسرار لا يمكن أن تراها العيون، ولا أن يتبيّنها المجهر المألف « ولا المجهر الكهربى ، ولا مرقب هيل ، وهو أكبر مرقب في العالم كله، ولا تكشف عنها الأشعة السينية » - كما جاء في المقال المشار إليه - آمن علماء الطبيعة بهذه الأسرار التي يستحيل أن ترى بحال من الاحوال، آمنوا بالعالم الغيب، لأنهم رأوه بعقولهم فقط لاغير، وأخذوا التجربة بعيون والماديون والواقعيون والشيوعيون كلهم أخذوا بقول علماء الطبيعة ، و ايمانهم بالغيب الذي لا يمكن أن تراها العيون ولا المصورات الضوئية.. ولكنهم في الوقت نفسه كذبوا المؤمنين بالله، لالشيء الا ان الايمان بالله ايمان بالغيب الذي لا يمكن ان تراها العيون والمصورات الضوئية... فانكر واعلى المؤمنين ما اعترفوا به لعلماء الطبيعة، ونقضوا هناك ما ابرموه هنا.. فان كان نظر العقل حقاً وصواباً فهو لا يقبل التخصيص بفرد او بفئة، وان كان خطأً وضلالاً فـ كذلك .

وان قال قائل: ان لدى علماء الطبيعة مختبرات فنية تشهد للعقل

بالغيب الذى لا يرى بحال، وليس لدى المؤمنين مختبرات او مصانع – قلنا فى جوابه : ان الكون العجيب المتقن هو المصنوع والمختبر الاعظم الذى يشهد لكل ذى لب بوجود صانع الكون العليم الحكيم .. ومن البداهة بمکان ان مختبر العلماء لا يرشهم الى عالم الغيب الا اذا تدبروه وانتبهوا اليه، وامعنوا فيه وفي ادواته، وهكذا لا يرى شدالكون الى خالقه الا اذا اذانظر الانسان فيه بقلبه وعقله ، لا بغير ورته وجهله: « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقاون – ٣٨ – الروم » .

نحن والبرجماتيون:

البرجماتية مذهب جديد، ولها في هذا العصر اتباع وانصار لا يحصون عددا ، وزعيمهم « وليم جميس » وتتلخص هذه الفلسفة بان المعرفة في حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع – كما هو – بل هي اداة للسلوك العملي الذي يدر النفع على صاحبه أي كان نوع هذا السلوك دمهما تكون الوسائل المؤدية الى بلوغ الهدف المطلوب .. فما من شيء حسن في ذاته ، او قبيح في ذاته ، وانما يقاس الحسن بالمنافع ، فسياسة الصناعة الحريرية والتفرقة العنصرية ، والحرروب العدوانية ، كل هذه و ما اليها من احسن المحسن اذا درت الارباح ، وكدست الثروات

لقد فاقت البرجماتية كل التيارات والفلسفات.. قال التجربيون: اذا لم تعتمد الفكرة على التجربة فما هي شيء ، والبرجماتيون يؤمنون بالتجربة، ولكن على شرط المنفعة ، ويقولون : ان التجربة او الفكرة التي لا تجرب ففعالية ليست بشيء « وانما هي وهم في رأس صاحبها » حتى

ولو كان مصدرها التجربة . (انظر كتاب نظرية المعرفة لزكي نجيب ص ٢٩) .

ومعنى هذا ان فكرة الاله والايمان بوجوده وهم في الرؤس ، وجهل في العقول، وعمى في القلوب ، لأن هذا الایمان لا ينشيء مصنعا، ولا يفتح مصرا ، ولا يحتكر سوقا ، او يستعمل شعبا .. وايضا معنى هذا انه لافلسفه واخلاق ، ولا فنون وآداب ، ولا علم نفس وسياسة واجتماع ، ولا مبادى وقوانين ، او حرام و حلال ، ولا بطولات و اعمال خالدات .. ابدا لا شيء الا المصانع والمعامل ، وما اليها مما يدر الارباح، و يؤدي الى التوسيع والسيطرة وتكميل الثروات، ولو على حساب المستضعفين والمستضعفات ونشأت البرجماتية، وترعرعت في احضان «العالم الحر» وجنده لها الاذاعة والصحافة والسينما والتلفزيون ومكاتب الاذاعة وادمة الفلاسفة و افلام الادباء ، و هدفه الاول ان يضفي طابع العلم و التقدم على نظامه الرأسمالي ، و سياساته العدوانية في الشرق و الغرب . وان ينفي الحق والعلم عن كل ما يحيط الى الانسانية بسبب ولكن ما من انسان في آسيا و آفريقيا واروپا مستعدلئن يموت من اجل الرأسمالية، كما قال الفيلسوف الفرنسي « جاك هاريتان » . ي يريد أن هذه الرأسمالية لن تعيش الاعلى حساب الشعوب و مقدراتها ولكن الشعوب لن تخضع و تستسلم ، بل تقاوم و تثور دفاعا عن حياتها و اقواتها .

وبعد، فلا فرق ابداً بين العالم الشيوعي والعالم الحر، ذاك يقول : لانؤمن بالله، لانه ايمان بالغيب، وهذا يقول: لانؤمن الابحقول البترول

واحتكار الاسواق والسلع، والابقابل النايلم واجهزه التجسس.. والنتيجة واحدة من حيث الكفر والالحاد، وادأألح العالم الحر على اسم الله وذكره فانما يعني، الله المخلص للرأسمالية، والمحامي عنه وعنها ، ولا يعني الله الضعفاء والمشردين من ابناء فيتنام وفلسطين.
العلم يدعوا الى الايمان بالله:

آمن كثير من علماء الطبيعة وغيرهم في هذا العصر بعد أن كانوا به من الباحثين، وروا قصة هذا الإيمان وأسبابه، وهي عين بحوثهم وتجاربهم لطبيعة الأشياء المادية وظيفتها.. وقد جمع البعض طائفة من أقوالهم في كتاب باسم «الله يتجلى في عصر العلم» وترجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات ومنها اللغة العربية في ١٧٠ صفحة، وتحديث عنده، ونقلت منه في فصل خاص بكتاب «فلسفة المبدأ والمعاد».

و وضع العقاد كتاباً مستقلاً في «عقائد المفكريين». وهذا هو اسمه الكامل، وفيه رجال من علماء الطبيعة، وفلاسفة وادباء واطباء ومهندسوه وغيرهم.. وايضاً تحدث عن هذا الكتاب، ونقلت منه في كتاب «الله والعقل».
واخيراً قرأت مقالاً مطولاً وبالغ الأهمية للدكتور محمد عبد الهادى ابى ريدة بعنوان «الإيمان بالله فى عصر العلم» نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية فى العدد الاول من المجلد الاول، وهو يغنى - كما اعتقد - عن كل ما كتب فى اثبات الخالق حتى الآن، فلقد عرض فيه نوع الادلة على وجود الله من عهد افلاطون الى اليوم، واحسن العرض واوضح، واجاد فى التلخيص وجمع.. وفيما يلى نشير الى بعض ما جاء فى هذا المقال وفي غيره مما قرأناه فى الكتب الحديثة والصحف.

الفلسفة والعامل العقلي:

تعتمد الفلسفة على التفكير والتأمل العقلي، ومثال ذلك أن تقول: هذا الكون الذي نراه بالحس غير ثابت على حال حيث نشاهد فيه حدوثاً وتحييراً وزواياً، وأذن لا بد له من علة ثابتة مستقرة والازم التسلسل إلى مالا نهاية.. وهذا الدليل يستند إلى مبدأ العلية، ومبدأ استحالة التسلسل في العلل، وضرورة الانتهاء إلى علة أولية لا تحول ولا تزول، وهذا المبدأ عقليان.

مثال ثان للتأمل الفلسفي: للطبيعة نظام متقن ومحكم، وهي تسير عليه منذ ملايين السنين، ولا تحييد عنه بحال، ومن أجل هذا يمكن ضبطها وقياسها والاستفادة منها.. وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الطبيعة مريدة قادرة، وحكيمة عالمية، وهي التي اتفقت وأحكمت، والكيف يجوز وجود فعل متقن محكم من غير عالم حكيم؟.. ويعتمد هذا الدليل على مبدأ العلة الكافية لكل ما يحدث في العالم، وإن الصدفة باطلة لا يصح أن يفسر بها شيء كما هو الحق، لأن الصدفة لا تذكر، وتنفي الترابط بين الأشياء على وجده الاطلاق.

العلم والتجربة:

ويعتمد العلم بمعناه الحديث على الخبرة الحسية والعمل التجريبي الذي يرى بالعين، ويلمس باليد، ولا يتجاوزه إلى العقل إلا ضمن نطاق محدد، وهو استكمال مارأته الحواس ومعطياتها فقط لغيره، ومثال ذلك أن يكتشف علماء الطبيعة العناصر التي يقوم عليها الكيان الطبيعي، وتكون منها الكتلة المادية بشتى أنواعها من الذرة الكيميائية التي لا يقع عليها الحس إلى أكبر

جرم، وان يكتشفوا ايضا ان هذه العناصر ليست ازليه ولن تكون ابدية بل لها عمر محدد، ومتى تم هذا الكشف جزموا تلقائيا بان الطبيعة حادثة.

العلماء المفكرون:

وقد استدل العلماء المفكرون في هذا العصر على وجود الله بالدليل

التالى:

نحن ندرك وجود الكون، ولكن كيف نفسر وجوده ونشأته؟ هناك

اربعة احتمالات للاجابة عن هذا السؤال:

الاحتمال الاول: ان هذا الكون غير موجود في الواقع، وان تصورنا لوجوده مجرد وهم وخيال! وليس من شك ان هذا يخالف الواقع ، لأن الوجود مستقل ومنفصل عن الذات التي تدركه.

الاحتمال الثاني: ان ينشأ هذا الكون من العدم وبلا سبب! وهذا مستحيل، لأن الصدفة لا تفسر لنا وجود العالم بما فيه من مادة وطاقة، فكيف بالنظام المائل والتنسيق الهائل في كل شيء؟.. ان هذا يحتاج الى ادراك وقدرة، وعلم وحكمة، والمادة لا تنشيء شيئاً من ذلك، ولو تولدت الحياة من المادة نفسها لم يكن هناك تفرقة بين مادة ومادة، وان تظهر الحياة في هذه دون تلك.. اجل، قال العلماء:

« اذا بلغت المادة مبلغاً معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الحياة فيها، وتهيأت لخدمتها، مثلها في ذلك مثل الجهاز الذي يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء، فان اجزاء الجهاز لا تتحرك الا اذا اجتمعت على النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته ، وكذلك الاعضاء الجسدية لا تخلق

الحياة، وانما هي ظرف صالح لاستقبالها وتلبية حركاتها اذا تم تركيبيها على النحو المعروف ». و من هنا كان التفسير الالى الميكانيكى لحركة المادة باطلًا.

الاحتمال الثالث: ان الكون ازلى لا بد اية له.. وهذا باطل حيث اكتشف العلم الحديث حتى الان عناصر يبلغ عددها 102، وكل مادة عرفها الانسان تكون من واحد او اكثر من هذه الـ (102) وبعد دراستها بدقة تبين لعلماء الطبيعة ان جميع هذه العناصر في سبيل الزوال، ولكن بعضها يسير اليه بسرعة، وبعضها ببطء، وفي ضوء هذه الحقيقة قرروا أن العالم له بداية ونهاية، وأنه لا بدان يزول بعد أن تتحقق الغاية من وجوده، وقدروا عمر العالم على التقرير بحوالي خمسة بلايين من السنين.

و اذا بطلت الاحتمالات الثلاثة تعيين الرابع، وهو ما نقله ابو ريدة عن «مونسما» في مقاله الذي اشرنا اليه وهو «لا بد لاصول الكون من خالق ازلى ليس له بداية ، علیم محيط بكل شيء قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد ان يكون هذا الكون من صنع يديه». وايضا نقل عنه مانصه بالحرف:
« اذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن ان يخلق نفسه ، او يحدد القوانين التي يخضع لها فلا بد ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى، وتدل كل الشواهد على ان الخالق متصف بالعقل والحكمة والارادة .. واذن فالنتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا

(١) ذكر احمد امين العرقى في آخر الجزء الثالث من كتاب التكامل في الاسلام - جدول باسماء هذه العناصر.

الكون خالقا فحسب ، بل لابد ان يكون هذا الخالق حكيماعليما قادرًا على كل شيء كى يستطيع ان يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولابد ان يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان» .

ان ايمان من آمن بالله عن طريق النظر في الكون وفي الانسان - يكشف لنا بوضوح عن السر في قوله تعالى : « سررهم آياتنا في الافق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ان رجال العلم الطبيعي كغيرهم من العلماء وارباب المهن يهتمون فقط بما يتصل بوظيفتهم و اختصاصهم ، ولا يفكرون في غيره الا عرضا وعند الضرورة ، ولكن علماء الطبيعة التقوا على غير ميعاد مع الطريق المؤدية الى معرفة الله تعالى والايمان به، ذلك بان الافق اي اقطار السموات والارض هي الموضوع الاساسي لبحوثهم، والميدان الفسيح لتجاربهم، وهي في الوقت نفسه نقطة البداية والانطلاق الى العلم بوجود الله ، فانتهت بهم هذا اللقاء الى معرفته تعالى والايمان به من حيث لا يرون .. وصدق من قال : العلم يدعو الى الايمان . ومن اصدق من الله حديثا : « انما يخشى الله من عباده العلماء - ٢٨ فاطر» .

وفيما يلى نذكر فقرتين : احدهما لمثال من الافق التي اشارت اليها الآية ، وهو القمر ، والثانية للانسان وما يتصل به .

القمر

في صيف سنة ١٩٦٩ هبط على سطح القمر (ائدا الفضاء الامر كيان: «ونسج» و «ادودين» و تعقبت ماكتب علماء الطبيعة حول رحلتهما.. واشير هنا الى ما قرأته في جريدة الاخبار المصرية عدد ٢-١٩٧٠، فقد ترجمت هذه

الجريدة في العدد المذكور مقالاً عن جريدة برافدا السوفيتية لعالمين
شيوعيين بارزين في العلوم الطبيعية ، و هما «م فاسين» و «واشر باكوف»
السوفيتيان.. لقد اطلع هذان العالمان على المتأرجح التي اعلنها العلماء
الامريكيون لدراسة تربة القمر و الصورة التي اخذت له عن كثب ، و قالا
فيما قالا :

« ان الدراسة العلمية الحديثة ترفض كل النظريات الشائعة عن
اصل القمر ، ولا تقبل الافتسيرا واحدا ، وهو ان القمر مصنوع صنعا دقيقا
ومحكم ، وان الذي صنعته قوة مذهلة تملك من الطاقات ما لا يملكه اي
كائن من الكائنات .. ان الدراسة العلمية تبدأ بفكرة جديدة ، وتقول هذه
الفكرة الجديدة : ان في القمر ظواهر يستحيل ان توجد بالصدفة ..
كلا ، اذ هاتمت بيد عالمة قادرة قد احکمت صنع القمر احکاما مذهلا » .

آمن الشيوعيون وغيرهم من الماديين آمنوا بالمادة ، وقالوا : هي
الموجود الوحيد ، ولا اله الا هي ، وان الحياة والسمع و البصر والعقل و
سائر الغرائز الانسانية والحيوانية ، وان نظام الكون ، وما فيه من ابداع
واسرار ، كل ذلك و ما اليه من الموجودات لاساس لها الماد ، ولا حول ولا
قوة الا لها وحدها ، فهي الظاهر والباطن ، والاول والآخر ، و فلسفوا هذا
الا لحادب بكل ما يملكون من منطق ، ورفضوا القيم والاديان بشتى انواعها ،
وزعموا ان العلم عدو الايمان بالله واليوم الآخر .. ولم يأتقدموه بعض الشيء
في العلم الذي جعلوا منه عدوا الله ورسله - قادهم ، او قاد الكبار من علمائهم
في الطبيعة والمادة فادهم « هذا العدو » من غمرين الى الايمان ، بمصدرهذا

الكون وخالقه «العالِمُ الْمَرِيدُ» الذي يملِكُ مِنَ الطَّاقَاتِ مَا لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا
كَائِنٌ مِنَ الْكَائِنَاتِ » حتى المادة الله الشيوعيين والماديين ، و فوق ذلك
اعلنوا الدليل المادي المحسوس على اثبات الخالق ليكون حجة باللغة
قاطعة على جميع الماديين .. هذا، وهم لا يعتبرون ان من عملهم اثبات الخالق
الكائن وراء الطبيعة و فوق المادة ، بل العكس هو الصحيح .. فاين هي فلسفة
ماركس و لينين ، و انجلز و ستالين ؟ اين هي ؟ لقد ذهبت مع الهباء بنظرية
صحيحة واحدة من العلم الى الآفاق .

ومهما شكلت فاني لا اشك ابدا في ان هذين العالمين السوفيتين:
فاسين وباكوف هما من اظهر المصاديق والافراد الذين عندهم الله بقوله .
«سنرِيْهِم آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ النَّحْنُ..» .لقد فسرت هذه الآية الكريمة في التفسير
الكافش ، واطلعت الكلام حولها بعض الشيئ ، و الان ، وانا ارسم هذه الاحرف
خطرا لى ان اعطي على ما اسلفت هذا المعنى ، وهو ان الله سبحانه قد تحدى
بهذه الآية - فيمن تحدى - العلماء الماديين الذين علم الله انهم سيوجدون
بعد اكثر من الف سنة ، بل والوف السنين من نزول كتابه الكريم ، وبعد ان
يزدادوا علم بالكون ، تحداهم بما يريهم من آياته في الآفاق .. وقد ادراهم ..
فما استطاعوا الا الاذعان لها والتسليم بها .. ونحن على علم اليقين ان المستقبل
لعقيدة التوحيد لأن سبيلها سبيل العلم ، والامل به هو الامل بها بالذات .
تذكرة - وافقاً ماقاله العالمان السوفيتيان - كلمة لابن عربى
في الفتوحات المكية ، وهي : انك لا تقدر أن تفكك ماترى ، كما انك
لا تقدر ان تجهل ماتعلم ، وانت ترى الوجود ، وتعلم به علم اليقين ، وهو

حروف وكلمات وسور وآيات تنطق بوجود كاتبها ؛ وهو الله وان لم تره ، فالوجود قرآن الله الكبير الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه . شيئاً آخر تجدر الاشارة اليه ، وهو: هل الذى تحدى علماء الطبيعة و غيرهم منذ نزول القرآن الى آخر يوم ، وقال: سفري بهم آياتنا في الافق وفي انفسهم حتى يتبيّن لهم انه الحق «هل الذى قال هذا بعزم و حزم هو الله خالق الكون والافق ، او محمد الذى لا يقرأ ولا يكتب ؟ .

وكيف يجرأ محمد على هذا القول ! ومن اين اخذ علمه بالشمس والقمر وغيرهما من الكواكب ؟ هل اخذه من الصحراء ، ام من ابي جهل وبحيرة الراهن ، ام من التوراة والانجيل ، ام صعد الى القمر والمريخ ؟ ابداً . لافتسيـر الـاـلوـحـىـ منـ القـادـرـ العـلـيمـ ، والـاـاعـجـازـ عـلـىـ يـدـ النـبـىـ العـظـيمـ .

الانسان :

اشـرـ نـاـ فـيـ الفـقـرـةـ السـابـقـةـ إـلـىـ مـثـالـ مـنـ الـاـفـاقـ ، وـهـوـ الـقـمـرـ ، وـنـشـيرـ فـيـ هـذـهـ الفـقـرـةـ إـلـىـ الـاـنـسـانـ ، قـالـ تـعـالـىـ: « يـخـلـقـكـ فـيـ يـطـوـنـ اـمـهـاتـكـ خـلـقـاـ منـ بـعـدـ خـلـقـ فـيـ ظـلـمـاتـ ثـلـاثـ عـ.ـ الزـمـرـ ». وـقـالـ: « لـقـدـ خـلـقـنـاـ الـاـنـسـانـ فـيـ اـحـسـنـ تـقـوـيـمـ ٤ـ التـيـنـ ». .

وقـالـ: « وـفـيـ اـنـفـسـكـ اـفـلـاـ تـبـصـرـونـ ٢١ـ الـذـارـيـاتـ ». يـقـولـ سـبـحـانـهـ فـيـ هـذـهـ الـاـيـاتـ وـغـيـرـهـاـ ، يـقـولـ لـلـجـاحـدـ: الـمـتـنـظـرـ الـىـ نـفـسـكـ ، وـتـفـكـرـ فـيـ مـبـدـئـكـ وـتـقـلـبـكـ خـلـقـاـ بـعـدـ خـلـقـ ، وـمـنـ طـوـرـ الـىـ طـوـرـ ، وـتـنـظـرـ الـىـ اـعـنـائـكـ وـجـوـارـحـكـ وـسـمـعـكـ وـبـصـرـكـ وـعـقـلـكـ وـبـيـانـكـ وـفـطـنـتـكـ وـقـدـرـتـكـ .. إـلـىـ غـيـرـ ذـلـكـ مـنـ صـفـاتـ الـرـوـحـيـةـ وـالـجـسـدـيـةـ ، ثـمـ تـسـأـلـ عـقـلـكـ وـبـصـيرـتـكـ: هـلـ اـوـجـدـتـ اـنـتـ

ذلك بنفسك، او وجد صدفة ومن غير عملة، او ان ورائعه خالق، قد يرا وعظيماً؟
ولو لم يكن في الكون الا انت وحدك فقط لا غير لوجدت من نفسك الف
دليل ودليل على من انشأك وابدعك .

ان في الانسان آيات واسراراً لا يبلغها الاحصاء ، و كلما اكتشف
العلم منها سر أخفى عليه مئات والوف تماماً كالكون .. ومن هنا قال له
من قال :

« وفيك انطوى العالم الاكبر ». وكما اكتشف العلم الحديث بعض
اسرار القمر وغيرها من الافاق فقد اكتشف ايضاً بعض ما في الانسان من سر،
وآخر ما قرأت في هذا الباب مقالاً نشرته مجلة روزاليوسف المصرية عدد
٧ - ١٩٦٩ـ٤ جاعفيه :

لقد اكتشف العلماء في هذا العصر ان في جسم الانسان بلايين البلايين
من الخلايا .. وتبين لهم ان هذه الخلايا مجتمع من المخلوقات المختلفة،
لاترى الواحدة منها شدة صغرها الا بالميكرسكوب ، وبلغ عددهذه الخلايا
عشرة اضعاف عدد البشر، وكلها تعيش في دم الانسان مدة اربعة اشهر فقط ، و
يحل غيرها محلها وبمقدارها بحيث يكون عدد الجيل اللاحق كعدد الجيل
السابق لا يزيد ولا ينقص ، وبعض هذه الخلايا على هيئة ثعلب، وبعضها على
شكل فيل ، وبعضها تماماً كالتمساح الخ .. وهذا العجب ، العجب من هذا
التنوع .. ومن كثرة العدد .. والاتفاق فيه دون زيادة او نقصان .. هل كل
ذلك من صنع المادة العمياء ، او من باب الصدفة، او من صنع القدير العليم؟ .
فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم .

وصدق الفيلسوف الانكليزي جون لوك حيث يقول : صحيح ان الله لم يخلق الايمان فينا خلقا : ولم يطبع في عقولنا حروفه فاستطاع ان نقرأ وجوده بها ، ولكن لم يجعل وجوده بلا دليل يشهد له ... فلقد ادعا فينا ملكات وقوى تدل عليه دلالة كافية وافية ، ونحن لانحتاج الى برهان يدل على وجوده اوضح من ذلك .

ولانستطيع ان نشكوا من جهلنا به ما دمنا نحمل ذواتنا معاً؛ فانه قد هيأ لنا بذلك كل ما يلزم لمعرفة وزيادة .. وهذا شيء واضح كاليقين الرياضي .. ولا يحتاج ابدا الى اكثرا من التفكير والانتباه الى وجوده اليقين ، فنبرهن به على وجود الله باصدق برهان واوضحه ، تماما كما نتباهى ونفكرون ونستدل على مسائل تحتاج اليها في حياتنا اليومية ، لانها قابلة في ذاتها للبرهنة الواضحة .

الانسان والقرد :

وتساؤل : ان دارون واتباعه يقولون: ان الانسان وجد اول ما وجد على غير صورته التي هو عليها الان ، فما تقلد منها الى نوع آخر حتى انتهى الى القرد ، ومنه الى صورته الحالية ؟ .

الجواب : قد نعرف بالتحليل في المختبر ما في الانسان من مواد كيماوية ، اماكيف وجد ؟ . وعلى اية هيئه كان ؟ فلاتجريب المختبرات عن هذا السؤال ، اما المشاهدة فاي . خلوق رأى وشاهد بدايه خلق ابيه ؟ .. ولا شيء عفى الحفريات يدل دلالة واصحة ومقنعة على اصل الانسان ، فلم يبق الانظريه التطوريه ، وهي من غير شك جديرة بالعناد ، ولكنها لم تفسر نشأة

الحياة تفسير اعلميا ... على انه الاتتصاد مع وجود خالق لهذا الكون .
الى هنا ، وندع الكلام عن نظرية دارون الى شا ، له شهرته الادبية
والثقافية ؛ ومؤلفاته الكثيرة منتشرة بين ابناء الجيل ذكورا واناثا وهم
الدكتور مصطفى محمود المصرى المحرر بمجلة صباح الخير الان « وقبلها
بمجلة روزاليوسف ؛ وقد مر هذا الشاب بدور الشك والالحاد ؛ والفكاك
اسمه الله والانسان انكر فيه وجود الخالق ... ونقطته بكتاب « الله والعقل »
ثم آمن مصطفى محمود عن اقتناع ببيانات نشرها ، بل وكرر نشرها في الصحف
وفى اكثرب من كتاب ، من ذلك كتابه « القرآن محاولة لفهم عصرى » . ويتلخص
مقاله في هذا الكتاب عن نظرية دارون ، بما يلى :

ان هذه النظرية ترتكز على امرتين : الاول ان الحيوانات انحدرت
بكمالها من اصل واحد .. ثم اختللت نتيجة لاختلاف الظروف والبيئات ،
فالانسان - مثلا - في المناطق الباردة مكتنز اللحم بينما هو في المناطق
الحرارة نحيل هزيل ... وكذلك سائر الحيوانات تتكييف بيئتها وظروفها .
الثاني: ان كل حيوان تطور من نوع الى نوع نتيجة لبواطن وعوامل من
داخله ، ومن خارجه .

وقال مصطفى محمود في الرد على ذلك بان العلماء امضوا بعد دارون
ستين وسبعين يمحيصون ويعدون النظر في قوله ، فكانت نتيجة بحثهم و
تمحيصهم ان التطور في عالم النبات وعالم الحيوان معلول لعلة خارجة عن
جنس النبات والحيوان ، ومخالفة لمافيهما .. وقد لمسنا آثار هذه العلة
الخارجية في ورق الشجر ، والوان الزهر ، واجنحة الفراش ، وريش

الطاوس ؟ واعظم من هذا كله ان بعض الاشجار الصحراوية تحمل ثمرة يطير بaganjته ملحة فاني الهواء .. كل هذا ؟ وغير هذا لا يفسره الا القادر الذي لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبيث .

ثم قال مصطفى محمود : ان دارون في نظريته اشبه بقاهر الناظر الذي رأى سيارة تسير دون ان يرى السائق ، فظن انها تطلق بفعل الالات المادية التي في داخلها فقط دون اى اثر للسائق .

وبعد ، فلادرى : كيف رضى دارون واتباع دارون ان يضعوا الانسان بين القردة والحيوان ، وهو سيد الخلق بما يتمتع به من ادراك وملكات ، وينفر منه من نسق في القيم الخلقية والجمالية ! .. قال الله ، جلت حكمته : « ولقد كرمنا بني آدم - ٧٠ الاسراء » وقال دارون : كلا ، انهم قرود ابناء قرود !

على ان دارون كان يؤمن بوجود الله فقد اشتهر عنه انه قال : « يبدوا لي استحالة القول بان هذا الكون العجيب العظيم وما انطوى عليه من شعورنا الوعي . انما كان وليد الصدفة ، ان هذا الكون هو اكبر سند للقول بوجود الله » . انظر كتاب الانسان في القرآن للعقاد .

والخلاصة ان الایمان بالله ليس ثمرة للوهم والتقليل ، و لا التفسير ما يجعل تفسيره من ظواهر الطبيعة ، ولا التخوف به المردة الطفاة ، ولا لخدر به المستضعفين من الشعوب ، ولا فراراً من حيرة العقل ، ولا ارضاء لحاجة روحية وتعليلات امنية نفسية ، وانما هو ثمرة حتمية ، لمنطق الحس والعقل ، وشهادة البصر و البصيرة ، ولا شيء اصدق في الدلالة على هذه

الحقيقة من نهيه تعالى في العديد من آياته عن اتباع الحدس والظن ، وامره بالاعتماد على البصر والبصيرة كطريق الى معرفته والایمان بعظمته ، كما اوضحنا ذلك بواستناده بالارقام .. ومن حجد وكفر فقد خالف الحق عناداً له ، او جهلاً به لقصصه في البحث والنظر ، او لقصوره في العقل والفكر .

صفاته تعالى

التوحيد ان لا تتوهمه

تكلم الفلاسفة وعلماء الكلام عن صفاته تعالى ، و اطالوا؛ ولخصنا اقوالهم في كتاب معالم الفلسفة الاسلامية ، وكتاب فلسفة المبدأ والمعاد؛ و تقتصر هنا على ماجاء في القرآن الكريم ، ومن تابع آياته يجدالكثير منها يشير إلى الأدلة على وجود الله سبحانه ، ولا يجد آية واحدة تشير من قريب أو بعيد إلى تحديد ذاته القدسية وبيان كنهها و حقيقتها ، وقد سأله فرعون عن ذلك، فاجابه موسى بالآثار والأفعال ، كما في الآية ٢٣ من الشعراة: «قال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والارض». .

وفي الآية ٤٩ من طه : «قال فمن ربكم يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى». وهذا أمر بديهي وطبيعي : لأن العقل الحادث المحدود يستحيل في حقه أن يحيط بالازل الابدي الذي لا أول لا اوله ، ولا آخر لآخره ، و من هنا قال أمير المؤمنين (ع) : فكر و افني خلق الله ، ولا نفكروا في ذات الله . وقال : التوحيد ان لا تتوهمه . اي لا تتصوره بوجهك لأن كل موهوم محدود ، والله لا يحده شيء .

دليل الوصف:

وايضا من تابع القرآن لا يجد فيه اثرا صريحا للاستدلال على ثبوت

صفة من صفاته تعالى غير التوحيد ، ونفي الشريرك ، اما سائر الصفات كالعلم والقدرة والحياة ، وكثير غيرها فانه يذكرها ، ويحاطب الناس بها كشيء مسلم به، ومفروغ منه ، والسرانه بعد ان قام الدليل القطعى على وجود واجب الوجود بالذات ينتج حتما انه جامع لصفات الجلال والكمال ، وانها في حقيقتها فوق صفات الممكن الحادث بالغام بالغ من العظمة ، لأن صفات كل شيء بحسبه .

وبكلمة ان هذا الكون العجيب بابداعه ونظامه يحمل الدلائل القطعية على قدرة المبدع وعلمه ، وارادته وحكمته ، تماما كما يحمل الدلائل على اصل وجوده ..

و عليه فاي داع لاطالة الكلام عن صفاته تعالى وتقسيمه الى اقسام ، والاستدلال عليها بالقياسات والاستنتاجات ، وما الى ذلك مما هو مدون في كتب الفلسفة وعلم الكلام .

العلة اكمل من المعلول

وتسائل : ان الفعل يدل على وجود الفاعل ، وايضا يدل على صفاته التي تتجلى في الفعل ، ويظهر اثرها للعيان ، اما الصفات الاخرى فلا يدل عليها الفعل - مثلا - حسن الخط او جودة البناء يدل على ان الكاتب يتقن فن الكتابة ، ولكنه لا يدل بحال على ان الكاتب او الباني كريم وشجاع ، او جميل وبلغ ، وهذا هو مراد من قال : العلة اكمل من المعلول ، واذن فلا بد ان تلتمس المعرفة بسائر صفاته ، نلتذ به من طريق آخر غير النظر في الكون وفي انفسنا ، ولا طريق سوى العقل واستنتاجه .

الجواب : اما الصفات التي تضاد الى الذات القدسية ، ولا تتمددها كالخالق والرازق والرحمن والرحيم والمحب والمميت . فانها تعرف من الفعل . وكذا بعض الصفات الذاتية كالحياة والعلم والقدرة . يظهر اثرها في خلقه تعالى وافعاله ، واما عداؤ ذلك فان ثبت بيديه العقل ، او بآية منزلة اورواية متواترة آمنا به ايمانا بالله ، والواجب السكوت عما سكت الله عنه .. اجل : يجب الاعتقاد اجمالا بان الله متصف بجميع ما يليق بقدسيته وعظمته ، اما التفصيل فتحن غير مسؤلين عنه ، ولا محاسبين عليه .. حتى العلم بالحكمة من وجود العالم ، وخلق الانسان .. بل والعلم بان الانسان مسير ، او مخير .

ابداً .. لا يجب البحث والنظر الامن اجل الایمان بالله ، واليوم الآخر وبالنبي والولاية له ، ولمن لها العصمة من اهل بيته ، والاعلم اجتهاداً ، او تقليداً بما يجب فعله او ترکه على اساس الوحي والنص من كتاب الله وسنة نبيه .. وبكلمة واحدة ان الذى يجب معرفته عقلا هو طريق النجاة من الهلاكة فقط لغيره .

نفي الصفات :

لا يختلف اثنان من المسلمين في ان الله سبحانه وتعالى يوصف بكل ما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وان عظمته في الكمال والجلال كما هي لا يحدها وصف ، ولا يدركها عقل ، وانها ازلية ابدية تماماً كذاته القدسية .. واما الكلام والخلاف في ان الصفات العليا بأى معنى تنسب اليه تعالى ، وتطلق عليه : هل تنسب اليه ، جلت عظمته على انها شيء غير الذات ،

وزائدة عليها على كنهها تماماً كما هي الحال في وصف الانسان بالعلم ، فإن حقيقة الانسان حيوان ناطق ، وحقيقة العلم: الكشف عن الواقع، فاذا وصفنا الانسان بالعلم فقد وصفناه بما هو زائد وخارج عن ذاته وطبيعته والا كان الانسان بما هو عالم من غير كسب واستفادة وبحث ودرس؛ وهذا اخلاف الحسن والوجدان هل وصف الله بالعلم وغيره كذلك وعلى هذه الحال ، او ان الله يوصف بالعلم والقدرة بمقتضى ذاته وحقيقةه، لا بشيء زائد عنها تماماً كوصف الانسان بالانسانية، والشجر بالشجرية – مثلاً_ قال الاشاعرة كل صفاته تعالى غير ذاته وزائدة عليها ؛ ومعنى هذا ان ذاته بما هي لاقتضى العلم والقدرة ونحوهما من الكمال تماماً كما ان ذات الانسان لاقتضى العلم .. وقد تخطوا بذلك حدود التوحيد حيث يلزمهم القول بتعدد القديم ، كما تخطوا حدود العدل في قولهم بالجبر .. وما نالوا لهم وندعهم وشأنهم.

وذهب اهل العدل والتوحيد الى انه لا صفات لذات الله تزيد على ذاته، وان وصفه بالعلم والقدرة كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية ، لان ذاته تعالى بما هي وطبعها تقتضي العلم والقدرة، بل هي عين العلم والقدرة ، كما ان الانسانية عين الانسان ؛ لان كماله تعالى ذاتي لا كسبى ، ومطلق غير مقيد بشيء دون شيء ، وجده دون جهة ، وانه بموجب هذا الكمال الذاتي المطلق غنى عن كل شيء عجز عن ذاته وحقيقةه. ولماذا الزيادة وما هو الداعي اليها مادامت الذات القدسية كاملة بنفسها غنية من كل وجه وهل نحتاج الى الزائد لنكملي بها الكامل ونتم التام ؟

وعلى هذا اذا اطلقنا صفات الكمال عليه تعالى كالعالم وال قادر فيجب

أن يراد بها نفس الذات القدسية التي تقدر على كل شيء وتعلم كل شيء تماماً كما يراد من الكلمة «الله» وكل وصف جاء في القرآن ، وعلى ألسنة الراسخين في العلم فإن المراد منه هذا المعنى بالخصوص.. أما الصفات المنسوبة عن ذاته تعالى في كلام أمير المؤمنين وغيره من الآئمة الاطهار (ع) فهي الأحوال الخارجة عن الذات ، والرائدة عليها ، وتعرض لها بسبب من الأسباب ؛ تنفي هذه عنده ، لأنها من صفات المخلوقين دون الخالق .

وتساؤل: كيف تتصور وحدة الذات مع تعدد الصفات؟ وهل هذا الأقوال من قول: الاب والابن وروح القدس إليها واحداً .

وأجاب البعض بأن الصفات بالنسبة إليه تعالى متعددة مفهوماً متقدمة مصادقاً .

وهذا الجواب - كمانري - لا يحل الأشكال ، لأن صدق المفاهيم العديدة على شيء واحد يستدعي أن تكون بحثيات عديدة ، فيقال : هو عالم ، لصدق مفهوم العلم عليه ، وقدر لصدق مفهوم القدرة .. والله تعالى واحد من كل وجه ، لاحثيات له وجهات .. أجل ، يقال: هو علم لأن العلم ذاتي له ، وهو عالم ، لأنها يعلم كل شيء ، ولكن الجهة هنا واحدة ، وهي العلم . والأولى في الجواب : أنه لامصادق ولا مفاهيم ، ولا حثيات وجهات .. لشيء على الاطلاق لا وجوب الوجود الكامل المطلق من كل وجه ، وإن التعدد إنما هو في أنواع الكمال واقتسمه ، لافي ذات الكمال المطلق الذي هو المبدأ الأول لكل كمال .. وبتعبير ثان كما أن تعدد المخلوقات لا يتنافي مع وحدة الخالق كذلك تعدد الكلمات لا يتنافي مع وحدة مبدئها ومصدرها .

انما هو الا واحد.

الطبيعة واحدة لوجود الترابط والاختلاف بين اجزائها ، والترتيب الدقيق المحكم ؛ قال الملا صدرا في الاسفار : « ان مجموع العالم من حيث هومجموع شخص واحد ، له وحدة طبيعية ، وليس وحدته كوحدة اشياء متغيرة اتفق ان صار بالاجتماع والانضمام كشيء واحد مثل اجتماع البيت من اللبنات وال العسكري من افراد ، وذلك بان اجزاء العالم بینها علاقه ذاتية لانها حاصلة على الترتيب العلی والمعلولی » ومثاله الارض فان ثبوتها في مكانها معلول عن ثبوت الشمس في مقرها ، وثبوت الشمس في مقرها معلول عن ثبوت غيرها من الكواكب في اماكنها ومن اجل هذا كانت الفوائين التي تحكم اى جزء من اجزاء الطبيعة هي بذاتها تحكم اجزاء الاخرى ، وان دل هذا التدبير الواحد على شيء فانما يدل على ان المدبر واحد ، ولو كان اكثر تعدد التدبير وتبادر ..

وهذا هو المراد بقوله تعالى : « وما كان معه من الله اذن لذهب كل الباقي ^{٩١} - المؤمنون ». ومثله او قریب منه قوله تعالى (: « لو كان فيهما الله الا الله لفسدتا ^{٢٢} - الانبياء » اى لو تعددت الالله في الارض والسماء لما انتظم امر من امور الكون ، لانصراف الالله عن تدبيره الى الصراع على السلطة والحدود .

وبتعبير واضح ، ومنطق اوضح : لو وجد الهان فلا يخلو : اما ان يكون احدهما قادر على تدبير العالم ، واما ان لا يكون ، فان كان قادرآ كان وجود الثاني عيناً لزوم ما لا يلزم ، وان لم يكن قادرآ فلا يصلح للالوهية لعجزه من

جهة، وعبث وجوده من جهة ثانية.. و من هنا عند مسائل الامام الصادق عن الدليل على ان الله واحد قال: ما بالخلق من حاجة الى اكثر . وقال الفيلسوف الالماني «كنت» : ان الطبيعة واحدة ، واجزاؤها مترابطة ، و اذا كان لكل كوكب و جرم فقانون خاص فان هناك قانوناً يشمل الجميع ، وهذه الوحدة في القانون والترابط تدل على تنظيم واحد ، و منظم واحد .

حسبى الله:

وهذا الذى اقتصرنا عليه فى الدلالة على التوحيد وغيره من صفات الجلال كاف المعلم بها، ومؤد للغرض المطلوب شرعاً وعقلاً ، وما زاد فتكثيره الفاظ و مضيعة للوقت. وهناك امر هام و عظيم جداً يتصل مباشرة بكلمة التوحيد و عقیدته، ولا ينبغي اهماله بحال .. ولكن ، وللاسف، اهمله علماء الكلام وال فلاسفة الموحدون فيما اطمعت عليه من كلامهم مع انهم سودوا الصفحات الطوال في «ان قلت قلت» وما شبهه ! .. و ياليتهم اقتصروا في اثبات التوحيد على الدليل الذى استدل به سبحانه على نفي الشرك له . وفي غيره من الصفات على ما بثت بيديه العقل و تتوارثها النقل .. ولكن ارادوا ان يفلسفوا العقيدة على اساس التصورات والتخيلات .

ومهما يكن، فان الامر الهام الذى اشرنا اليه هو المعانى الجليلة الساعية الى تسطيعها، و توحى بها كلمة التوحيد ، واليك بعضها :

لقد اختص الاسلام عن سائر الاديان باسم دين التوحيد : و افرق عنها بالتشدد في انكار الشرك ، والتنزيه عن كل شائبة من شوائبها .. و تميز المسلم عن غيره بكلمة «لا اله الا الله» كما تميز النصراني بحمل الصليب او عمل

اشارة بهىده على صدره مع الفارق العظيم في ان الصليب والتصليب في النصرانية
شعار وكفى ، اما كلمة التوحيد في الاسلام فهى من هج عملى ، وشريعة للحياة ،
كماهى عقيدة بأدق ما فيها من معنى .

ان كلمة لا اله الا الله مبدأ الہى انسانى يهدف الى نجاة الانسان في
حياته الفانية والباقيه ، ويحفظ له كرامته واستقلاله في شخصيته ، ولا يجعل
ل احد عليه سلطاناً للحق وحده الذي يتساوى فيه الجميع ، فالجاه والمال
وأشياء الدنيا كلها ليست باللهة تعبد ، ولا بشيء يذكر الا اذا كانت خالصة
لوجه الله ، وكل من ترجوه وما ترجوه ، وتوكل عليه فهو هباء الله فهو كافيك
ومغنيك : « رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلًا - ٩ المزمل » .
أى توكل على الله وحده لا نه لامعين سواه .. وخير ما قرأت في تحديد الم وكل
انه الذي لا يعتقد بنفسه اطلاقاً ، بل يعمل بنشاط ، فإذا نجح ارجع نجاحه
إلى الله ، لا إلى ثمرة يده ، وسمى نجاحه توفيقا من الله وبحوله وقوته ، لا بذلك انه
هو وقدرته .

ويستحيل عقلاً واقعاً ان يخلص الدين او الضربي ، ويصفو من الاكثار
والاقذار الامم عقيدة التوحيد ، والايمان بأنه لا احد يملك مع الله شيئاً الا ما
ملكه ، ومتى صدق هذا الايمان ، واستقام في قلب أى انسان احب وتسامح ،
وخلص وتواضع ، وضحى وتعاون ، وتنزه عن رذيلة الحقد والحسد والخيانة ،
والكبر ياء الغرور ، وبذل قصارى الجهد لمرضاة الله والحق ، ومن اجل هذا
سميت كلمة لا اله الا الله كلمة التوحيد ، وكلمة الاخلاص ، وكلمة التقوى ،
ولنا ان نسميتها ايضاً كلمة التحرير وفي الحديث الشريف : « خير ما جئت

بها و النبیون من قبلی هی کلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وفی عقیدتی و عقیدة کل واع ان الناس لو آمنوا بكلمة التوحید ،
و اخذنوه من هم بجا فی سلوکهم لما عرفوا الازمات والمشکلات الخاصة وال العامة
ولالحرب الباردة والساخنة و الانصرفت العقول والاموال والاعمال الى الخراب
والدمار والضياع ، بل تعاون کل انسان مع أخيه الانسان ليعيشوا جمیعا فی
هنا و امان .

قال عبد الرحمن عزام فی الرسالة الخالدة : «المؤمن الموحد يجد
حسابه مع الله مباشرة ، فيرفعه اليه وحده ، فهو لا يکون ظالما ، لانه يعارض
بالظلم صفة من صفات الله ، وهي العدل ، وهو لا يکون غليظا قاسيا لانه يعلم
ان سیده رحمن رحيم ، ولا يکون كاذبا ولا منافقا ولا مخادعا لان حسابه مع الله
الخير العلیم ، ولا يکون ذليلا او جبانا ، لانه يعلم ان الامر بيد الله وحده ،
و هكذا اذا استرسلنا فی تعداد التفاصیل نجد انه قد حیل بينها وبين المؤمن
الموحد بحیثاب من التوحید ». .

الخير والشر

هذه المسألة:

مسألة الخير والشر التي نتكلّم عنها هنا هي غير مسألة: هل الإنسان مسيّر أو مُخيّر ، ويأتي الكلام عنها . . لأنّ موضوع الأولى يتناول الظواهر الطبيعية، وغيّرها مما لا يتصل بارادة الإنسان و اختياره من قريب أو بعيد ، اماماً موضوع المسألة الثانية فهو خاص بافعال الإنسان الاختيارية .

ما قبل حول الخير والشر:

للفلاسفة وغيرهم أقوال متضاربة حول الخير والشر ، فمنهم من قال : لا يوجد لهما بالذات . بل هما من الامور النسبية ، فرب شيءٍ يكون خيراً عند انسان و شرًا عند آخر . . كل بحسب شعوره و ظروفه و تقديره ، وعلى ذلك الكثير من اهل هذا العصر .

ويلاحظ بان هذا القول ان صدق في شيءٍ فإنه لا يصدق في كل شيءٍ . . فالصحة - مثلاً - خير عند جميع الناس بل يطلقون عليها بالخصوص كلمة خير بلا قرينة معينة، و ذلك حين يقول احدهم للآخر : كيف انت ؟ و يجيب المخاطب: بخير . فيفهم السامع اول ما يفهم الصحة والسلامة من كلمة خير

ولو كانت الصحة خيراً عند انسان دون آخر لاما فهم السامع هذا المعنى من
كلمة خير الامم القراءة .

وقال ثان: الخير بذاته موجود، وهو كل ما فيه نفع وصلاح ، والشر
بذاته موجود ايضاً ، وهو كل ما فيه ضر وفساد .

ويلاحظ بان هذا اشبه بتفسیر الماء بالماء لان النفع والصلاح يحتاج
الى تفسير وتحديد، وكذلك الضر والنفع .. اذ رب صلاح عندك هو فساد عند
غيرك .

ثم جاء من يقول: علينا ان تخلص من جميع الاقوال والاراء في الخير
والشر ، وغيرهم من القيم، وان نعالج كل شيء ، وبالخصوص العلوم الانسانية
معالجة صحيحة ، وندرس دراسة موضوعية علمية، ثم نسجل خصائصه وصفاته
بصدق وامانة دون ان ننقده ونبدي رأينا فيه ، ونحكم عليه بخير او بشر ،
وحسن او قبح ، لان الاحكام - في الغالب - تكون مغرضة ومحاجة مدعوا في
شخصية .

ويلاحظ بان هذه السلبية وهذا التهرب من مواجهة الحقيقة و
الواقع يتنافي مع الدراسة الموضوعية العلمية ، لان الغرض من هذه
الدراسة هو ان نقف ثمنها ونعلن للناس قيمة الشيء الذي در سناه
دراسة علمية ، وهل هي خير أم شر ، وحق ام باطل ؟ . والا كانت الدراسة
عقيمة وبلا جدوى ... و هل يكفي ان نعلم ونتكلّم بان القنبلة الذرية او
البيدروجينية اذا القت على مدينة فيها الملايين من الرجال والنساء و
الاطفال افنتهم عن اخرهم ، ثم نحتاط ونتورع عن الحكم بان هذا العمل

شروعبيج دائم وجريمة؟ .

معايير الخير والشر

ليس من شك ان الشيء الذى يكون خيرا عند شخص دون آخر، ويشبع رغباته دون سواه – لاضابط له ولا مقاييس ... ومن يقدر ان يضبط ويحدد الميول الشخصية؟ . وبالخصوص الطائفة والجائزه ... ومثل ذلك فى امتناع الضبط والتحديد، الشيء الذى يرضى فئة دون فئة لوحدة فى المشاعر ، ولكن هذا افضل من النوع الاول الذى يرضى الفرد فقط ، و كلما ازداد عدد الفئة والجماعة كان الخير النسبى افضل، وكذلك الشر .. وعلى أية حال فان الخير والشر النسبى خارج عن محل الكلام و موضوع البحث .

ان موضوع البحث هنا هو الخير والشر بذاته ، ولاشك فى وجوده ، والدليل عليه بديهية العقل، فلقد اتفق الناس جمیعا على ان الصحة خير ، والمرض شر ، والشجاعة فضیلة ، والجبن رذيلة ، والذکاء والفصاحة من المحسنات ، والبلادة والفهامة على العکس ، وان الارض الطيبة اغلبى و اثمن من الارض الخبيثة ، الى غير ذلك مما لا يختلف فيه اثنان مهما تغيرت الظروف والاحوال ... ولو لم يكن للخير والشر وجود في ذاته لما وجدت الشرائع والقوانين ، ولا ممكن التحاكم الى شيء ... هذا ، الى ان اهل الجاهلية حتى الهمج الرعاع يحرمون بفطرتهم نكاح الامهات والبنات ، والامم المتحضره الملحدة منها وغير الملحدة تحرم السرقة والقتل ، و توجب رد الامانة ، ووفاء الدين؛ واي شيء ادل من هذا على وجود الخير و

الشر بذاته؟

اما معيار الخير والشر، وتحديده، تحدى داجاماً ما انما يرضي جميع الناس على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، ويرفع ما يبنهم من خلاف، اما هذا التحديد فصعب وعسير، لأن الخير والشر على انواع ، منه طبيعي كالخصب والجدب ، ومنه عاطفي كالحقد واللؤم ، والحب والاخلاص ، ومنها اجتماعي كالتعاون او التناحر ، ومنه نظري فكري كالقوانين الانسانية التي تلائم الانسان من حيث هو انسان، مثل كل انسان برىء حتى ثبت ادانته، وكل مجرم يؤخذ بجرمه وجريمه .

ومن اجل هذا لا ينحصر طريق المعرفة بالخير والشر ، لا ينحصر هذا الطريق بالبداهة كالمثله المتقدمة ، بل هناك طرق اخرى ، منها ما اشار اليه الفيلسوف الالماني «كانت» بقوله : «اذا اردت ان تعرف حسن الصفة من قبحها فانظر بعقلك ما ينجم عنها اذا هي عمت وانتشرت ؟ . فاذا تم خضت عن خلل في الوجود والعلاقات الانسانية كالسرقة والقتل - مثلا فاعلم ان القبيح شيمتها» .

ومن هذه الطرق القلب السليم ..، ولكن تحديده هذا القلب بدقة وصيغة واضحة تزيح عن اللبس والغموض - صعب جداً ؛ وعليه فنانشير الى هذا القلب ، وندل عليه بضرب بعض الامثال من افراده كقلب غاندي الذي تمرد على عادات قومه وبيئته في عبادة البقرة ونجasse المنبودين ، وقلب الحنفاء الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بفطرتهم الصافية في عصر الجاهلية الجهلاء ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان

بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وقس بن ساعدة الياذى ، وذكر اهل التاريخ
ان صفوان بن امية ومقيس السهمى حرم الخمر على نفسيهما بداع
الفطرة والغريزة .

ومن هولاء ونظائرهم يمكن ان نستخلص تحديداً لصاحب القلب
السليم بأنه الذى يملك شخصية قوية مستقلة لا يوثق فيه أى شيء الا ما
ابتلى من اعماقه ، واستوحاه من قلبه الصافى كما اودعه الله دون ان تلوئه
التربية والتقاليد ، ومن خلال هذا القلب وحده ينظر الى الاشياء ويقارن
بینها ، وعلى اساسه يرفض ما يرفض ، ويقبل ما يقبل ، واصحاب هذا القلب
موجودون وان كانوا اقل من القليل ، وهم الذين عناهم الله بقوله : «الذين
يستمعون القول فيتبعون احسنها» .

والخاصة ان الخير والشر موجودان ، وهم يوجهان الانسان في سلوكه
حسبما يعتقد به بمفهوم الخير والشر ، وهو مصيبة في معتقده ان اتفق معه
جميع الناس ، او استوحاه من قلبه ان كان له قلب سليم ، والافهو مخطيء
ان تمخض عن خلل في الوجود والعلاقة الإنسانية على حد تعبير « كانت » .

الاسلام و تحديد الخير والشر

وتساؤل: لماذا لا نجد في كتاب الله وسنة نبيه تحديداً واضحاً عن الحق
والخير ، وعن الباطل والشر ، والذى نجده هو الامر والترغيب بذلك ، والنهاي
والبعد عن هذا كقوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل
مثقال ذرة شراً يره»؟

واجاب الاستاذ عبدالكريم الخطيب عن هذا السؤال في كتاب القضاء

والقدر - بما يتلخص ان الاسلام لا يحفل بالنظر الفلسفى والجدل المفظى حول حقائق الاشياء و ماهيتها، وغايتها اولا و آخر اهى تقويم الاخلاق و تربيتها، واثارة مشاعر السمو النفسي في الانسان ، و ربطه بالمجتمع برابط الحب والتعاون... ومن اجل هذا كان حديث الاسلام عن الاخلاق عاما و مجملا لا يلتفت فيه الى ذاتيات الاخلاق، بل الى آثارها في الحياة ومن هذا الباب «ويسألو نك عن الروح قل الروح من امر ربى - ٨٤ الاسراء» و قوله: «يسألونك عن الامهله قل هي مواقيت للناس والحج - ١٨٨ البقرة» حيث صرف سبع حانه السائلين الى ما هو اوفق و انفع ولقتهم لفتة زاجرة الى الآثار والمنافع . ثم قال: هناك امور واضحة و صريحة في باب الخير والشر ، فالسارق يدرك ان عمله شر، والكذاب يعرف انه منحرف عن الحق و مع هذه الصرامة والوضوح فانه لا يستطيع ان يضع معادلة جبرية للخير والشر ، ويحللها بما تحلل لا كسموا ياكماير بيد الفلاسفة والحكماء .

شبهة الشو:

تبين مما تقدم ان الشر موجود، وعليه يتوجه هذا السؤال: كيف يمكن
الجمع والتوفيق بين الايمان بوجود الشر . والايام برحمه الله وقدرته
علي كل شيء ؟ ولماذا لم يخلق الله عالما لا شر فيه ؟ .

ولقد طرح هذا السؤال منذآلاف السنين، واجاب عنه «زرادشت»
بوجود اليدين : الله الخير ، وهو «مزد» او «يزدان» والله للشر ، وهو
«اهر بمان» او «اهرمن» .

وقال آخر : ان الله خلق الكون ، ثم اعتزل ، لا يعنيه من امر الخلق

قسوة ولارحمة، وكل ما في الكون من مظاهر هو من عمل الكون بما فيه من قوى وحركة.

وقال عابد زاهد : إن الشر في الدنيا لعقوبة العصاة والمذنبين ... إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تستند إلى دليل .

وارجح ماقرأت في الجواب عن السؤال المتقدم . يتلخص بـ
العالم المادي من حيث هو وبموجب طبعه وذاته، له آفات وسيئات كالاغراق
والاحراق ، والوباء والادواء والزوابع والعواصف ، وما لـ ذلك من
اسباب النقص والشقاء ، ولها ايضا حسنات وخيرات ، كالغذاء والجمال والـ
الرفاهية ، ونحو ذلك من النعم واسباب الحياة ، ويستحيل ان توجد
الطبيعة لمجرد المنافع وابداع الرغبات من دون الزوابع والعواصف وـ
غيرها من الالام ، كان يوجد البحر - مثلا - للصيد والنزهة والسفر فقط
دون ان يفرق فيه احد مهما كانت الاسباب ، وان تنظر العين الجمال دون
القبح ، وتسمع الاذن ما تشتهرى دون ماتكره ، وان يـ مـذـوق الفم الحلو دون
المر ، ويـ كـتـبـ القـلـمـ كـلـمـةـ الـحـقـ دونـ الـبـاطـلـ ، وـ انـ يـقـبـلـ الـجـسـمـ الـحـسـاسـ
الـصـحـةـ دونـ السـقـمـ ، وـ الـرـاحـةـ دونـ التـعـبـ ، وـ الـمـعـدـةـ الشـبـعـ دونـ الـجـوـعـ ،
وـ انـ يـنـطـقـ الـلـسانـ صـدـقاـ وـ صـوـابـاـ دونـ الـكـذـبـ وـ الـخـطـأـ ... الىـ ماـ الـنـهاـيـةـ :
منـ الـاـمـثـلـةـ :

وعلى هذا يكون الشر من فعل الطبيعة المخلوقة مباشرة لامن فعل الله الخالق .

قال صاحب الاسفار : «فاذأولت : لماذا لم يخلق الله طبيعة بلا شر

فكانك قلت : لماذا يجعل الله النار غير النار .. وبهذا تعلم فساد من ظن من من العوام واهل الكلام الذين لا يعرفون كيفية العجز في المادة، فيقولون: ان الله عجز عن كثير من الاشياء ، منها ان يخرج ابليس من ملكه ، وجعلوا ان العجز في عدم وجود الملك لغير الله ، لافي الله ، و منها ان يدخل السموات في خرم الابرة ، وذهلو ان العجز في الابرة و خرمها ، ومنها ان يجمع بين النقيضين : والعجز فيهما لافيه .

وتسأل : ما هو وجه الجمع والتوفيق بين القول : ان الشر من لوازمه الطبيعة الشر وريته وبين ما جاء في بعض الروايات من ان الخير والشر من الله، جلت عظمته ؟ .

الجواب اولا: جاء في اصول الكافي عن الامام الصادق (ع) : ان الله سبحانه قال : يا ابن آدم انا اولى بحسناتك منك ، وانت اولى بسيئاتك مني ثانيا: ان الامر في ذلك سهل جدا ، فلقد جاء في العديد من الآيات ان ظواهر الطبيعة كلها من الله كالرياح والامطار ، و انبات النبات .. حتى الظل نسبة سبحانه الى نفسه : «ألم تر الى ربك كيف مدار الظل و لوشاء لجعله ساكنا - ٤٥ - الفرقان» : بل في بعض الآيات ان الله خلق آدم والانعام بيده : «عما نعك ان تسجد لما خلقت بيدي - ٧٥ ص» : «اولم يروا انما خلقنا لهم معمالت ايدينا انعاما - ٧١ - يس» مع ان هذا وما اليه يستند مباشرة الى الطبيعة .. ولكن بما ان الله هو الذي اوجد الطبيعة بكل ما فيها من قوى وعناصر ، وان هذه العناصر تتفاعل وتأخذ مجريها الطبيعيى - صح نسبة الى اليه تعالى تبعا و بالواسطة .

اجل ، الخير من ظواهر الطبيعة ولكن تصح نسبته مباشرة الى الله؛
وان كان السبب القريب هو الطبيعة ، لأن الغرض من وجود الطبيعة هو
الخير ، والخير محبوب ومراد الله سبحانه : اما الشر فليس بمحبوب ، ولا
هو مراد بالاصل بل تبعا ... وبتعبير ابن سينا «الخير مقتضى بالذات ، والشر
مقتضى بالعرض» . وقال الامام الصادق (ع) : ان ترك الخير الكثير لشر قليل
فيه شر كثير .

وقال الملا صدرا : الشر موجود في الطبيعة وكثير ، ولكن خير
الطبيعة اكثر من شرها ، وفعها اكثرا من ضرها.. ان الذي احترق نوبه
 بالنار قد تضر بسببيها ، ولكن اذا قسنا هذا الضرر البسيط الى منافعه بالنار
 طوال حياته - لم نجده شيئاً مذكورا .. هذافي الشخص الواحد ، فكيف
 النوع ؟ ان الاشخاص الاصحاء من افراد الانسان والحيوان اكثرا بكثير
 من ذوى الافات والعاهات » .

الخلاصة

والخلاصة ان الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء ، ويستحيل في
 حقه ان يوجد شيئاً اعلى اكمل ما يمكن ان يوجد عليه ذلك الشيء ، بل
 يستحيل ان يوجد ما هو احسن منه ، وقد استنتج الفلاسفة من هذه الحقيقة
 قاعدة ، اسموها قاعدة الاشرف ، ويريدون بها ان الله لا يوجد ادنى مع
 امكان وجود الاعلى ... وايضاً يستحيل ان يوجد الشيء الامن اجل الخير
 فقط ... حتى جهنم و عذابها خير بالنسبة الى تحقق الغرض المقصود
 منها .

وقد يستتبع الخير المراد لله قليلاً من الشر ، فيغتفر في جانب الخير الكثيـر ، ولذا يضحيـي التاجر والزارع والصاعـع ، بل وطالبـ العلم بالكثير رغبةـ فيما هوـ أكثر ربحـا ، واعـود نفـعا .. وختـما هـا مـن الخـير أـن يـحبـس اللهـ عن عـبـادـهـ المـطـرـ لـأـنـهـ يـبـلـلـ قـوـبـ زـيـداـ عـمـرـ وـ ، وـيـحـرـ مـهـمـ مـنـ الشـمـسـ وـمـنـافـعـهـاـ لـأـنـهـ تـضـرـبـ طـفـلـ بـحـارـتـهـ؟ـ وـهـلـ عـلـيـنـاـانـ تـحـجـمـ عـنـ اـسـتـعـمـالـ الـكـهـرـ بـأـعـلـانـ الـبـعـضـ قـدـ يـقـضـرـ دـمـنـ وـجـوـدـهـ؟ـ وـلـأـنـ رـكـبـ السـيـارـةـ وـالـطـائـرـةـ ، لـأـنـهـ بـالـأـمـسـ سـقـطـتـ طـائـرـةـ ، وـالـيـوـمـ اـصـطـدـمـتـ سـيـارـةـ ..

فلسفة الاختيار

مواضيع ثلاثة

نتحدث في هذا الفصل عن مواضيع ثلاثة، لأنها متشابهة متشابهة ..
الموضع الاول : القضاء والقدر. الثاني: هل الانسان مسيّر او مخير . الثالث:
ما هو المراد بنسبة الهدى والضلال الى الله تعالى؟ مثل قوله تعالى : «فإن الله
يضل من يشاء ويهدى من يشاء - ٨ فاطر»

معنى القضاء والقدر

ما هو معنى القضاء والقدر؟ . وهل يجب الرضا والایمان به؟ وبالتألیل
هل هذا الایمان يبعث على الكسل والتواكل كما يقول اعداء الله والاسلام؟ .
اما القضاء فلهم معان : منها الامر؛ كقوله تعالى : «وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لَا
تَعْبُدُوا إِلَيَاهُ وَبِالْوَالِدِينِ احْسَانًا - ٢٣ الْأَسْرَاء» ومنها الحكم والفصل
كقوله سبحانه : «فَاقْضِ مَا انْتَ قَاضٍ - ٧٢ طه». ومنها الفراغ والتلماز :
«قَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْفِيَّانٍ - ٤١ يُوسُف». ومنها الارادة التكوينية :
«وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَانِّي مَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - ٤٧ آل عمران» .

ومنها العهد : «وَمَا كنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قُضِيَّنَا إِلَيْهِ مُوسَى الْأَمْر - ٤٤»
القصص ». ومنها الموت والقتل : «فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقُضِيَّ عَلَيْهِ - ١٥ القصص» .

ومنها الخلق : «فَقَاهُنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ - ١٢ فَصَلَتْ» . الَّتِي غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ
الْمَعْانِي الَّتِي أَنْهَا هَا بَعْضُهُمْ إِلَى أَحَدِ عَشَرَ مَعْنَى .

ويسْتَعْمَلُ الْفَدْرُ فِي التَّضْيِيقِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَمَا مَاذَا أَبْتَلَاهُ
فَقَدْرُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي - ١٦ الْفَجْرُ» . وَيُسْتَعْمَلُ فِي التَّعْظِيمِ : «وَمَا قَدْرُوَ اللَّهُ حَقْ قَدْرُهُ - ١٩ الْأَنْعَامُ» . وَفِي مَبْلَغِ الشَّيْءِ وَمَقْدَارِهِ : «فَقَدْ
جَعَلَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا - ٣٣ الطَّلاقُ» .. «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ عَخْلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ - ٣٩
الْقَمَرُ» . وَقَيْلٌ : الْمَرَادُ هُنَانٌ كُلَّ شَيْءٍ ثَابَتَ فِي عِلْمِ اللَّهِ كَمَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ
خَصَائِصُهُ ، وَيُسْتَعْمَلُ الْفَدْرُ أَيْضًا فِي الْفَضَاءِ الْحَتَّمِ؛ وَكَانَ امْرَأُ اللَّهِ قَدْرًا
مَقْدُورًا - ٣٨ الْأَحْزَابُ» .

وَأَوْضَحَ مَعْانِي الْفَضَاءِ الْبَيْتِ وَالْأَمْضَاءِ الَّذِي لَا مَعْقُبٌ وَلَا مَرْدَلٌ؛ وَ
أَوْضَحَ مَعْانِي الْقَدْرِ التَّقْدِيرِ ، قَالَ الْإِمَامُ الْكَاظِمُ نَجْلُ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) :
الْفَدْرُ هُوَ تَقْدِيرُ الشَّيْءِ مِنْ طَوْلِهِ وَعَرْضِهِ ، وَالْفَضَاءُ هُوَ الْأَمْضَاءُ الَّذِي لَا مَرْدَلٌ
لَهُ ، وَقَالَ الرَّضَا حَفِيدُ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (ع) : الْفَدْرُ هِنْدَسَةُ ، وَالْفَضَاءُ بَرَامُ .
وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الْبَابِ مَا رَوَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع)
عَدْلُ مِنْ حَائِطٍ هَائِلٌ إِلَى آخِرِ مُسْتَقِيمٍ ، فَقَيْلُهُ : أَنْفَرَ بِالْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
قَضَاءِ اللَّهِ ؟ . قَالَ : أَفَرَمِنْ قَضَاءَ اللَّهِ إِلَى قَدْرِ اللَّهِ عَزْ وَجْلُ . أَىٰ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ بِسْقَوْطِ
الْحَائِطِ إِلَى مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي الَّذِي قَدْرُهُ اللَّهُ ، وَكَتَبَهُ لِي .
وَكَثِيرٌ أَمَا يُسْتَعْمَلُ الْفَضَاءُ وَالْفَدْرُ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ؛ وَهُوَ الْحَتَّمُ الَّذِي
لَا مَعْقُبٌ لَهُ وَلَا مَرْدَلٌ .

مَوْضِيَّةُ الْفَضَاءِ وَالْفَدْرِ

وَمَوْضِيَّةُ الْفَضَاءِ وَالْفَدْرِ هُوَ مَا يَحْدُثُ فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ ظَواهِرٍ ، وَيُصَدَّرُ

عن الانسان من اعماله ، وليس من شك ان لهذه الحوادث والاعمال موجبات واسبابا .. فما هي هذه الموجبات والاسباب ؟ . هل هي الطبيعة وسننها فقط لا غير ، كما يزعم الماديون ، او هي قوة قاهرة تكمن وراء الطبيعة ، وتتصرف كما تشاء مباشرة وبلا توسط علمه ونظام كما يظن المؤمن الغبي ، او هي تلك القوة القاهره العالمه ، ولكن بتوسيط ربط المسببات بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، كما يقول اهل الدين والعلم .

قال الامام جعفر الصادق (ع) : « ابى الله ان يجري الاشياء الا بأسباب ، ف يجعل لكل شيء سببا ، وجعل لكل سبب شرعا - اي علامة تدل عليه وتميزه عن غيره - وجعل لكل شرح علماء - اي ان تلك العلامة تفيد القطع واليقين - وجعل لكل علم بابا ناطقا عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ». اي ان باب العلم لا يخفى على اهله ، وهو العقل والوجود ، و النبى و القرآن .

وقال الفارابى : ان الله هو علامة وجود الاشياء . يزيد الاسباب - اما الاشياء ذاتها فانما يؤثر بعضها ببعض وفقا لقوانين نعرفها بالتجربة .

وقال الملا صدرا فى شرحه لاصول الكافى : القضاء والقدر اى ما يوجبان ما يوجبان بتوسيط اسباب وعمل متربة منتظمة ، بعضها مؤثرات ، وآخرى متأثرات ، ومتى اجتمعت الاسباب وارتفعت الموارى وجد الشيء المقصى المقدر .

وفي قول الله سبحانه وتعالى عن كل قول : وهو واضح وصريح في انه جلت حكمته ؛ يجري الامور وفقا لقوانين ثابتة تضبط سير الحوادث و

الاعمال ، وتطرد على نسق واحد عبر الفرون والاجيال ، وقد عبر سبحانه عن هذه القوانين بسنة الله التي لا تقبل التبديل والتحويل لأنها هو خالقها والمسيطر عليها ، قال عز من قائل : سنة من قدار سلنا قبلك ولن تجد لسنة الله تحويلا لا ٧٧ الاسراء » . وقال : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا - ٦٢ الاحزاب » . وقال : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيير وما بانفسهم - ١١ الرعد » . إلى آخر الآيات التي دلت بصرامة ووضوح على ان قانون الاسباب والمسبيبات ؛ وربط النتائج بالمقدمات هو قانون كوني الله يطرد في كل شيء ولا يخرج عنه شيء الا اذا خرج عن صنع الله .. ان وجده شيء ليس لله فيه صنع .

الإيمان بالقدر ايمان بالعلم والعمل

وعلى هذا يكون اليمان بالقضاء والقدر هو عين اليمان بالعلم والعمل ، والجed والاجتهد من اجل الحياة ، بل هو عين اليمان بان الله مع العاملين والمجاهدين ، وانه سبحانه ضد الكسالى والمخفين : (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرِيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسْتَرُونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالْشَّهَادَةِ فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ١٠٥ التوبه .. وَتَوْفِيَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ - ١١١ النحل . ان الله سبحانه لا يفعل جزافا ، ولا يترك اعتابا ، بل يعطي وينفع حيث يوجد سبب العطاء او المنع : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبَّحَنَكَ - ١٩١ آل عمران) .

اما الرضا بالقضاء والقدر (١) فهو الرضا بكم اليمين وعمر الجبين ،

١ - الرضا بالقضاء والقدر عند حلول المصيبة لا يجب لذاته و بما هو ، وانما الواجب ان لا يتفوه الانسان بمحرم ، اما اليمان بالقضاء والقدر بالمعنى الذي ذكرناه فهو من لوازم العلم بالله وصفاته .

والثقة بالله وبالنفس، هو النهوض بالعبء عن طيب خاطر، وتحمل المسؤولية من غير تألف وتمر، ونفض اليدين من الغرور مع النجاح، على حد تعبير بعض الأدباء وترك الأهات والحسرات مع الفشل، وبكلمة هو أن يكون الإنسان عاقلاً مترزاً في جميع حالاته، لاتبطره نعمة، ولا تذله مصيبة: كيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - ٢٣١ الجديد ».

ابعد هذا يقال بان الایمان بالقضاء والقدر يجعل المسلم كسو لا متواكلا
يدع اموره الى خالقه يعملها عنه و ينجز هاله ؟ .. اذن لماذا الحث على
الجهاد و آياته، وعلى الصبر والتضحية من اجل العمل المثير ؟ . و اذا كان
الایمان وحده كافيا و افيا فلماذا فرق الله بالعمل في العديد من الآيات، ثم
اجملها بقوله . «وان ليس للإنسان الاماسعي - ٣٩ النجم »؟ .

ان السبب الاول والآخر الذى اوجب اليمان بالقضاء والقدر هو بديهية العقل التى ادركت بمعونة الحس و العيان - كما قدمنا فى فصل اثبات الخالق - انه لا وجود لشيء على الاطلاق الا وله فيه تأثير و تقدير بنحو اواخر . حتى نظرات العين ، ونبضات العرق ، وخطرات القلب : «ولقد خلقنا الانسان و نعلم ما توسوس به نفسه - ١٦ ق ». لقد خلق سبحانه الاسباب وسلطها على المسببات ، وهو عالم بالاتين معا ، وعلمه تماما كارادته لا يختلف عن المعلوم ، ولو شاء لذهب بكل من السبب والمسبب والفاعل و فعله .. ماشاء الله كان ، وان لم يسأل م يكن .

و اذا كان الايمان بقضاء الله وقدره هو عين الايمان بالله و نظامه ، وقدرته و سنته التي هي سفن الطبيعة بالذات - اذن اين مكان الصراع و

العناديين الایمان بالقضاء والقدر؛ وبين الایمان بالعلم والعمل ؟ . و اى من مكان التواكل والكسل بل ما هو الفارق ووجه الخلاف بين المؤمنين والماديين من حيث العلم والایمان بان الاشياء تجري على اسبابها ؟.. ابدا لاختلاف بين من آمن ومن جحد من هذه الحقيقة والجهة ، والفرق انما هو من جهة ثانية .. ذلك بان الماديين قالوا : لاشيء وراء الاسباب الكونية يدبرها ويقوم عليها : بل هي عنصر مستقل برأته يفعل ما يشاء ، و يحكم ما يريد ... وقال المؤمنون العارفون : ان الاسباب والعلل بشتى انواعها تنتهي بكمالها الى المبدأ الاول وسبب الاسباب ، ويفتقر اليه في اصل وجودها واستمرارها وانه تعالى شأنه لو تخلى عنها طرفة عين فما دونها لست تكن شيئا مذكورة .

وقد اثبتت التجارب العلمية ان بعض الاتار المترتبة بظاهرها على المادة يستحيل ان تأتي من ذات المادة وخصائصها ، وانما هي بتوسط قوة خارجة عن المادة – كما نقل عن علماء الطبيعة – . ومما قررته في هذا الباب ما نقله العقاد عن اهل الاختصاص في كتاب الفلسفة القرانية ص ١٤٦ طبعة ١٩٦٩ ، وهو «ان الكشوف تعاقبت في ميادين العلوم الطبيعية ، وكل منها يرجع إلى قانون يزعم أصحابه انه صالح لتفسيير كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية بغير حاجة إلى مدبر من وراء الطبيعة .. ثم تقدمت الكشوف النذرية ، و ابطلت هذه النظرية» ثم ذكر العقاد الكاتب الاسلامي الشهير اسماء علماء الطبيعة الذين آمنوا بهذه الحقيقة واعلنوها على الملا . والخلاصة ان الایمان بالله يلزم الایمان بالقضاء والقدر بالمعنى

الذى ذكرناه ، وهو ان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل شيء سبباً ، وان سلطانه فوق سلطان الاسباب وغيرها .

هل الانسان مسیر او مخیر ؟

ان افعال الانسان كغيرها من الحوادث لا بد لها من سبب موجب ، و الامتنع وجود شيء منها على الاطلاق ، لأن الحكمة الالهية قضت ان يجري كل شيء بسبب و نظام ، وهذا السبب الموجب عبارة عن خط طويل يتتألف من حلقات هي عمل متتابعة يتولد بعضها من بعض تبتدى من واجب الوجود العلة الاولى ، و تنتهي بالعلة المباشرة لوجود الفعل بلا واسطة ، و ليست هذه العلل بكاملها في تصرف الانسان ، وتحت قدرته ، يقبل منها ما يشاء و يرفض ما يريد .. هذا مستحيل ، والا كان الانسان مخيراً في كل شيء حتى في خلقه واصل وجوده ، و اي كائن طبيعي لا يخضع لقوانين الطبيعة .
اللهم الا اذا امكن ان ينفصل الشيء عن نفسه .

ولكن ليس من الضروري ان تكون العلل في الخط السببي كلها حتمية ابداً دائماً وفي كل الاحوال ، بحيث لا يستطيع الانسان ان يختار اي شيء من الاشياء ، او يحدد لنفسه مسلكها من المسالك .. ولو صر هذا لم يكن للانسانية عين ولا اثر ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وما فضل الله الانسان على كثير من خلقه الا بعد ان منحه القدرة التي بها يفعل والعقل الذي به يميز و الاراده التي بها يختار .

واذن ، فالخط السببي قد يكون حتمياً بجميع اجزاءه و عللاته الاولية والثانوية ، وعندئذ يكون الانسان مسيراً ، لا مخيراً بالاتفاق .. و يستحيل ان يكون الخط السببي بكامله اختيارياً .. ايضاً بالاتفاق .. وقد

تكون بعض عمل الفعل و موجباته حتمية لاصلة لها بقدرة الانسان و ارادته،
 والبعض الآخر عين قدرته و ارادته ، وهنام محل البحث والكلام في ان الانسان
 هل هو مخير او مسير في هذه الحال ؟.

ولاشك في اني مخير في كثير من الافعال ، فهانا الان ادخن و اكتب
 بملئ ارادتي و اختياري ، وبالامس عرض على باائع البطيخ ان اشتري منه
 فاشترى ، ودفعت الثمن عن طيب نفس ، وساقندي بعدوان من اللحم
 المشوي مع «الزلطة» . دسممت ان اصطاف بلبنان في العام المقبل ،
 ان كنت مع الاحياء كل ذلك كان مني لامن سوائي ، وانا بالذات اخترت
 لنفسي ، وهكذا غيري .

هذا ما احسه من اعمقى ، ولا استطيع ان انكر احساسى ، و مامن
 احد يستطيع اقناعى بانى في ذلك مسير لامخير الابدليل اقوى من الحس
 والوجдан .. فاين هو ؟ . وهل بعد الحس من دليل ؟ . وكلمات اتفاقم الخلاف
 في حرية الانسان ازدت ايمانا و يقينا بحريته .. ذلك بان الخلاف في حرية
 الانسان هو في ذاته اجماع على وجودها ، واعتراف صريح بها من الذين
 انكروها على المستوى النظري ، لانهم في انكارهم لحرية الانسان اما
 مسيرون ، واما مخرون ، ولاناث ، وعلى الاول فانكارهم ليس بشيء لان
 انكار المسير تماما كانكار المجنون واقراره ، وعلى الثاني يكون انكارهم
 في ذاته اعترافا عمليا بحرية الانسان ، وازن فالاجماع قائم و منعقد من -
 الجميع على ان الانسان مخير لامسير .

وسؤال : اذا كانت حرية الانسان في هذا المكان من البداهة فكيف

وقد فيها الخلاف بين ارباب العقول - ولو على المستوى النظري ..

الجواب :

ان ارباب العقول الذين اشرت اليهم يعترفون بان فى الانسان قدرة وارادة ، ولكنهم يزعمون أن الله يخلق الفعل فى الانسان بمجرد ان يهم به ، ويتجه اليه ، وان الاثر كل الاثر فى وجود الفعل الانساني هو لله وحده ، ولا شيء فيه للانسان ومن الانسان .. كلاما ، انه مجرد ظرف واداة للفعل .. حتى «البانزين». فى السيارة افضل الفحمرة من الارادة والقدرة فى الانسان، لأن «البانزين» تأثيره البالغ فى حركة السيارة وسيرها ، اما القدرة والارادة فى الانسان فليس لهما الدنى تأثير فى نشاطه وعمله .. ويأتى البيان .

وبعد ، فان مقياس الفعل الاختيارى هو ان يكون مرادا ومقدورا فعلا وقرارا كالفاعل له اي كان مصدر الارادة و منشأها ، وعلى هذا الاساس قامت الاديان والاخلاق والاداب ، وشرعت الشرائع والقوانين ، وعامل الناس بعضهم بعضاتهم ونفقة ، وكرموا الابطال والهداة ؛ ولعنوا الخونة والطفاة ، ولو كان الانسان مسير الاخيرا لكان الجميع افرادا بمرتبة سواء لافضل لتقى على شقى ، وللعالم على جاهم ، لأن العلم والتقوى من الله لامن الانسان .

وصدق من قال : ان الانسان حر لمجرد كونه انسانا .. اجل ، فقد تولد ارادة الانسان من الا ضطرار ، كمن يقطع عضوه السقيم لسلامة بقية الاعضاء ، وايضا قد تولد اراداته من البيئة او العادة او الوراثة ، ولكن لا شيء من ذلك يخرج بالانسان عن حريةاته مادام هو الذي يحدد المصلحة

لنفسه ، ويرجح اهون الشررين على اخطرهما ، ويقدم على الفعل باختيارة وارادته .

ومن اجل هذا اهملت الشرائع والاديان البيئة والعادات والوراثة ، ولم تدخل شيئاً منها في حسابها من حيث المؤاخذة ؛ بل اخذت الفاعل بفعله ؛ وان ورثه عن ابيه وامه ، او من يبيئه ؛ او من طبيعته الثانية مكتفية بقدر معين من الحرية .. اجل ؛ لقد اسقط الشارع المؤاخذة عن المربي المضطرب ؛ كالجائع يأكل من الميالة ؛ او يسرق الرغيف ليقيم بها الاودي حيث لا وسيلة الا السرقة والميالة .. ولكن الشارع صحيح معاملة المربي المضطرب ، وعمل بارادته التي انشأها بالعقد ، وصرف - اي الشارع - النظر عن البواعث الخارجية ، والد الواقع الفهري ، كمن باع نوبه او داره من اجل التطبيب ، وفي الوقت نفسه ابطل الشارع معاملة المكره - بالفتح - ومعنى هذا ان مجرد الارادة كافية لان يجعل الانسان مخيراً امسيراً ايا كان نوعها وقدرها ومنشأها ومصدرها ، وما احاط بها من حدود ومقومات .

الارادة والاختيار والرضي:

وبهذه المناسبة نشير الى الفرق بين الارادة والاختيار والرضي .. لاشك ان للانسان حالات تختلف بحسب ظروفه ، فقد يريد شيئاً ويتمكنه مع العجز عنه ، وقد يرید مع القدرة عليه بلا عذر وشوائب ، فيختاره ويرضى به ، وهو مرتاح النفس والضمير ، وقد يقدر على الشيء عولماً مع العمل والمنففات ، فاذا اضطر اليه اختياره - لارضى به - بل ترجيح حالاً هون الشررين .. وعلى هذان تكون الارادة اعم من الاختيار والرضي ، لانهان تكون مع القدرة وعدمهها ، ولا يكون الاختيار الامع القدرة ، اما الرضي فهو اخص

من الارادة والاختيار ، اذ قد يختار الانسان فعلا دون ان يرضي به ، وترتاح اليه نفسه .. وقد يماقيل : اذالم يمكن ماتريد فاردهما يمكنون .
الجبر والتقويض وما بينهما :

قدمنا انه يمكن للحكم بان الانسان مخير لامسیر ان يكون له قدر من الحرية ، وان الحرية الكاملة والمطلقة من كل جهاتها ليست بشرط ، ودعمنا رأينا هذا بمنطق الحسن وبديهية العقل ، وبه ما نحتاج على من خالف وانكر .

وقد اختلف الناس او المسلمين في مسألة الجبر والاختيار ، وافترقوا على ثلاث فرق ، اشار اليها الامام الصادق (ع) مع بيان الفرق المحتفة – باخر عبارة وبلغها ، وذلك حيث قال : «لا جبر ولا تقويض ، بل امر بمن امر بمن ». «لا جبر» اشاره الى قول الجبرية . ولا «تقويض» الى رأى المفوضة ، ويطلق عليهم ايضا القدرةية . و«امر بمن امر بمن» الى ماعليه الامامية . و التفصيل فيما يلى :

الجبرية

قال الشهيد المرتضى في كتاب انقاذه البشر : اول من ابتدع الجبر في الاسلام جهم بن صفوان . وكان في صدر الدولة الاموية ؛ وتبعده في هذا القول ابوالحسن الاشعري امام السنة في العقائد ، وكان في القرن الثالث الهجري ، ويتلخص قول الجبرية بأنه لا سبب حقيقي في الوجود على الاطلاق ، ولا شيء يؤثر في شيء من قريب او بعيد ، سواء كان من نوع المادة ، او من غيرها ؛ فلا علاقة للرجل بالمشى ، وللعين بالرؤيه وللاذن بالسمع؛ وللسان بالكلام ، ولاصلة للعقل بالعلم ، والمعدة بالهضم ، ولا

ابداً لاسبب ولا تأثير لله ، فهو وحده يباشر كل شيء حتى النفس هو الذي يخرجه من الانف .. وحتى الشمرة هو الذي يقطفها من الشجرة ، ويرمى بها على الارض مباشرة وبلا واسطة ، اما جاذبية الارض وغيرها فكلام فارغ .

واما قدرة الانسان وارادته وعقله فنسبتها الى افعاله واقواله تماماً كنسبة الحجر الى الانسان ، لأن الله هو الذي يخلق الفعل والقول في الانسان ، وما في الانسان الاداة او ظرف ككأس الشراب وأناء الطعام . هذاهو المراد بالجبر الذي نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : «لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرتين »

وزعم الجبرية ان قولهم ضروري لكمال التوحيد الخالص من كل شائبة ، لانه لو كان لغير الله ادنه تأثير لكان شريراً كا له في خلقه ، ولم يكن الله هو الواحد الاصد ، والفرد الصمد .

وقد غاب عن عقولهم ان مبدأ العلية مبدأ الالهي وطبيعي في آن واحد وأن الله سبحانه هو الذي خلق الكون بارضه وسمائه ، وجعل كل شيء فيه يجري بسبب ونظام لا يختلف عنه ، ولا يتجاوزه الا ان يشاء الله ، وعلى هذا تكون الاسباب ومسبباتها ، والنتائج و مقدماتها ، ومنها افعال الانسان المخاضعة لقدرته وارادته ، كل ذلك وما اليه في ملك الله وسلطانه .. وبأسلوب آخر : خلق الله الكون على نظام يربط المسببات بالاسباب ، وهو سبحانه بالذات اودع في كل سبب قوة التأثير والتيسير ، وجعل فيما جمل قدرة

الانسان وارادته من المقدمات والاسباب لاجازأى فعل من افعاله الاختيارية .
لقد ذهل الجبرية عن هذه الحقيقة . وايضا ذهلو انهم ارادوا ان ينفوا
الشريك لله ؟ فنسبوه الى الظلم .. حتى الملاحدة يتساءل بفطرته ويقول :
اذا كان الله هو الذى قدر على كل شيء وهو الذى فعل وترك وحده لا شريك
له ، فلماذا يكلفني ويحاسبني ويعاقبني ؟ وكيف جاز ذلك في عدله ؟ .
وعن أي شيء اتوب واطلب العفو ؟ هل اتوب من فعل الله ، لامن فعلى ،
واطلب العفو عما كان من مشيئته ، لامن مشيئتي ؟ .
لقد تجاوز الجبرية كل حد ، ولا شيء يساوى قولهم هذافي اى دين .
قال النصارى : ان الله اقدر عباده على صلبه ، فصلبوا ، وتقبلوا الصليب لا
لشيء الا يكفر عن خطيئة المذنبين ... وقال الجبرية : كلاما ان الله صلب
الابرياء لاشيء الا يكفر هو عن فعله وعمله .. تعالى الله عن ذا وذاك
علوأ كبيرا .

المفوضة:

وقف المفوضة ، ويقال لهم القدرية ايضا ، وقوافي الخط المقابل
للجبرية ، وقالوا : ان الله خلق العباد ؛ ومن حهم القدرة على الفعل والترك ،
وامرهم بالطاعة ، ونهىهم عن المعصية ، ثم فوض اليهم ان يفعلوا بهذه القدرة
ما يشاؤن ، اي انه تعالى بعد ان خلق القدرة ؛ واعطاهم انتقالت منه اليهم ؛
وصارت ملائكة لقالهم ؛ وانقطعت الاسباب والصلات بينها وبين خالقها في
كل ما يفعلون ويتركون بسبب هذه القدرة تماما كالمبين ينتقل من البائع
إلى المشتري بعد ان يتم عقد البيع ويلزم ؛ والفرق ان الله يسأل عباده يوم
القيمة عن هذه القدرة ؛ ويحاسبهم من اجلها ، فيعاقب من اساء التصرف

بها ، ويجزى من احسن بالحسنى ، اما البائع فلا شأن له مع المشتري ، اساء التصرف في المبيع ، ام احسن ... هذاهو المراد من التفويض الذى نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : «لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امررين» . وقل العارفون بمعنى التفويض حتى ان بعضهم فسره بالتفويض في تشرع الاحكام .. وعلى هذا يكون كل انسان مشرعا ومصدرا للدين الله وحلاله وحرامه .. واسكل منه تفسير الامر بين الامررين حيث حصل فيه خبط وخلط كثيير ، ويأتى البيان ، وتقدير تفسير الجبر في الفقرة السابقة .

والذى حمل المفوضية على هذا القول انهم ارادوا ان ينزعوا الله عن الظلم والجور الذى نسبه الجبرية اليه تعالى - فعز لوه عن ملكته ، وجعلوا له شريكافى خلقه .. حاولوا الفرار من القبيح ، فوقعوا في ما هو أسوأ وأقبح . قال الملا صدرا : كل من الجبرية والمفوضة اعور دجال .

ولوصح هذا التفويض لجاز للانسان اذا فعل شيئاً يقول : فعلت هذا بمحولى وقوتى لا بحول الله وقوته .. نستعين بـ الله ونستغفره .. و اذا كان اللازم على قول الجبرية ان يسد الله تعالى باب التوبه والعفو والرحمة - فان المفوضة يلزمهم القول بان يسد سبحانه باب التوكيل عليه ؛ والثقة به ، والابتهاج اليه ، وطلب التوفيق منه والهداية .. سبحانه وتعالى عما يشركون ..

ان الذى يؤمن بالله وحده لا بدنان يؤمن ايضاً بـ الله قدرته كـ اى حادث وكائن هـ من الله ، وفي يـ الله ، وـ انه تعالى هو الذى اراد لها ان تفعل وـ تؤثـر كما اراد ذلك لـ غيرها من الاسباب ، وـ انه مـ سخرـة لـ امرـه حدـوثـاً وـ استـمرـارـا ،

يُنتزع عنها سبحانهم من عباده ساعة يشاء .. حتى وهم يباشرون أفعالهم وأعمالهم ، و لا يستطيعون لها ردا .. و شاهدنا ذلك مرات: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كان النهتدى لولانا هداي الله - ٤٣ الأعراف» .

امر بين امرین:

المراد بامر بين امرین منزلة بين الجبر والتقويض ، فقد سئل الإمام جعفر الصادق (ع) : هل بين الجبر والقدر اى التقويض - منزلة ثالثة ؟ .
قال : نعم ، اوسع ما بين السماء والارض . وفي رواية ثانية: «لا جبر ولا تقويض ، بل امر بين امرین» . وفي ثالثة : «لا جبر ولا قدر ، ولكن منزلة بينهما فيها الحق الذي بينهما ولا يعلمه الا العالم او من علمها اياه العالم»
وقال الملا صدرا : «ان تحقيق امر بين امرین هما يعجز عن ادراكه عقول كثير من العلماء والحكمة افضل عن العوام» .

و كنت قد قرأت لهذا الامر او هذه المنزلة العديد من التفاسير ، و اخترت بعضها ، ثم استبان لي الخطأ فيما اخترت ، ولذا عدلت عنه الى الرأى التالي وعسى ان اكون فيه على يقنة من ربي ، لامن فهمي الذي يخطيء ، وقد يصيب .

بعد ان اتضح ظلم الجبر وجوره ، لأن الله اكرم وارحم من ان يكلف عباده مالا يطيقون ، ويعذبهم على ما فعل بهم هو وصنع .

و ايضا اتضح فساد التقويض وبطليانه: لأن الله اعز واجل من ان يخرج شيئا عن حكمه وسلطانه . كيف وهل يضاد الله في ملكه ، او بلغ به التناقض الى ان ينهى ويفوض ، ويقدر ويجب في آن واحد ؟ . بعد ان اتضح فساد

الامر بن معاوچ البحث عن امر ثالث ، ولكن این يوجد هذا الامر ؟ وهل من ثالث للجبر والتقویض ؟ اجل ؛ هناك ثالث ، وهذا بيانه :

من البداهة والخبرة بمکان ان الله قد اوجب على العبد ما اوجب ، وحرم عليه ما حرم ، ومن اجل هذا ارسل الانبیاء وانزل الكتب ، وشرع الشرائع .. وايضا من البداهة والخبرة ان العبد قادر على ان يفعل ما امر الله به ، ويترك ما نهى الله عنه ، وليس وراء الحس والبداهة من دليل ، و اذن للعبد قدرة على الفعل و الترك ، وبها يكون حرا و مکلفا و مسؤولا .

وايضا لاعاقل منصفا يشك في ان الله على صلة دائمة بجميع خلقه من اصغر ذرة الى اعظم المجرات ، وان ما من شيء في الارض ولا في السماء الا وهو مسخر لامره تعالى ، وفي قبضته مباشرة ، او بسبب من اسبابه كخصائص الكائنات ولو ازمهما التي لا تنفك عن ذاتها وطبيعتها .. وقدرة العبد من جملة ما هو مسخر بامرها تعالى و في قبضة يده ، ينتزعها منه متى شاء حتى حين يهم بالفعل او هو يباشره ، ومعنى هذا ان القدرة الثابتة للعبد بالفعل ، والتي عليها مدار حرفيته وتكليفه ومسؤوليته هي بالذات مملوكة لله يتصرف فيها كيف شاء ، وان العبد مسير في اصل ثبوته الله ، وفي بقائها واستمرارها لا يستطيع بحال ان يرفضها : ولا ان يحتفظ بها .. وبهذا يكون العبد مسير افي قدرته حدوثا وبقاء ، وهو في نفس الوقت مخير فعلا وقرارا ما وجب عليه ، او حرم . وعليه يكون تکلیف الله لعباده حقا وعدلا ، لانه اقدرهم و مکنهم من الفعل والترك ، و جعل لهم الخيار

في ان يفعلوا ، او يترکوا دفع الشبهة القهر والالجاء الذى التزم به الجبرية ..
وايضاً يکون سبحانه - في تسخيره القدرة لامره و ابقاءها في قبضته -
متقدراً في خلقه ولا شريك له في ملکه الذى يلزم وجوده على القول
بالتفويض .

وهذا المعنى هو المراد من امررين امرین في قول الامام الصادق (ع)
وقد استوحيناه من كلام قاله ذو العقل الكبير الملا صدر ، وهو يفسر
الامر بين الامرین في شرحه لاصول الكافی ، و هذه عبارته بالحرف
الواحد :

«لم يرد الامام (ع) بقوله : لاجبر ولاقدر . اى تفويض ان العبد خال
من الجبر والاختيار ، ولا بقوله : ولكن منزلة بينهما - اى امرین امرین -
ان فيه شيئاً ضعيفاً من الجبر ، و شيئاً ضعيفاً من الاختيار ، ولا يضاف في
تركيبها بينهما كالمركب من الحلاوة والحموضة .. بل المراد ان العبد
مجبور في قدرته قادر في جبره ، مضطرب في عين اختياره ، مختار في عين
اضطراره ، والفعل ثابت له من حيث هو ثابت لله ، وصادره منه من حيث
هو صادر من الله » .

ونفس هذه العبارة تيسير اعلى الافهام بعد ان فسرنا قول الامام بوحي
منها . يزيد ذو العقل الكبير أن العبد مجبور في الزامه بالقدرة لعجزه
عن رفضها وعن الاحتفاظ بها ايضاً ، وهو برغم هذا العجز قادر على ان يفعل و
يترك لأن الله قد مكنته من احد هما على سبيل التخيير . ولا محرب له من
ذلك ، اى ان العبد مخير ضمن الاطار الذى يضم الفعل والترك مع اعتماده

كفر دى الواجب التخييرى فإذا اختار العبد الفعل اسندالىه حيث آثره على الترك وأيضاً يسندالى الله، لانه هو الذى اقدره عليه، ومكنته منه، وهكذا يقال لوترك، وأذن فلا يقال : ان العبد مخير مطلقاً ومن كل الجهات، ولا هو مسير كذلك بل مخير من جهة ومسير من جهة وهذا كاف وافق في حريةه التي تبرر تكليفيه ومسئوليته .

الله و معصية العبد :

وتسأل: اذا كانت قدرة العباد مسخرة لله في قبضته، و انه بهذا الاعتبار تنسب افعالهم الى الله واليهم معاً اذا كان الامر على هذا فمعنى انه العبد اذا اعصى و فعل الشر جاز ان تنسب شره و معصيته الى الله كما تنسبها الى العبد. وعليه يكون الشر يرتكب العبد في المعصية و فعل الشر ومن البداهة بمكان انه لا يجوز في منطق الحق والعدل ان يعاقب اقوى الشر يرتكب الشر يرتكب الضعيف على شيء هما سواء فيه ؟

الجواب :

ليس من شك ان العبد اذا أطاع و فعل الخير ينسب اليه حيث كان في مقدوره ان يقر به، وينصرف الى الشر، و مع هذا لم يفعل، وأيضاً تنسب هذه الطاعة وهذا الخير الى الله بقول مطلق 'لأنه تعالى هو الذي اقدر العبد عليه، و أمره به، فاستجاب واستحق الثواب، اما اذا عصى العبد و فعل الشر فانه يسندالىه حيث فعله وهو قادر على تركه، ولذا يستحق العقاب، وأيضاً يسند هذا الشر الى الله، ولكن لا بقول مطلق، بل بقيده اعتبار ان القدرة التي عصى العبد ربها

بواسطتها هي من الله سبحانه،

وانه قادر على سلبها منه بمجرد أن يهم بالمعصية، ولكن الله تعالى لم يفعل لحكمة نشير إليها في سياق هذا الكلام .

ولله جلت عدالته ، ان يحاسب العاصي ، ويعاقبه على المعصية حيث نهاه عنها ، وحذره منها بعد ان اقدرها منها ، ولكنها عائد وتمرد ، قال الامام الصادق (ع) : قال رسول الله: (ص) من زعم ان الله يأمر بالسوء و الفحشاء فقد كذب على الله ومن زعم ان الخير والشر بغير مشيئة الله فقد اخرج الله من سلطانه ، ومن زعم ان المعااصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ، ومن كذب على الله ادخله النار . »

يريد الامام (ع) بمشيئة الله للشر ان الله تعالى منح عباده القدرة على الشر تماماً كقوله تعالى: «وما تشوؤن الان يشاء الله - ٣٠ - الانسان» أى لا تقدرون على شيء القدرة من الله .. ان الله سبحانه نهى عن المعااصي ، وتوعد العبد عليها ، ولكن العبد ارادها نفسه ، وفعلها بسوء اختياره مستعيناً بقدرة هي منحة من الله لعبدة؛ فتركه سبحانه و شأنه ، ولم ير دعه عن المعااصي بالقهر والالجاء حرصاً على انسانيته ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وايضاً يفصح عن نفسه و يظهر للملائكة على حقيقته ، ويتميز عن الطيبين باختياره وارادته وبالتالي تكون الحجج لله عليه اعظم وألزم حيث عصاه مختاراً بقدرة هي نعمة عليه من الله .

وبعد ، فان كثيراً من العلماء تعرضوا في مؤلفاتهم لمشكلة الجبر والاختيار ، وايضاً وضعوا فيها اكتباً مستقلة قرأت اكثراًها ، او الكثير من طوالها

وقصارها، وبعضاً شوه الحقيقة، وشوش العقول والافكار، وزاد المشكّلة غموضاً وتعقيداً.. وفي استطاعتي -لو شئت- ان اسود عشرات الصفحات، فألخص من الكتب واوضح، واقلم واطعم .. و لكنني لم افعل حرضاً على عقل قارئي ورفقاً به، ولا اقول: ان كلمتني هذه حاوية واعية، او فيها بلغة الكفاف، لأن الكاتب يجب ان يتوارى خلف ما يكتب ، ويدع الحكم له او عليه للذى يتقن فن القراءة، ويجيد التفكير فيما يقرأ ، وانا اعرف هذا من نكهة حديثه ، وفي عقیدتى أن من قرأ ولم يفكر فقد نظر للعلم الصحيح، ولنعمته لله وفضله . قال كوفو شيوس: «العلم بلا فكر اخطر من التفكير بلا علم» ومهما يكن فنصيحتى ان يقيس الانسان القراءة على الطعام ، فلا يقبل عليها الا اذا كان مستعداً ، والا فقد ظلم نفسه ، والكاتب الذى يقرأ له .

* * *

اشكال و حل

وهنا اشكال معروفة، وايضاً جوابات معروفة، ويتلخص الاشكال بان الله سبحانه وتعالى يعلم مقدماً بان الانسان المجرم سير تكب الشر ويفعله ، وليس من شك ان علمه تعالى لا يختلف عن المعلوم تماماً كارادته التي لا تختلف عن المراد وعليه تكون ارادة الانسان مغلوبة لعلم الله ، وبالتالي يكون الانسان مسيراً لامحيرأً، وبتعبير الفلسفة او المتكلمين ان كل ما عالم الله صدوره عن العبد فهو واجب الصدور، والازم انقلاب علمه سبحانه جهلاً . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

الجواب: فرق كبير وبعيد جداً بين سابق علمه تعالى بسوء اختيار العبد لفعل الشر، وبين سابق علمه سبحانه بفعل الشر من حيث هو، وبصرف النظر

عن اراده فاعله واختياره له . . فان العلم الاول مجرد كشف عن وجود المعلوم في الحال او الاستقبال تماماً كعلم الاستاذ بان لهذا التلميذ النجيب مستقبلاً زاهراً او كعلمك بان فلانا الذي تعرفه جيداً سيرفض لامحالة لونا معيناً من الطعام متى قدم له .

واما العلم الثاني فليس كشفاً عن وجود الفعل بل علة لوجوده .. وبكلام آخر: فرق بين قولك: علمت بان زيداً سيسافر غداً، وبين قولك : لما علمت بانه سيسافر سافر... وعلمه تعالى بصدور الفعل من العبد من النوع الاول .

الشقي والسعيد :

وبهذا نجد تفسير الحديث المشهور : «الشقي من شقي في بطن امه، والسعيد من سعد في بطن امه» اى ان الله يعلم قبل ان يخرج هذا من بطن امه انه سوف ي العمل عمل السعادة، وايضاً يعلم قبل ان يخرج ذاكم من بطن امه انه سوف ي العمل عمل الاشقياء . وقد سئل الامام الكاظم (ع) عن معنى هذا الحديث، فقال: «الشقي من علم الله، وهو في بطن امه، انه سيعمل عمل الاشقياء والسعيد من علم الله، وهو في بطن امه، انه سيعمل اعمال السعادة» قال السائل : فما معنى قول الرسول الاعظم (ص) : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؟ . فقال الامام (ع): «ان الله جل وعز خلق الجن والانس ليعبدوه، ولم يخلقهم ليعصوه فيسر كل ما خلق له، فالويل لمن استحب العمى على الهدى» .

اى ان كل انسان يجد الطريق امامه موسعاً وميسراً لما يختاره لنفسه من طاعة او معصية ، فان اختيار الطاعة يسرها الله له ، وان اراد المعصية ايضاً يسر هاله، بل وارادها ايضاً يعقوبه على ما اراد.. وهذا ما قصدته الامام بقوله : «الويل لمن استحب العمى على الهدى» اى ان الذي آثر العمى أثره الله بما

الزم به نفسه ، وعامله بما اراده لها .

وعلى هذا يكون لله سبحانه اراداته: اراده مستقله كرادته لخلق الكائنات وارادة تابعة لارادة العبد بما يختاره لنفسه ، ولكن بعد أن يلقى عليه الحجة ولا يبقى له من سبيل للاعتذار .

والخلاصة ان الله جلت عظمته وحكمته خلق الانسان على وضع يستطيع به ان يختار بين الهدى والضلal ، وهذا ثابت بالحس والبدية . ومن يختار الهدى يجد اسبابها ، ومن يختار الضلال فكذلك : «فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنة فسنيسره للعسرى - ١٠ الليل» .

لبيلو كم ايكم احسن عملا:

وتساؤل : ان قوله تعالى : «لبيلو كم ايكم احسن عملا - ٧ هود» يتنافي بظاهره مع القول بان الله سبحانه يعلم الشقى والسعيد قبل ان يخرجا الى هذه الحياة؟ حيث دلت الاية بظاهرها على ان الله يبتلى عباده بالتكليل ليميز الخبيث من الطيب ، ومعنى هذا انه تعالى لا يميز الا بعد البتلاء ، ومadam العبد في بطن امه فلا بتلاء .

الجواب : ان الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه مالم يكن يعلم .. كلاما؛ فانه اعلم بهعن نفسه ، وانما يمتحنه لامور : «منها» : ان يترجم ما هو كامن في نفسه الى عمل ملموس ، حيث اقتضت حكمته تعالى ان لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم ، ولا على ما هو كامن في نفوسهم ، بل يحاسبهم على الاعمال ، قال الامام علی (ع) : «يقول الله :

واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنية » ومعنى ذلك انه يختبرهم
بالمواال والاولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضى بقسمته؛ وان كان سبحانه
اعلم بهم من انفسهم ، ولكن لظهور الافعال التى بها يستحق الثواب و
العقاب .

و « منها »: ان يتميز الخبيث من الطيب ، وظهور حقيقته امام الناس ،
فيعاملونه بما يستحق .

و « منها » ان بعض الناس ، او اكثراهم يجهلون حقيقة انفسهم ، و
يقولون : « لوسمحت لنا الظروف لكانا كذا وكيت » فيمنحهم الله الاستطاعة
ليلقى الحجة عليهم ، ويعرفون بحقيقتهم وواقعهم .
الهدى والضلال :

وتسائل : لقد ورد في كتاب الله آيات تدل بظاهرها ان الله سبحانه
يخلق في العبد الهدى والضلال ، تماما كما يخلق العبد بجسمه وروحه ، و
منها قوله تعالى : « فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء – ٨ فاطر » .

وقوله : « من يسأل الله يضلله ومن يسأل يجعله على صراط مستقيم – ٣٩
الانعام » . وعليه يكون العبد مسيرا ، لامحيرا .

الجواب . ان الله سبحانه وهب الانسان القدرة والعقل والارادة ، و
بالقدرة يفعل ، وبالعقل يميز ، وبالارادة يختار، ثم ارشه الى طريق الخير
و طريق الشر ، وحذره من هذا، وامر بذلك : وهو سبحانه – بمحاجة عدله
يعامل كل واحد من عباده بما يختاره لنفسه، فمن اساء الاختيار ، وسلك
سبيل الضلال اصبح ضالا ، لامحالة ، وصحت نسبة الضلال اليه ، لانه هو
الذى اقدم عليه بسوء اختياره وتصح نسبة الضلال الى الله . لانه والذى

جعل هذا الطريق مؤديا الى الفنادل ، تماما كما جعل السم سببا للموت ، و
التردى من شاهق علة للتحطيم والهلاك .

والانسان في البداية حرف في ان يقدم او يحجم عن طريق الضلال ، فان
اقدم سلبت منه الحرية ، ولزمه الضلال حتما وقهره .. ونظير ذلك ان يقول
قوى لضعيف: ايها ان تدخل هذا الكهف ، والاسدات بابه عليك حتى تموت
فيه جوعا وكمدا جزاء لعصيائرك وتمردك ؟ فاذا دخل بعدها التحذير ، و
سد القوى باب الكهف على الضعيف ، وهلك فيه صاحب ايقال : اهلك الداخل
الضعيف نفسه ، وان يقال ايضاً : القوى اهلكه ، ولكن اللوم كل اللوم ،
او اشد اللوم على من دخل الكهف ، وهو يعلم انه هالك فيه لامحالة .

وفي القرآن الكريم آيات عديدة وصرىحة في هذا المعنى ، منها :
«فلم يأغوا زاغ الله قلوبهم - ٥ الصف» . اي انه تعالى اراد لهم الزيف بعد ان
ارادوه لانفسهم . ومنها: «ثم انصر فوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون ١٢٧
البقرة» «كذلك يضل الله من هو مسرف من رتاب - ٣٤ غافر» .. والذين اهتدوا
زادهم الله هدى - ١٧ محمد» .. ويضل الله الظالمين - ٢٧ ابراهيم» .. «كذلك
يضل الله الكافرين - ٧٤ غافر» . واوضح الآيات دلالة في هذا الباب قوله تعالى
«كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم
بالبينات والله لا يهدى القوم الظالمين - ٨٦ آل عمران» .

ويتبين من هذه الآيات ونظائرها ان افعاله تعالى تنقسم الى نوعين :
الاول يهدف الى ما هو مطلوب بالذات ، والثاني يهدف الى ما هو مطلوب
بالعرض ، والاضلال من النوع الثاني اي انه تعالى لم يردا على اضلال من العبد

على كل حال حتى ولو اراد الهدى لنفسه ، بل اراده من العبد اذا اراده العبد لنفسه ، ونظير ان تريدا الخير والهدایة لمن تحب ، وترغب فيها بكل وسيلة ، ولما أصر وعاند وابى الا ضلال كرهته ، والزمرة بكل ما يترتب على الضلال من آثار عملاً بمبدأ «الزمواهم بما الزموا به انفسهم» .

سؤال ثان: ان الله سبحانه وتعالى يعلم انه لو خلق هذا الشقى لاثر الشقاء على السعادة ، وليس من شك ان عدم الشقى الفاسد خير من وجوده . واصلح له . لان مصيره الى الخلود في جهنم وعذابها ، وايضاً عدمه اصلاح للمجتمع لانه ينتحل من شره وضره .

الجواب اولاً : ان من شأن الخالق هو ان يفيض الوجود على الممكنتات على ان لا يتناهى ذلك مع عدله ورحمته ، والله سبحانه قد احسن الى الشقى الفاسد ، وانعم عليه بالوجود ، وزوده بالقدرة والعقل والارادة ؛ وهداه للنجدين ، ولكنها اختار الشر : فكان هو المسئول دون غيره .. وعليه يكون عدم الشقى خيراً من وجوده بالنسبة اليه ، لا بالنسبة الى الخالق .

ثانياً : لو اخذنا بهذا المبدأ لما صح الاتكليف من تعلم بأنه يسمع ويطيع من ان التكليف يصح توجيهه للجميع .

ثالثاً : ان الحجة لا تقوم لله على عباده الا اذا اوجدهم وقدرهم وکلفهم .

رابعاً : ان وجود الشقى فيه شر ، وفيه خير ايضاً ، حيث به يتميز التقى ويظهر فضله على غيره .

فَلَيَسْعَهُ الْبُوْتَهُ

النبوة

يتفرع هذا البحث عن الايمان بوجود الله تعالى ، ومن انكر وكفر فلا يحق له الحديث عن النبوة والانبياء ، لأن الفرع ينتهي بانتفاء الاصل ، و ايضاً الحديث عن نبوة محمد (ص) و غيره من الانبياء يتفرع عن انبات النبوة كفكرة بصرف النظر عن نبوة الاشخاص ، ولذا نبدأ الكلام قبل كل شيء عن تحديد النبوة من حيث هي ، ثم عن انباتها ، فان استطعنا ذلك ، تحدثنا عن نبوة الرسول الاعظم (ص) في الفصل التالي :

البعثة

النبوة بعثة من الله الى عباده ، وسفارة بينه وبينهم ، وغايتها ارشادهم الى ما فيه لله رضا ، ولهم خير وصلاح ، فالرسول مبعوث من الله ، ورسالته النصيحة : « ابلغكم (سالات ربى واصح لكم - ٦٢ الاعراف) . و لكن هل يحتم العقل ان يكون لله رسول الى خلقه و سفراء بينه وبينهم ؟ .

الجواب : اذا كان لكل مصلحة رسالة الى اهله وقومه فبالا ولئن يكون للخالق رسالة الى خلقه ، و اي حاجة للناس بالله لا يهتم بهم ، ولا يعنيه من امرهم قليلا ولا كثيرا ؟ .

و يمكن ان نقدر حكم العقل بهذا الاسلوب ، وهو بعد ان افترضنا وجود الله سبحانه وتعالى ، وانه متصف باعلى صفات الكمال والجلال . بعد هذا الافتراض يلزم من احتمال نؤمن بان ما من شئ ع حسن في ذاته الا والله سبحانه وتعالى الارشاد حسن في ذاته وان الناس كل فاعله وليس من شك ان ارشاد من يحتاج الى الارشاد حسن في ذاته وان الناس كل الناس في حاجة الى من يرشدهم الى النجاح والصلاح ، فينتج من ذلك ان الله سبحانه وتعالى لا بد أن يرشد عباده الى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وحيث لا سبيل الى ذلك الا بارسال الانبياء فيتعين ان الله انبىء اورسلا .

وبالاختصار ان في افعالنا خيرا او شرا ، ونحن نجهل الكثير منها ، و الله عالم بما نفعل ونجهل ، فيجب ، وهذا هي الحل ، ان يرشدنا ما يعلم به من صلاحنا باجدى الوسائل ، وارسال الرسل ... واليك هذا المثال للتوضيح : اعمى كادأن يتربى في حفرة امامه ، وانت قريب منه وعلى مرأى ، فتجاهله حتى هوى ومات ... ولو تفوهت بهذه الكلمة فقط : «انتبه امامك» لسلم ومع هذا تجاهلت من غير عذر ، لوحصل معك مثل هذا لكونك مذعوماً وآئماً عند الله والناس وعند ضميرك ايضاً .. والله سبحانه اجل واعظم ، واعدل وارحم ان يخلق عباده ثم يتركهم سدى يسيرون في طريق الهلاك من غير حارس ودليل .. ان الله ارحم بعباده من الام العطوف بوليدها . كما في الحديث .

هل يغنى العقل عن الانبياء : وقال قوم ، وهم البراهمة ، لاحاجة اطلاقا
الى الانبياء ، لأنهم ان جاءوا بما يوافق العقل فيه غنى عنهم ، وان خالفوه وجب ردتهم والانكار عليهم .

وأجيبوا بان العقل لا يحيط بكل شيء علما ، بل يدرك شيئاً ، ويفيد عنه اشياء ، لا يدركها الاعلام الغيوب ، فيبينها سبحانه للناس بلسان انبئائه

ورسله .

وصدق شاهد لهذا الجواب ان القرآن الكريم كشف عن كثير من الحقائق التي لم يهتد إليها العلماء العلماء بعد الفسفة او أكثر على سبيل المثال دون الحصر نذكر قوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حيٌ - ٣٠ الآيات» حيث أثبت العلم الحديث أن الماء مبدأ الحياة ، و قوله «وارسلنا الرياح لوافح - ٢٢ الحجر» ايضاً أثبت العلم ان الرياح تنقل لقاح الازهار المذكور الى الازهار الاناث لخرج الثمر والفاكهه؛ و قوله : «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا من أمثالكم - ٣١ الآيات» وبهذا قال اهل الاختصاص بعلم طبائع الحيوانات والطيور والاحشرات ، الى آخر الآيات التي تتفق نصاً وروحـاً ، او تتفق معها الكشوفات الحديثة .

ونعطف على جواب من رد على البراهمة ، نعطف عليه الحقائق التالية .

١ - ان قول البراهمة واصراهم لصلاح لانسد بباب العلم والنصيحة والامر بالمعروف بشتى انواعه ، وباب الاصلاح والمصلحين ، وجاز لكل انسان اذا ارشده مرشد ، افهم واعلم أن يردع عليه ، ويقول له لي من عقلى غنى عنك وعن تعاليك .

٢ - لقدر ايننا وقرأنا ان بعض الذين يدينون بالنبوات يعبدون الاحجار والاشجار ، وبعضاهم النيران او الكواكب او الحيوانات ، او البرق والرعد ، والاشباح والارواح ويفضلونها على عبادة الواحد الاصدالى تظهر النقوس من الاوهام والخرافات .. وقرأنا ايضاً ان لبعض الامم مجموعة من الالهة كثيرة وهائلة .. فالله للسماء والارض ، وثالث للقضاء بينهما ، ورابع للشعر : وخامس للجمال ، وسادس للحب ، وآخر للبغض ، أول للسلم أو الحرب و لكل شيء رب

ير به حتى القبائل، لكل قبيلة رب.. اما صفات هذه الالهة والارباب فعجيبة غريبة ، فمنهم الطويل الاشقر، ومنهم الاسمر ، وآخر يعشق الجميلات و ينکح البنات الى آخر الاساطير والسيخافات.. وايضا قرأنا ان بعض الاقوام الذين لا يدينون بالنبوة ينكحون امهاتهم وبناتهم، ومنهم من يأكل لحوم البشر الى ما لا يبلغه الاحصاء من المآثم والمنكرات.. وصدق الله العظيم «ان الانسان لظلوم كفار - ٣٤ ابراهيم» .

ومن هنا كان الدين السليم ضرورة لكل انسان بالغاً ما بلغ من العلم والعقل ، فان كثيراً من الذين تعودوا اساليب العلم وطرقه الدقيقة في هذا العصر يؤمّنون بالخرافات.. قال (غوستاف لو بون) في كتاب الاراء والمعتقدات «ان العلماء تبدو عليهم السذاجة كما تبدو على الجهلة الادميين.. . فالعالم قلما يبدو انسني من الجاهل في الامور التي ليست من اختصاصه، وبهذه الملاحظة ندرك السبب في ان افضل العلماء يؤمّنون باشد الاوهام خطلاً» ثم ضرب على ذلك كثيراً من الامثلة منها ان عالماً كبيراً في عصره كان لا يخرج من بيته إلى المختبر الا و معه قطعة من حبل المشنوق تقيه - بزعمه - حسد الحاسدين، و سحر الساحرين» .

وأغرب ما قرأت في تأليه الانسان للانسان في عصرنا هذا ، عصر النور والحضارة، هو ما ذكره عبد الرحمن عزام في كتابه الرسالة الخالدة ، قال ما يتلخص به ذهب سنة ١٩٣١ إلى جبال النوبة في جنوب كرد فان ؛ فوجد قوماً من الزنوج يعبدون واحداً منهم ك الله ، ويسمونه «الكجور» ويرفعون إليه الدعاء ويقدمون له القرابين ، ويقدسونه كل تقديس ، ويعتقدون بأنه القدير على تصريف الامور الكونية، وأنه هو الذي ينزل المطر من السماء ،

فإذا اجدت الأرض، وهلك الزرع سأله المطر، فان تأخر عليهم شكوه الى الحكومة، ولم يتركوها بحال حتى تأمر بحبسه، وادام ينزل الغيث قتلوا واقاموا غير مكانه - وهنالذى كرت الاعرابى الذى صنع صنما من تمر ، ولما جاء اكله - وقال المؤلف : وقد جالست هذا الرب ، وتحدثت معه بواسطة المترجم، وفي اثناء حديثى معه جاءت زوجته، وكشفت عن ساقها ، فارقنى آثار الضرب، . فقال المترجم ان بعض الذين يبعدون زوجها قد ضربها ، وهى تشكوه اليك ظانة انك الحكومة قلت - مازال الكلام للمؤلف : كيف ، وهى زوجة الرب المتصف بالقدرة عندهم ؟

ولادرى كيف نطق عبد الرحمن عزام بهذا التساؤل ، وهو يروى عنهم انهم يقتلون الاله الذين يبعدون ويقدسون اذالم ينزل الغيث؟. ان الذى يبعد غير الله الواحد الاحد لا يكثر عليه شيء حتى ولو كان عالما كبيراً فى عصره كالذى يحمل حبل المشنوق خوفا من حسد الحاسدين، وسحر الساحرين كما حدثنا عنه غوستاف لو بون .

٣ - من تتبع سيرة الانبياء، ودرسه ببرؤية وامان يجزم بأنهم اول من دعا الى دين واحد، وامة واحدة ، والى الصلاح والاصلاح بشتى انواعه ، وان دعوتهم هي التي غيرت وجه التاريخ، ولو لام لم تقدمت الانسانية خطوة واحدة الى الامام ، ولا كان لها تاريخ و حضارة و آية دعوة اسمى واكمل من دعوة الاسلام التي تخطب العقل والفطرة، وترتكز على الاقناع والتحرر من الجهل والخرافات ، وتقليد الاباء والاجداد .

٤ - ان انكار النبوة والانبياء معناه ان البشرية فى فنى عن الدين

والشائع السماوية واحكامها، لأن الانسان بمواهبه – كما يزعم المنكرون –
يستطيع ان يسد حاجاته في كل زمان ومكان مستقلاً عن جميع الاديان .

وقد يبدو هذا صحيحاً للوهلة الأولى عند البسطاء السذج، ولكن الاذكياء
يعلمون ان غاية الدين لا تتحقق بتنظيم العيش في هذه الحياة، بل هي اعم
واشمل، ان غاية الدين ايضاً ان يفهم الانسان معنى الحياة وقيمتها ومصدرها
وأهدافها ومصيرها . وليس من شك ان كل عاقل يتمنى من اعمقه ان يعيش
في حياته هذه حرّاً كريماً، لا ظالموا لامظلوماً ، وايضاً يتمنى بفطنته ان يحيا
حياة ابدية سعيدة لا يشوب صفوها ايّة شائبة . لواتيح لهذك والاسلام يقف
معه، ويؤازره فيما يتغيّه من الحياة الفانية ، ويرشهده الى طريق الحياة الخالدة
الراضية المرضية . ومن جادل وخاصم نحيله الى الدعوة المحمدية التي
تقدس العقل ، وتمتدح العلم ، وتساوي بين الناس على اساس الحق والعدل ،
نحيله الى كتاب الله وسنته نبيه او على ما كتبه العلماء المنصفون في هذا الموضوع
شريطة ان يقرأ ويدرس بتجدد وروية .

هل العلم يغنى عن الدين:

وجاء بعد البراهمة من يقول اجل ، ان العقل وحده وبما هو لا يغنى
عن غيره، ولا يخرج الانسان من العيش مع الحيوانات في الغاب والكهوف ،
ولكن العلوم الطبيعية هي التي تخرجه من الهمجية والوحشية الى الحضارة
والمدنية، ومن الظلمات الى النور .

الجواب: ليس من شأن العلوم الطبيعية ولا في قدرتها ايضاً ان تفسر
القيم الانسانية ورغباتها كالسلم والحرية والمساواة – مثلاً – وانما تصف الحوادث

والتجارب وتسجيلها، كما هي في واقعها، ومن هنا قال كثيرون من علماء الطبيعة انفسهم ان العلم وحده لا يحقق امانى الانسان، وانما ينبغي ان يقترن بقيم انسانية وشرعية عادلة توجه العالم الى ما يضمن اعظم قدر من تحرر الانسان وسعادته .

وقال الدكتور فؤاد زكريا في مقال نشره بمجلة عالم الفكر الكويتيية ج ٤٤ بعنوان العلم والحرية الشخصية ، قال : «في العصر الحديث أصبحت الصورة التي يرسمها العلم للكون تتصف بالآلية ، ولا تترك مجالا لقيم الانسان ورغباته لقد أصبح العالم موحشا يسير في طريقه المرسوم بدقة وانضباطا لا مكانت فيهما لمشاعر الانسان .. ان العصر الحديث اوجد انصافصالا قاطعا بين عالم الطبيعة وعالم الانسان ، وقضى على التداخل بين هذين المجالين » .

ونذكر نحن صفة اخرى اضرا واحضر من هذا الانفصال ، وهي ان تلك المصانع والمعامل قد حولت طعام الجياع ، ولباس العراة ، وبيوت الائسين ومستشفيات المرضى ، وروضات الاطفال ، ومعاهد العلوم ؛ حولتها الى اسلحة جهنمية ترعب البشرية بكمياتها ، والى آلات التجسس على الدول والشعوب والافراد ، لاشيء أللابيقاع والاضرار بهم .

ومن اغرب ما قرأت في هذا الباب ان في الولايات المتحدة يوجد بنوك للمعلومات عن اسرار الملايين ، تخزنها العقول الالكترونية ، وتتابع تلك الاسرار لمن يشاء ساعة يشاء .. وقد بلغ استخدام هذه الاجهزة حدا يفوق التصور حتى لم يبق لاحد من سره كثيور .

واخطر من ذلك آلات التصوير التي تنفذ اشعتها من الجدران، وتعكس

كل مافيها حتى ما يجري في الحمام، ويدور على الفراش، ويكتفي بالخزائن..
وغريبة الغرائب ان هذه الاجهزة تباع علينا بالأسواق، وعلى مرأى من
الحكومة وسمعها حتى ارتفعت اصوات الاحتياج تنبه الى الخطر الذي
تعرضت له الحريات والكرامات .. هذى هي العلوم الطبيعية التي تغنى عن
دين الله القائل . «اجتنبوا اكثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا
يغترب بعضا يحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا» ^{١٢} الحجرات .
والخلاصة ان احدث النظم التي يسمونها بالعلمية لا تغنى عن دين الله
شيئا ، لأنها لا تعبر الا عن الذين يصنعونها ، و لا تعكس لا اطماءهم و
اهوائهم .

وقال احمد امين المصرى فى بعض ماقتب ونشر : «ان كان العلم فى كل اشكاله يحقق رغبة الانسان من حيث مادته ، فالدين يحقق امله و طموحه من حيث نفسه وقلبه ، لقدر ادال الماديون ان يؤسسوا نظاما للأخلاق على العقل البحث فلم يفلحوا. ان الاخلاق اذا كان يحتملها القانون فـ طـ او الحكومة او الضمير او الرأى العام لم تكن اخلاقا ماحصنة ، فـ كل هذه وسائل لاتمنع الاجرام ، فـ كل من الجرائم يستطيع الانسان ارتکابها ولا يصل اليها القانون ولا الحكومة ولا الرأى العام ، وما مسمى بالضمير ليس الامر آمنة منعكسة للعرف والتقاليد فالضمير فى الهند كان يسمح للزوجة ان تدفن حية مع زوجها ، والضمير فى امر يكى يسمح للامر يكى الا يض ان يعامل الزوجى معاملة الانسان للغنم ، والدين هو الذى يسد هذه الثلمة ، فيربط قلب الانسان بربه ، وضميره بالله ؛ والله مطلع على خفاياه يحاسبه حتى على نياته ، ويراقبه حتى في خلجان نفسه ». .

محمد والقرآن

في فصل ايات الخالق حاولنا ان نعتمد على مبادى اولية ، و حقائق يقينية في منتهى الوضوح ، و نحاول هنا ايضا في كل مانكتب ان نسير على هذه السبيل . ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق .

القرآن ومعجزات الانبياء

قالوا : كان لكل نبى معجزة تفسرها حادث عصره و تعيين نوعها الظروف التى كانت تحيط به ، ثم تذهب بذهاب تلك الظروف والحوادث ، او بمحنة النبي كعاصموسى ؛ او براء الاكمه والابرص على يد السيد المسيح ، اما معجزة الرسول الاعظم فهو القرآن ، والقرآن باق على مدى الايام ، وقد تفرد بهذه الفضيلة نبينا محمد و امتاز عن سائر الانبياء .

وهذا القول صحيح و صادق في واقعه ؛ ولكن لا يواجه به غير المسلم وخاصة المتعصب المتعنت ، لأن له ان ينكر ويقول : اول الكلام ان القرآن معجزة ثبتت نبوة محمد .

والذى يجب سلوكه مع المنكر هو ان نقول له : ان القرآن تتوافق فيه جميع الصفات والمؤهلات التي تجعله موضوعا للبحث والدرس في انه هل هو معجزة خارقة للعادة شكلا ومضمونا في كل مكان و زمان ، وعلى مدى العصور والاجيال ، او لاشيء فيه من هذه الصفات والمؤهلات ، بل ان حاله تماما كحال الانجيل والتوراة ، وغيرهما من المؤلفات والمصنفات ؟ .

وليس من شك ان غير القرآن من الكتب .. حتى التوراة و الانجيل لا تتوافق فيه هذه الصفات و المؤهلات . وبالتالي لا يصح ان يكون موضوعا لهذا النزاع والاختلاف .. والدليل على ذلك حسى و يقيني من وجوه ، وهى :

اولا : انه مامن يهودى او نصرانى تجرأ حتى على الدعوى والزعىم بان توراته او انجيله معجزة ، او شبه معجزة .. لافى مبناه ولا فى معناه .. وايضا ليس فى واحد من الكتابين تصرىح بذلك ولا تلميح على عكس القرآن ، كما ترى فى الآيتين التاليتين :

ثانيا : ان القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى تحدى المعاونين له فى كل زمان ومكان ، وقال لهم بلسان واضح وفصيح : «فأتوا بسورة هن مثله وادعوا شر كاءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا - ٢٤ البقرة» .

وقال ايضا : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بامثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - ٨٨ الاسراء» . ومضى على هذا التحدى اكثير من الف وثلاث مائة سنة ، وما تى ولن يأتى احد بمثله على الرغم من كثرة خصومه وعلمهم ومقدرتهم .. ومن اجل هذا آمن به علماء وفلاسفة كثيرون ولا يزالون يدخلون فى دينه ، ولن يزال الوعى مدى المصورو الاجيال .

ثالثا : كل معجزة من الانبياء كانت خاصة بعصره وتاريخ قومه لا تتعداه الى غيره . كعاصى موسى ، واحالة الماء خمرا فى عرس «قانا الجليل»

على يد السيد المسيح ، كماقال الانجيل ، او ابرائه الاكمه والابوص كما يقول القرآن ..

ولاشيء على الاطلاق في الدنيا بكمالها نطق بلسان المقال او الحال ، وتجرأ ان يقول : انا المعجزة الكبرى مدى الدهر لفلان ابن فلان ، وان الله قد اوجب على جميع عباده بلا استثناء طاعته وطاعته ، وهذا دليل البالغ القاطع ، وهو التحدى .. ابدا الا قائل بهذه الا القرآن الكريم ، معجزة محمد ، الخالدة على مدى العصور والاجيال .. ذلك بانه «كتاب احکمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبيرا - هود» . و به آمنت وصدقت ملايين الملايين على مدى الفرون .

وبهذا يتبين معناها المعجزة التي يدعى بها المسلمين لمحمد (ص) ليست عصا ، ولا ماء يتحول الى خمر ، ولا اي لون من الوان المادة التي تذهب وتنزول مع الاحوال وال ايام ، بل هي روحية عقلية ، لها بادى واحکام انسانية تطمئن بها النفوس ، وتذعن لها العقول ، وتصلح لحياة الناس كل الناس في جميع الميادين ، وعلى كل العصور واختلاف الامم ، لأنها تهدي بأسسها الى التي هي اقوم ، ومن ارتتاب وتردد قالت لهم معجزة محمد : « فاقروا بسورة من مثله » .

هذا هو الفارق بين معجزة محمد ، ومعجزة غيره من الانبياء ، وبهذا المعجزة اي بالقرآن ونظامه وشريعته كان محمد سيد الانبياء وخاتمهم ، وكانت رسالته عامة وخالدة الى آخر يوم تماما كمعجزته .. « و ما ارسلناك الا كافلة للناس بشير او نذير ا - ٢٤ فاطر » .

« وما ارسلناك الارحمة للعالمين - ١٠٧ الابياء». اما الانبياء السابقون فشريعتهم خاصة كمعجزاتهم ، والذى يؤيد هذا انه لا اشاره فى التوراة او في الانجيل الى ان موسى او عيسى هرورسول الله الى الناس كافة على تعاقب عصورهم، وتباين لغاتهم ، او انه خاتم النبيين ، ولا احد من الانبياء السابقين - على محمد - وصف رسالته بالعموم والشمول ، او نفسه بخاتم المرسلين ، بل منهم من يشرب محمد من بعده ، وتأتى الاشارة الى ذلك .
هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟

يرى البعض انه لامعجزة لمحمد (ص) الا القرآن، اما نحن فنؤمن من بان معجزاته لا يبلغها الاحصاء، ذلك بان على الحكيم ان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وبما تسيقه عقولهم كى تتم الحجة عليهم ، والا كانت الحجة لهم عليه ، ولا تتم الحجة بحال ، ويستحيل ان تتم الا اذا كانت صحيحة في نفسها، وواضحة في بيانها واسلوبها كنور الشمس بحيث لا تدع منفذ الاية شبهة في ذهن المخاطب .. والافان «الحدود تدرأ بالشبهات» .. وبحيث يعذر المنكر مكابرا ومتغيرة في نظر العقلاء جميعاً . واشرنا الى ذلك في بعض ما تقدم .

وعلى هذا ينبغي ان تتنوع المعجزة وتختلف باختلاف الموارد والأشخاص ، كما استدعت حكمته سبحانه ان يباهل نبيه الكريم نصارى نجران .. هذا اذا كان طالب المعجزة يتغيرها بصدق ، و اخلاص ، اما الكاذب المتعنت الذي لا يجدى معه شيء عفيقته معه على القرآن ، لأن اعجازه عام لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بفئة دون فئة ، او بفرد دون فرد . والذى يدلنا على ان معجزات الرسول الاعظم (ص) متعددة ومتعددة

ان رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد بما جاءت به الاخبار من تكلم الحصى ، وسعى الشجرة اليه ، ونبع الماء من بين اصابعه .. الى غير ذلك من المعجزات التي انها هابع عنهم الى اربعة آلاف واربعمائة واربعين معجزة ، كما في البحار و كان الناس يتقبلون هذا آنذاك ، امااليوم حيث يتطلع العالم الى حياة افضل فانا نستدل على نبوة محمد (ص) – فيما نستدل: بأنه خاطب العقل وحارب الجهل ؛ وساوى بين الناس ، ووقف مع المستضعفين ، وقاوم الطغاة المترفين ، واخرج بشرعيته وتعاليمه العالم من ظلمات التوحش والهمجية الى نور الحضارة و المدنية ، وبفضلها نزع رعاة الابل التي جان عن رؤس الجبارية ، والقوابها تحت اقدامهم .

وقد تستدعي الحكمة ان لا تعرض المعجزة على الشخص اطلاقا ، كما لا يكتفى بمجرد شعوره واحساسه ، فقد روى الرواية ، وفيها ابن حنبل والبخاري ومسلم .

«ان رسول الله (ص) بينما هو في المسجد اذ دخل رجل . وقال. ايكم محمد؟ .

فارشد اليه . قال الرجل لمحمد (ص) : اني اسألك فمشدد عليك في المسألة فلاتجده على في نفسك .

قال النبي : سل ما بدا لك .

قال الرجل : اسألك بربك ، ورب من قبلك : هل ارسلك الله الى الناس كلهم ؟ .

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان نصلى الصلوات الخمس في اليوم و
الليلة ؟

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان نصوم هذا الشهر من السنة ؟ .
النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان تأخذ الصدقة من اغنيائنا فتقسمها
على فقراءنا ؟ .

النبي : اللهم نعم .
الرجل : آمنت بما جئت به ، وانا رسول قومي اليك ، انا ضمام بن
نعلبة اخوبني سعد بن بكر .

والخلاصة ان معجزات الانبياء على نوعين : خاصة كابراء الاكمة ،
وعامة كالقرآن ، ومعجزات الانبياء السابقين كلها خاصة لا تتعدي زمانها ،
وما لواحد منهم معجزة تشمل ونعم ، امام محمد (ص) فلم يعجز عن خاصية ،
كثيرة ومتعددة ، ولو وحده المعجزة العامة الخالدة ، وهي القرآن ، وبيانى
الكلام عن اعجازه .

اما قول من قال بأنه لا معجزة للرسول الا القرآن لأن غيره
يتناهى مع قانون الطبيعة أما هذا القول فرد ما لا يدعا : بأن اعجاز القرآن يتناهى ايضا
مع طبيعة الانسان ، والامكنته ان يأتي بمثله . ثانياً : بأن الطبيعة بما فيها
من كائنات ترجع الى اصل واحد ، هو الله ، وارادة واحدة ، هي ارادته
التي تقول للشيء : كن فيكون ... ومامن كائن على الاطلاق له مع الله

سبحانه اراده ولاقانون ولاخصائص ؛ ولاي اثر ، بل ولاوجود ايضا .. ولهمع غير الله وجوده وخصائصه وآثاره ، هذا هو الجواب الحق فيما يعتقد ، وما عداه اوهام وتكلّم .

وتجدر الاشارة الى ان المعجزة ليست من باب العجز في المقدور ، لا في القادر كاجتماع النقيضين او ارتفاعهما ، وكدخول الجمل في سم الخياط ، والاليم يكن للمعجزة من موضوع ، وكان الكلام عنها جنون وهراء .
ما هو الدليل على صحة الاسلام :

وجه الى هذا السؤال شيخ افريقي يطلب العلم في قم .. وفي اللحظة الاولى لسؤاله تبادر الى ذهني انه يشعر بمسؤولية الدفاع عن دينه ، وانه يرغب الى ان امدده وازوده بما املك من وسائل الدفاع ، فاجبته ، وانا اشرح هنا وافصل ما اجملته هناك ، لأن الكتابة بعد التفكير والتدبّر غير الجواب السريع ، اجبته وقلت : ان الاسلام هو رسالة محمد بالذات (ص) على انها وحى من الله ، لاصنع محمد ، واصدق الادلة على هذه الحقيقة هو القرآن الكريم ، ومما على المشكك والمتردّد الا ان ينظر اليه برويّة وامان ، فان توافرت فيه خصائص الوحي من الله فالاسلام حق وصدق ، والافلا وحى ولاسلام .

ونحن نسأل من تشكّلات وارتاب في نبوة محمد (ص) ورسالته ، اوقفناه وجزم بذلك بالتردد ، نسأل له هل انت من الذين ينكرون وجود الله من الاساس ، كالماديّين ، او من الذين يؤمنون بوجوده ، وينكرون ان يكون الله وحى ، وللإنسان بعث كاصحاب الدين الطبيعي (١) او انت من الذين يؤمنون بالله

(١) هم قوم يؤمنون بخالق الطبيعة ؛ وينكرون البعث والنبوات ، وسموا انفسهم باصحاب الدين الطبيعي لان ايمانهم بالخالق تفرض ، البحوث الطبيعية دون غيرها من المفهومات .

وكتبه ورسله، ولكن ينكرون نبوة محمد ورسالته بالخصوص كالنصاري ..
فإن كنت من النوع الأول فلا يحق لك أن تجادل و تخاصم في النبوات والكتب
السماوية فضلاً عن القرآن ونبيه محمد(ص) ولكل الحق أن تطالب بالدليل
على وجود الله ، وقد أوضحناه في فصل سابق بعنوان آيات الخالق، فإن افتنع
فذاك، والاقلنا مع نبينا الراكم «لكم دينكم ولدى دين» .. وإن كنت من النوع
الثاني فنفس الشيء ، ولكن تطالب بالدليل على وجوب الإيمان بكتاب الله
ورسله، وقد ذكرناه في الفصل المتقدم بعنوان النبوة .

وان كنت من النوع الثالث أى تؤمن بالله وكتبه ورسله ، ولكن تنكر
نبوة محمد، وتقول : ان القرآن بشرى ، لا الهى ، ان كنت هكذا سألهناك هل
تعتقد بان القرآن من عند محمد وابداعه بالذات ، او تعتقد بان محمدأً أخذ
من مخلوق مثله . والفرض الاول بعدم كل بعيد ، لأن تفسير أى كتاب وتقديره
والحكم عليه يجب ان يكون في ضوء شخصية مؤلفه وظروفه الاجتماعية ،
ومما يحيط به من عوامل تؤثر في عقله وعاطفته ، ومهما كان الانسان
فويافي شخصيته ، وعبيديا في مواببه فيستحيل عليه ان يتحرر من جميع
آثار البيئة التي عاش فيها حتى كأنه غريب عنها لأن الانسان ابن الارض التي
ولدها وعاش عليها .

وعليه، فإذا قارنا بين القرآن شكلًا ومضمونًا، وبين بيئة محمد وعواملها تبين معنا أن الفرق بينهما هو عين الفرق بين العلم والجهل، والظلم والعدل، والحق والباطل، والهدى والضلال، وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله: «هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة و ان كانوا من امن قبل لففي ضلال مبين - اول الجمعة». كانوا

في ضلال مبين من الشرك وتعدد الالهة ، ولما جاءهم محمد (ص) بالتوحيد عجبوا وقالوا : «هذا ساحر كذاب أجعل الالهة اهلها واحداً ان هذا الشيء عجائب - ٥ ص» .

وكانوا يحللون الربا والزنا والخمر والميسر ، والكذب والغيبة ، والسلب والنهب ، وقتل النفس المحرمة ، كما تنازروا بالألقاب ، وتعصبوا للنسب ، وتفاخروا بالاموال والأولاد وقطعوا الارحام ، ووأدوا البنات خوفا من العار ، وقتلوا الاطفال خشية الاملاق وجعلوا المرأة في عداد الحيوانات .. إلى آخر الرذائل والبربرية التي حرمتها محمد وانكرها اشد الانكشار على قومه واهل بلده ولاقي منهم لذلك من الوان الاذى مالم يلقه نبى من قبله .. اذن فما ين ووجه الشبه بين محمد وبينه وما هي الافكار التي استوحاهها وتأثر بها من ظروفه ومحطيته . و اذا كان محمد بافكاره و ميوله انعكاساً لبيئته و تقاليد قومه فلما ذاجسوا الجيوش لحربه وقالوا عنه فيما قالوا : ساحر و شاعر و مجنون وكذاب و اذا اضفي النبي الصبغة الدينية على دعوه ليستجيب اليه العرب عن هذا الطريق كما قال احد المستشرقين اذا كان هذا صحيحا فلماذا سفه النبي احلامهم و سب آلتهم التي يبعدون و آباءهم الذين يقدسون ؟ لقد كانت دعوة رسول الله (ص) غريبة لدى العرب .. تفوق عقولهم وتصورهم حتى انهم لم يجدوا لها تفسيراً الا السحر وقال الكافرون للحق لما جاءهم ان هذا الاسحر مبين - ٢٣ سبأ . وعلى الرغم من هذا وغير هذا يكابر اعداء الاسلام وخصومه ويصرون على ان محمدآ يرتبط في رسالته بحياة قومه ايما ارتباط على حد تعبير المستشرق الانكليزي «جب» ..

ابدا .. لاعامل من بيئه ، ولاسبب من ذاته، ولاشيء على الاطلاق
الالوحي من السماء .

وتسأل : ان الاشخاص الذين يقايسون بظروفهم ؛ هم العاديون؛ او
العاقة غير محمد صاحب الشخصية المبدعة الخلاقة التي تعطى البيئة ولا
تأخذ منها ؛ وتقاين بها ، ولايتأثر بها ؟ .

ونجيب اولا : اجل ، ان شخصية رسول الله لا تدانيها اية شخصية
عقلية ، ولكن العبرية - مهماسمت - فانها لاتاتي ولن تاتي بالمعجزات
وخارق العادات .. فالعقل الذي لم يدرس فن الطب - مثلا - يستحيل
ان يؤلف كتابا فيه صحيححا وسلاما في جميع اقواله ونظرياته بخاصة اذا كان
فيه كشوف جديدة ... ولو افترض ان جاءتنا بكتاب مثل هذاجز منافي الحال
ومن غير تردد بأن ورائعه عالمقادير افي فن الطب هو الذي وضع هذا الكتاب ،
واعطاه للعقل ، او العبرى سرقه منه .

وهذى هي الحال بالنسبة لمحمد(ص) ، فلقد جاء بالقرآن ، وفيه
اشياء وشياع لا يمكن ان تكون الامن خالق الكائنات ، كالاخبار بالمفيبات
و عجائب الارض و السموات ، وخلق الانسان وغيره من الحيوانات و
الحشرات ، وفيه النظام الكامل الشامل لشئي ميادين الحياة .. الى غير هامن
الحقائق الكونية والانسانية التي يعجز محمد والعلم في عصره عن معرفة
القليل منها .. اذن، فلابد ان تكون تنزيلا من لدن حكيم خبير على قلب
الرسول الامين: «ما كنت تدرى ما الكتاب ولا اليمان ولكن جعلناه نورا
نهدى به من نشاء من عبادنا - ٥٢ الشورى».

ثانياً : ان للعقاري المبدع علامات تدل عليه؛ وللتأثير المصلح صفات تميزه عن غيره ، والنبي يشارك العقاري والمصلح، في كل فضيلة، ما في ذلك ريب ، ولكنه يمتاز بصفات لا يشاركها فيهما أحد ، ان العقاري او المصلح يستوحى آراءه ومبادئه من الارض ؛ لا من السماء ، يستوحى بها من عقله وبيئته ؛ والنبي يتلقى الوحي من السماء ؛ من الله جلت عظمته ، و الوحي معصوم ، والعقل يخطيء ويصيب ، والبيئة شهوات واهواء ، وايضاً العقاري يبدع في شيء عدون شيء عولياً يبدع في كل شيء عوالم المصلح يهدف الى ناحية واحدة او اكثراً من حياة فئة او امة في بقعة من الارض ، ولا يهدف الى اصلاح اهل الارض جميراً في كل شيء وفي كل زمان ومكان .

اما محمد فهو رسول الحق والعدل الى الانسانية جماعة لينقذها من الجحالة والضلال ، ويحملها على نهج الهدایة والنجاة .. وain العقاري والمصلح من هذا او شبه هذا ؟.

وبعد ، فان محمد الایقان : هو عقاري خلاق ؛ ولا مصلح ثائر ، ولا عظيم خالد .. كلام ، والكلام ، فما اكثرا العباقرة والمصلحين والتأثيرين !. ان محمد رحمة مهداة من الله السماء لاهل الارض اجمعين: « وما ارسلناك الارحمة للعالمين ». ورحمة الله سبحانه فوق العباقرية والعباقرة ، والاصلاح والمصلحين ، وفوق العظمة والعظماء الخالدين ، بل فوق الناس مجتمعين والسموات والارضين ، لانها تنسع لكل شيء عولياً يتسع لها شيء القلب . محمد ومن سار على طريقته وعمل بمبادئه وسنته .

القرآن والتوراة والإنجيل

قدمنا ان الذى يؤمن بالله ورسله ، وينكر نبوة محمد (ص) اaman
يذعيم بان القرآن من محمد بالذات ، واما ان يدعى ان محمد اخذه من
غيره ، دا بطلنا الزعم الاول بكلام مفصل ومطول ، ونجيب الان عن الزعم
الثانى ، وهو من سمو المبشرين الذين يفتون نهاضد الاسلام وال المسلمين ،
وتتلخص اقوال المبشرين ضد القرآن بانه: ما خود من التوراة والانجيل و
من بعض الرهبان والقسيسين ! ..

وقال صهيوني عريق : أثبتت المسيحية من اليهودية ؛ وانبثق
الاسلام منهماما ! . ونجيب .

اجل ؛ ان كان القرآن قد أخذ بعض الآيات من التوراة و الانجيل فهذا : «قل يا اهل الكتاب لستم على شيءٍ - ٦٨ المائدة» .. «قل يا اهل

الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل - ٢١ آل عمران .. «قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق - ٧٧ المائدة .. لقد كفروا الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة - ٧٣ المائدة .. «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلبت أيديهم ودعنا بما قالوا - ٦٤ المائدة ..

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفار أبئس مثل القوم الذين كذبوا آيات الله - الجمعة إلى آخر الآيات التي ندّدت باليهود والنصارى ، ونعتتهم بالكفر والافتراء على الله ، وتحريف كتبه وقتل رسله ؛ ووصفتهم بكل قبيح .

٢ - ماهو وجه الشبه بين القرآن ؛ وبين التوراة والإنجيل ؟ هل هو في الشكل أو المضمون أو هما معاً ، أما الشكل والأسلوب فان تلامذة المدرسة الابتدائية لا يعجزون عن تقليد التوراة والإنجيل .. وياتي الحديث عن أسلوب القرآن ، وأما وجه الشبه في المضمون فننساعل : هل تشبه التوراة والإنجيل القرآن الكريم في تنزيه الله عن الشرير والولد ، او في الشريعة واحكامها او في الحرص على حقوق المرأة او في الاخبار عن المغيبات ، وعن عجائب الأرض والسموات .. إلى غير ذلك من الحقائق .

هذا ، إلى أن القرآن تحدث عن آباء لاذكر لهم في الإنجليل و - التوراة لاتصريحاً ولاتلميحاً ، كهود وصالح وذى الكفل ، كما ان في التوراة آباء لم يشر إليها القرآن كعاصم و ميخاونا حروم وغيرهم ... وقد شهد علماء الغرب بان المسلمين بفضل القرآن و تعاليمه ملا والشرق والغرب بعلومهم وحضارتهم ، قال «سديو» أحد وزراء فرنسا في

كان المسلمين متقدرين في العلم والفلسفة والفنون والجميلة وقد نشروها وإنما حللت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوروبا ، فـ كانوا سبباً لنهضة وارتقائها ، و معلمين للأوربيين و ملقيين لهم النهوض و المدنية » . و أمثل هذه الشهادة كثيرة وكثير ، ومع هذا يصر أعداء الإسلام على أن القرآن أخذ من التوراة والإنجيل ، وان المسلمين أخذوا الأدب من الفرس ، والحكمة من الهند ، والفقه من الرومان ، والفلسفة من اليونان ، وليس لهم فيها كثير ولا قليل ... إلى مثل ذلك من العداء والافتراء .

و آمنت ، وانا اقرا هذه الاكاذيب ، ان افضل وسيلة للمسلم ، اذا احب ان يكون على يقين من دين آبائه و اجداده – ان يقرأ ما يقوله اعداء الإسلام عن الإسلام ...

٣ – ان كل ما يستدعي الشك في القرآن كواحد من الله – لفرض وجوده – فهو يوجب الشك والريب في التوراة والإنجيل بطريق أولى ... وبالمناسبة ان اليهودية سبقها كثير من الانبياء ، منهم نوح وابراهيم ، وكان في عهد موسى وعيسى ديانات وكهانة وسحر ... فكل ما يقوله اليهودي والمسيحي في حق القرآن ومحمد يصح للمسلم ان يقوله بالذات في حق التوراة والإنجيل وموسى والمسيح ... بل ويزيد عليه أيضا .
الإسلام والصهيونية والاستعمار :

ولمناسبة ما ذكرناه عن اعداء الإسلام نشير إلى ان الصهيونية خصصت جماعة من اصحاب الادمغة للافتراء على الإسلام ، و وجهت لهذة الغاية الصحف الكبرى والاذاعات ، والصور المتحركة ، وعددأ غير قليل من

المؤلفين والممثليين ودور النشر، وتعاونت مع بعضات التبشير المسيحي
التي تملك مؤسسات و مراكز تنتشر في أنحاء البلاد الإسلامية وخاصة
أفريقيا منها ٤٠٠ مركز للسويد ، وأكثر من ٥٠٠٥٥٠٠ للنرويج و ٤٥٠٠ لـ أمريكا
عدامًا إيطاليا وفرنسا وإنكلترا.. قال العقاد في كتاب «ما يقال عن الإسلام»
«إن الغربيين يعرفون أكاذيب الصهيونيين، وإنما يساعدونهم . لأن خطير
الإسلام عليهم أكبر من خطير الصهيونية ، وما يماثلها من سائر الأخطار»
و نقل الشيخ محمد الغزالى في كتابه «معركة الإسلام» عن
«لورانس براون» انه قال : لقد كنا نتوjos بالخوف من خطير اليهود والخطر
الشيعي ، و الخطير الأصفر . ثم تبين لنا ان اليهود أصدقاؤنا والblasfeme
حلفاؤنا ، أما الخطير الأصفر فهو تلك دول كبرى تتكلف بالقضاء عليهـ يشير
بهذا إلى الخلاف بين الروس والصين – ان الخطير الحقيقي يكمن في
نظام الإسلام، وفي قدرة الدين الإسلامي وحيويته، انه الجدار الوحيد الذي
يقف في وجه الاستعمار» .

اعجاز القرآن :

تكلم العلماء كثيراً عن اعجاز القرآن، واطالوا الكلام (١) وحاولوا
جاهدين أن يكشفوا عن أسرار هذا الاعجاز ، أو عن بعضها ، وربما خيل إلى
واحد منهمـ على الأقلـ أنه قد ادرك ماراد، ولكن هيئات ! ،أني يكون له
ذلكـ والمفترض أن القرآن ان اعجز العقول والقرائح ، فبالأداء ان يعجز
الالسن .

(١) انظر: دلائل الاعجاز للجزائري من القدماء ، والمعجزة الخالدة لهبة
الدين الشهير ستانى من الجدد .

أجل؛ إن العالم يفهم المعنى الذي يتบรรد إلى ذهنه من لفظ القرآن وظاهره، ويستحيل عليه أن يحيط علمًا بجميع معانيه واسراره؛ وعلومه وآنواره. وعلى هذا فإذا تحدث العالم عن أسرار القرآن فانما يتتحدث عن اعجاز ما فهمه هو من لفظ القرآن وظاهره، لاعن اعجاز القرآن كما هو في واقعه.. حتى هذا المعنى الظاهر ينطوي على كثير من الخصائص والاسرار، ولا يعرف العالم منها إلا قليلاً.. وازن هو يعبر عن هذا النزد القليل، الذي يعلمه.. ومن أراد الاطلاع على هذه الرشحات أو المحاولات فليرجع إلى ما كتبه الجن جانى والبلاطانى وأبو عيسى الرمانى، وغيرهم من الفواد فى هذا الباب.. أما نحن فنشير فيما يلى إلى سر الاعجاز ومكان التحدى باختصار جامع وسريع.

التحدي :

نحن نقر ونعترف بأن الذين كفروا وجدوا بالقرآن الان وقبل الان كثيرون جداً، ويعدون بالملائين، لبمئات الالاف، وكيف ننكر هذه الحقيقة ويشهد لها الوجدان والبدريه! ولكن هذا الاعتراف من المؤمنين يقابل به الاعتراف من الكافرين بأن القرآن تحداهم - مدى الدهر - على أن يأتوا بمثله، ويدعوا من شاعوا، وما أرادوا.. وادالهم نجد نحن ملجاً ولا مفرأً من الاعتراف بوجود من حجد وكفر فان الجاحد الكافر لاملاجاً له ايضاً ولا مفر، الا الاذعان والتسليم بان القرآن تحداهم وما زال، وبان التاريخ ما حفظ محاولة ذاتجحة لتقليله على كثرة اعدائه، والجاحدين به، وبمن نزل على قلبه.. نحن نعترف بوجود هؤلاء الكافرين ، وهم بحكم الحس والبدريه

يعترفون بهذا التجدي. كيف لا . والقرآن يعلم بلسان واضح وصريح : «قل لئن اجتمع الناس والجنة على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً - ٨٨ الاسراء» .. حتى فصحاء العرب وبلغائهم تصدوا للقرآن ، واعترفوا بالعجز عن تقليده ، وقال قائلهم وسيدهم الوليد بن المغيرة : ان له لحلوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثير ، وان اسفله لمدقق .. وانه يعلو ولا يعلى عليه .. وقال آخر ورن .. محمد ساحر وشاعر .. وهذا القول افراد واعتراف بان القرآن يذهل العقول ، ويخرس الالسن ..

اما سر هذا الاعجاز فلا يكمن في نفس اللغة ، وان سمت وعظمت ، ولا في اختيار الكلمات ، وسبكها وتشكيلها ، ووضع كل كلمة في مكانها ، كما قيل ، فكم من اديب يتذوق نكهة الكلمة ويضعها في مكانها من شعره او نثره ويشكل اسلوباً بالغ الروعة في نعومته وطراوته .. كلا ، ليس السر في التشكيل والتجميل . بل هنا كسر ابعد واعمق .. وهو ذات المتكلم وجلاله وعظمته .. ويستحيل الفصل بين الاسلوب : اي اسلوب ، وبين صاحبه باتفاق اهل الخبرة والاختصاص ، قال الكاتب العالم الفرنسي بافون : «الاسلوب هو صاحب الاسلوب» وقال عارف آخر : ليست الكتابة الا التعبير عن طبيعة الكاتب وطابعه وقال خبير ثالث : الاسلوب جزء من صاحبه ..

ومن اجل هذا يستحيل على الناس والجنة ان يأتوا بمثل هذا القرآن او بسورة من مثله ، تماماً كما يستحيل ان يأتوا بمثل هذا الكون ، او بجزء من مثله ..

ونفترض_جدا_ _وفرض المحال ليس بمحال، ففترض ان المخلوق
يستطيع ان يقلد خالقه ، وخلق الارض والسموات، ولو في اختيار الكلمات
وتشكيل العبارات ، وان في مقدوره وامكانه ان يأتي بمثل الفرقان حلاوة
وطلاوة_على حد تعبير الوليد بن المغيرة – فهل يستطيع ان يأتي بكتاب
تحدث تلاوته في القلب ما يحدنه كتاب الله من الرهبة والخشوع، ويكون له
من الانوار ما للقرآن في الاخلاق والاداب والتشريع والتاريخ والفلسفة. .
الى غير ذلك من العلوم والحكم التي فتحت ابواب الجد والعمل للدنيا
والآخرة، واجدت امة بعد العدم : وجمعت صفوتها بعد الشتات ، وامدتها
من القوة ما اكتسحت به دولتين عظيمتين تماما كامريكا وروسيا في هذا العصر
واقامت على انقضائهما امبراطورية تمتد شرقا وغربا ، وتملا الدنيا حضارة
وعلما؟ .

هنا يكمن سر الاعجاز في كتاب الله وهذا مكان التحدي فيه .. وهذا
التحدي باق ما بقى الدهر .. اذن رسالتنا محمد باقية ما بقى الدهر ، وبدوامها
وخلودها انسداد باب الوحي، وختمت النبوات ، والشريعة السماوية .

القرآن يتحدى الطغاة المعاذين

وتساؤل: هل الذين اسلموا وآمنوا بمحمد(ص) في عهده كلهم اوجلهم
آمنوا بسبب تحدي القرآن؟.. ولوصح هذا لكان الاسلام جديرا باسم دين
التحديات وعرض العضلات من بين الاديان كلها .

الجواب : كلا .. كيف الاسلام دين الهداية والاخاء؟ على ان الناس
او اكثراهم لا يهتمون بالتحديات، وبالخصوص اذا كان القصد من التحدي

مجرد الایمان والاعتقاد بعظمة المتجدد ولوقام الاسلام على مجرد النجدى لما دخل الناس فيه بالملايين ؛ ولاكان له الان وقبل الان عين ولائر.. ان التجدد - كما تدل اسباب المزول - قد جاء في القرآن الكريم لکبح المعاندين، وافحاص المشاكسين، فان جماعة من عتاة الشرك وطغائه کابی سفیان وابی جھل قد اغرقوافي التعمت ، وتجاوزوا في اذى الرسول كل حد، ولم ير تدعوا بحلم، ولا بایة وسيلة، فتجدهم القرآن ، ليفتضوا امام الملا حيث الفضيحة اولی بهم واجدی، ولو انهم سكتوا السكت عنهم القرآن وهذا النوع من الناس موجود في كل زمان ومكان، والقرآن يتعداهم ايضما كانوا ومتى وجدوا ، ومن كف الاذى عن الاسلام ونبيه فهو غير مقصود بالتجدد ، قال تعالى : « وان كذبوا كفقل لى عملی ولکم عملکم انتم بريئون مما اعمل وانا بريئ مما تعملون - ٤١ يومنس » .

اخبار القرآن بالمخيبات:

من اعجاز القرآن اخباره بالمخيبات ، وتحققت كما الخبر .
« منها » قوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحر اما انشاء الله آمنين مخلقين رؤسکم ومقصرين لاتخافون - ٢٧ الفتح » . فدخلوا آمنين وما كانوا يطمعون .

« و « منها » : « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - ١٣٣ التوبة » . وظهر .
و « منها » « و عدكم الله مفاسد كثيرة تأخذونها - ٢٠ الفتح » . و اخذوها .

و «منها» «وإذ يعدكم الله أحدي الطائفتين انه لكم - ٧ ال الأنفال» . و
صارت لهم .

و « منها» : « قل للذين كفروا ستعلبون - ١٢ آل عمران »
وغلبوا .

و « منها» : « غلبت الروم في ادنى الأرض وهم من من بعد غلبهم سيغلبون
في بعض سنين - أول الروم » . وغلبوا اعدائهم الفرس في بعض سنين .

و « منها» : « ام يقولون نحن جموع منتصر سيهزمون ويولون الدبر
- ٤٥ القمر » . وهزموا وولوا الدبر .

و « منها» : « ان كنتم في ريب مما زلت ناعلی عبدنا فاتوا بسورة من
مثله - الى قوله - فان لم تفعلوا ولن تفعلوا - ٢٣ البقرة » . و ما فعلوا ولا
طمعوا في ان يفعلوا .

و « منها» : آيات كثيرة كشفت اسرار المنافقين ، وما كانوا يقولون
ويبيتون من الكيد والمكر ، كقوله تعالى: « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا
كلمة الكفر - ٧٤ التوبه » ... « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم - ٩٠
التوبه » الى كثير من الآيات التي لا ينطوي بها حفنا وصدقنا الاعلام الغيوب .

وبعد ، فان ما اشرنا اليه من اعجاز القرآن هو غيض من فيض .. وما كل
الذين آمنوا بمحمد (ص) آمنوا به من اجل المعجزات .. كلا : بل هم على
انواع والتفصيل فيما يليلي :

١- الشقة بالصدق واهله:

آمن كثير من الناس بمحمد (ص) في عهده لمجرد الثقة به وبصدقه

وامانته ، فلقد اشتهر بين قومه بلقب الصادق الامين وتميز عنهم منذ نشأته بالبعد عن كل قبيح كانوا يزاولونه ، وقد اجمع اهل السير والتاريخ ، و منهم المنصفون من قادة الفكر في الشرق والغرب ، ومن كل دين ، اجمعوا على ان محمدًا كان قبل البعثة تماما كما كان بعدها المثل الاعلى لكل فضيلة ، وان عددا غير قليل تأثر بشخصيته وعظمته .

وصرينا مثلا لهؤلاء بقصة ايمان ضمام بن نعبلة في فقرة «هل لمحمد معجزة غير القرآن؟» .

وفي كتاب «اماذا اخترنا الدين الاسلامي» : ان المؤرخ والكاتب الشهير «ولز» الذي ذاعت مؤلفاته الكثيرة وترجمت الى العديد من اللغات - قال: «من الذي يشك ان القوّة الخارقة للعادة التي استطاع بها محمد ان يقهر خصوّمه هي من عند الله؟ . وقد اجمعوا على ان من انصع الادلة على صدقه ان المطلعين على جميع اسراره اول من آمن به؛ ولو ارتابوا في صدقه لاما آمنوا .»

٣ - البشارة بمحمد:

ما من نبي من الانبياء - حتى نوح وابراهيم - الا وخذ الله عليه عهدا و ميثاقا ان يبشر بمحمد (ص) وينوه باسمه ، كما تشير الآية ٨١ من آل عمران: «واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومن به» . وقال الامام علي (ع) : ما بعث الله نبيا الاخذ عليه العهد في محمد (ص) وامرها ان يأخذ العهد على قومه فيه بان يؤمنوا به ، ويناصروه اذا ادركتوا زمانه .

واشارت بعض الكتب الموجلة جدافي القدم الى محمد ورسالته ، و فوق ذلك ذكرت اسم ابى لهب بالحرف و نصبه العداء لرسول الله (ص). فقد نقل العقاد في كتاب العبريات الاسلامية تحت عنوان الطوالع والنبوات عن عبد الحق في كتاب محمد في الاسفار الدينية العالمية المطبوع بالانجليزية ، نقل عنه مايلى :

«ان اسم الرسول العربي مكتوب بلفظه العربي احمد في «السامافيدا» من كتب البراهمة ؛ وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ما نصه بالحرف : ان احمد تلقى الشريعة من ربه ، و هي مملوقة بالحكمة .. وان وصف الكعبة ثابت في كتاب «الاثار فافيها» وانه قد جاء في كتاب «زندافستا» الذي اشتهر باسم الكتاب المقدس في المجموعة جاء فيه الاخبار عن نبي يوسف بأنه رحمة للعالمين يدعوا إلى الله واحد لم يكن له كفوا واحد ؛ ويتصدى له عدو يسمى ابو لهب » .

وفي القرآن الكريم اكثرا من آية تصرح بوضوح ان البشرة بمحمد (ص) جاءت في التوراة والإنجيل ، وان بعض علماء النصارى واليهود على يقين من ذلك ، وانهم كتموا الحق حر صاعى مكانتهم ؛ وخوفا على جاههم قال تعالى : «الذين آتیناهم الكتاب يعرفونه - اى مهتما - كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون». البقرة ١٤٦

اجل كان هذا العلم موجودا يام تزول القرآن عنده بعض اخبار اليهود ورؤساء الكنائس ، والا ما اعلن القرآن ذلك على سمع منهم ، ومساجل التاريخ عن راوواحد انهم نفوا وکذبوا ، وكأنوا يبحثون عن كل صغيرة و

كبيرة يدينون بها الرسول والقرآن .

اما الفريق الآخر من اهل الكتاب فقد اعلن هذا العلم ودان به ، قال اهل التفسير : «ان عبدالله بن سلام كان من احبار اليهود وكبار علمائهم ، وقد اسلم هو وجماعته على يد رسول الله (ص) وقال فيما قال : انا عالم بنبوة محمد مني بابني لاني لا اشك في ان محمدا نبي ؛ اما ولدي فلعل امه قد خانت .. وكان اسمه الحسين ، فسماه الرسول عبدالله ؛ و فيه نزلت هذه الآية : « و شهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبر تم - ١٠ الاحقاف ». وايضا الآية ٤٣ الرعد : « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم و من عنده علم الكتاب » .

و كان عدى بن حاتم الطائي نصراانيا ، ومن اشد الناس عداوة لرسول الله ثم اسلم على يده طوعا وايمانا بالحق . ومن الآيات التي اشارت الى الذين آمنوا من اهل الكتاب الآية ١٥٧ من الاعراف : «الذين يتبعون الرسول الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ». اي التوراة الحق التي انزلها الله على موسى ، والانجيل الصدق الذي انزله على عيسى ، اما توراة الناس وانجيلهم فمحرفان مزوران . و على رغم التزوير والتحريف فان في التوراة فقرات تنطبق على محمد والتبشير به ، قال : «وله في قصة المحضارة تعرية محمد بدران ج ٢ من المجلد الرابع ص ٢١ مانصه بالحرف : «ويمكن ان تنطبق على محمد بعض فقرات تبشيريه ». وهذا القائل مسيحي امريكي و اكبر مؤرخ في هذا العصر .

اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم :

وتساؤل : لماذا تجيزون للمسلم ان ينسب التحريف والتزوير الى التوراة

والإنجيل ، وتحجرون على غير المسلم ان ينسب ذلك الى القرآن .
الجواب : نحن مع الدليل اينما كان بسرف النظر عن دين الاباء
والاجداد ، وادا درسنا كل واحد من الكتب الثلاثة في ضوء ما احيط بهمن
ظروف وعوامل ، او على اساس شكله ومحنته - تبين معننا الفرق والسبب
المانع من قياس الكتابين على القرآن .. من حيث الشكل والمضمون ، ومن
حيث العوامل الخارجية .. فان معانى القرآن واسلوبه والعوامل التي احاطت
به كلها ، تشهد وتعترف بانهم عندهم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ، اما اسلوب التوراة والإنجيل ، وما فيه من محتويات ومضمون ، واحيط
به مامن ظروف وملابسات - فانها تبعث على الاعتقاد بان الله وموسى والسيد
المسيح بريئون من هذه التوراة والإنجيل ، وممن كتبها وآمن بها .. وفيما
يلى البيان بما امكن من السرعة والابيجاز .

اما الفرق من حيث الظروف والعوامل الخارجية فقد روى الرواية
والمؤرخون من كل دين ، وفي كل عصر على انه قد كان للنبي (ص) كتبة
للوحي معروفون ، ومنهم باتفاق الجميع - كما في اعجاز القرآن للرافعى -
الامام علي بن ابي طالب (ع) وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ،
وعبد الله بن مسعود ، فإذا نزلت الآية سجلوها على ورق او جلد او عظم ونحوه ،
حتى كتبت آى الذكر الحكيم كلها في عهد الرسول (ص) وبامره ، ولكنها
لم تجمع في مصحف واحد ، في حياته (ص) لانه كان يتوقع ان ينزل عليه جديد
من الوحي ، وايضا كان عدد غير قليل من الصحابة يحفظون القرآن في
عهد الرسول (ص) ، منهم - كما في اول تفسير القرطبي - الخلفاء الاربعة ،

وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وسالم بن أبي حذيفة وعبد الله بن عمر وبن العاص .

ولما انتقل النبي (ص) إلى الرفيق الأعلى ، وانقضى عهد الوحي جمع المسلمين القرآن في كتاب واحد في عهد أبي بكر وبمدينة الرسول ، وبعده بلافاصل ، ونصوص النسخ كلها واحدة حروف وكلمات وترتيبها وسياقا . .

أجل، حصل بعض الاختلاف في قراءة آيات منه ، وهذا أمر طبيعي لخلوه إنذاك من النقطة والشكل، فيحاول عثمان أيام خلافته أن يجمع الناس على قراءة واحدة، واذن فالقرآن ثابت بالنقل المتوافر المتواتر عن محمد بالذات باعتراف الجاحدين لنبوته .

قال هيكل في كتاب حياة محمد (ص) ص ٣١ الطبعة التاسعة: «الذين يزعمون تحريف القرآن من المستشرقين هم قلة بين اشد المستشرقين تعصباً أما أكثرهم فيقررون بان القرآن الذي نتلوهاليوم هو بعينه القرآن الذي تلاه محمد (ص) على المسلمين أثناء حياته لهم يحرف ولم يبدل - إلى ان قال - وقد أورد المستشرقون كثيراً من التحريف ، ونختار من هذا الكثير الذي قاله المستشرقون ، بعض ما كتبه السير « وليم موير » في كتابه حياة محمد (ص) ليり الذين اسرفوا على انفسهم وعلى التاريخ شدة ما اسرفوا حتى اطمنوا إلى تحريف القرآن و «موير» مسيحي شديد الحرص على مسيحيته والدعوة إليها؛ شديد الحرص على أن لا يدعم موضعنا لنقدنبي الإسلام وكتابه دون أن يقف عنده و «موير» أى دعم النقد للنبي والقرآن .

ثم نقل هيكل عن «موير» المتعصب صفحات عديدة تشهد أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن هذه الصفحات مانصه بالحرف :

«ان كل ما في القرآن صورة صادقة كاملة لما أوحى به إلى محمد (ص) ..
ونستطيع أن نؤكد استناداً إلى أقوى الأدلة أن كل آية من القرآن دقيقة في
ضبطها تماماً كما قال لها محمد» .

هذه شهادة واضحة نطق بها كبار يدلين بال المسيحية، ويتعصب لها ، و
لكل درس وحقيقة نطق القرآن وكل ما احاط به من ملابسات ، ثم اعلن
نتيجة دراسته وتحقيقه، وهي ان القرآن الذي أوحى به إلى رسول الله (ص)
هو هذا الذي عند المسلمين لزيادة فيه ولا نقصان .

وبعد اعتراف جماعة من كبار اليهود والنصارى بأن القرآن أخذ من
رسول الله (ص) شكك المحققون منهم وارتابوا في نسبة التوراة إلى موسى ،
ونسبة الانجيل إلى عيسى . ذلك بأن التوراة التي نزلت على موسى (ع) قد
فقدت من بعده باعتراف اليهود والنصارى انفسهم ، وانه بعد سنتين طوال
ادعى من ادعى بأنه يحفظها عن ظهر قلب ، وكتب دعوه هذه، وقال لها : كوني
توراة فكانت .

ونفس الشيء حدث للانجيل الأصيل الذي أنزل على عيسى (ع) ،
قال صاحب اظهار الحق ص ٤٢ : ان قسيساً اعترف بضياع الانجيل بسبب
المصائب والفتن التي وقعت على المسيحيين مدة ٣١٣ سنة فالتجأوا في اثنائه
إلى الظن والتخيّم ..

ومن الطريق ان انجيل السيد المسيح قد اولاد بعده اكثراً من ١٧٠
انجيلاً ، انظر اظهار الحق ص ١٤ . وفي سنة ٣٢٥م اجتمع رؤساء النصارى
وأقرّوا أربعة منها .

و آخر ما قرأته في هذا الموضوع كتابين حديثين : الاول كتاب القاموس المقدس اشتراك في وضعه ٢٧ عالما ورئيسا دينيا من المسيحيين وجاء في مادة يوشوا من هذا الكتاب مانصه بالحرف : « مما لاشك فيه ان معظم الاسفار المقدسة اتلف او فقد في عصر الارتداد عن الدين والاضطهاد » وجاء في مادة اسفار : « هناك رأى - اي لاهل الكتاب - يقول : ان الذي اضفي صفة القانون على اسفار العهد القديم هم كتاب الاسفار انفسهم » وهذا اعتراف صريح لا يقبل الشك بان الاسفار لاعين لها ولا اثر، وان هذه اسفار المتداولة من عند كتبتها .

والكتاب الثاني قصة الحضارة لمؤلفه : « ولديورانت » فقد جاء في الجزء الثاني من المجلد الاول ترجمة محمد بدران ص ٣٦٧ - ما نصه بالحرف : « كيف كتبت هذه الاسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وain كتبت ؟ ذلك سؤال بربى لا ضير منه ، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون الف مجلد » وهذا السؤال البربى من عالم ومورخ مسيحي اوضح دليل على شكه في مقدسات آبائه واجداده .. ولو كانت تلك الاسفار حقا وصادقا لكان جواب السؤال عنها بسطر او سطرين ؛ تماما كجواب السؤال عن القرآن الكريم ... و مما يكفى ان الخمسين الف مجلد الذى ألفت في الجواب قد أكده شبهة التحرير ، وحولتها الى القطع واليقين بالتزوير والتحريف .

هذا مجمل الفرق والتضاد بين ظروف القرآن التي تشهد بصدقه ، و ظروف التوراة والانجيل التي تنطق بالتحريف والتزوير فيها . اما الفرق من حيث الشكل و الاسلوب فلسنا بحاجة الى الكلام

عنه.. وحيذالوسجلت الفاظ التوراة والانجيل كما سجلت المفردات فى قواميس اللغة .. واما من حيث المحتوى و المضمون فهذا نموذج من محتويات التوراة والانجيل: زنى لوط بابنته ، وزنى داود بزوجة احدا اتباعه وقتله ، وعبد هارون العجل مع من عبد ، وشرب عيسى الخمر ، و قال فيه قول العاشق الولهان ، وسقاء فى الاعراس للشبان ؛ و تجلى الله فى صورة انسان ، وحملته من يم فى بطنه ، و اولدته كما تلد النساء .. وشكى من ظلم عبيده الذين شتموه وضربوه ، ثم صلبوه ودفنه فى التراب . الى غير ذلك من الاساطير والخرافات .. واطرف من كل طريف ان سفر التثنية من التوراة التى نزلت على موسى بالذات . - قالت مانصه بالحرف: «فمات موسى، ولم يعرف انسان قبره الى اليوم .. هل نزل هذا الخبر على موسى قبل موته او بعده ؟ ومن بلغه الى الكاتب الذى خط التوراة بيمينه .

وايضاً حدثتنا الانجيل عن صلب السيد المسيح ودفنه، ثم عن خروجه من القبر وصعوده الى السماء واختتام حياته على الارض ... فهل حديث الصلب والدفن الموجود في الانجيل ، هل هذا الحديث وحى من الله ، او هو خبر من بعض الناس ، فان كان وحيا من الله فعلى من انزله بعد المسيح ؟ وان كان من بعض الناس فكيف دون في الانجيل ، ونسب الى الله؟.

وبعد ، فان علماء الاسلام قد وضعوا العديد من الكتب في تحرير التوراة والانجيل ، منها كتاب الرحلة المدرسية ، و كتاب المهدى الى دين المصطفى للشيخ جواد البلاعى ، و كتاب محمد رسول الله في بشارات الانبياء لمحمد عبد الغفار ، و كتاب محمد رسول الله هكذا «بشرت الانجيل» لبشرى

زخارى مخائيل ، وكتاب البشارات والمقارنات للشيخ محمد الصادقى .

كتاب اظهار الحق :

ومن اراد ان يقنع أى انسان بتحريف التوراة والانجيل، او يفهمه بمعادلة شبه حسابية لان قبل الشك – فليقرأ كتاب اظهار الحق لرحمة الله الهندى ، فانه يتيم وعظيم فى هذا الموضوع ، يحتوى على مئة دليل حسى على التحريف والتزييف ... واصحابه عقل اشبى بالعقل الالكترونى فى حفظ الارقام والاحاطة بها و حفظها ، فهو يعرف كل ما فى اسفار التوراة والانجيل ومتى فقد كتاب موسى ، وكتاب عيسى ؟ وكيف اختفى من كل مكان ؟ وايضا يعرف اول من كتب هذه التوراة المتدالوة فى ايدى الناس ، ونسبها كذبا وافتراء الى كليم الله ، واول من كتب هذه الانجيل ، ونسبها الى روح الله ، ومتى كان ذلك ؟ وكيف قللت بالنقصان ، وطعمت بالزيادة مع مرور الزمن ، ثم يقارن بين النسخ اللاحقة والسابقة ، ويبين وجہ التهافت والتناقض بينهما بل يعرف زمان الطبع ومكانه ، وعدد اللغات التي ترجم اليها كل من الانجيل والتوراة .

وفوق ذلك احاط علماء بالكتب المؤلفة في تفسير الكتاين ؛ ونقل عن اقطاب المفسرين: الاعتراف الصريح بتحريف الكثيرون من آيات التوراة والانجيل ؛ وهو يذكر اسم المفسرين ورقم الآية المحرفة ورقم الصفحة من التفسير وسنة الطبع .. الى غير ذلك من التدقيق والتثبت .

ويقع هذا الكتاب المفعم المتخم بالعلم والارقام ، في جزأين ، ويقول المؤلف في المقدمة: ان الانكليز بعد ان استعمروا الهند حشدو ارجال الكنيسة للرد على الاسلام واهله، فوضعوا بهذه الغاية الكتب والرسائل ، ونشروها في

كل قطر.. فم دعا رئيـس الـكـنـائـس فـي الـهـنـد لـلـمـنـاظـرـة عـلـنـا ؛ فـاستـجـابـ الشـيـخـ رـحـمـةـ اللهـ ، وـانـقـدـ مـجـلـسـ الـمـنـاظـرـةـ فـي بلـدـةـ اـكـبـرـ آـبـادـ بـمـحـفـلـ عـامـ فـي شـهـرـ رـجـبـ سـنـةـ ١٢٧٠ـهـ ، وـتـقـرـأـنـ تـكـونـ الـمـنـاظـرـةـ فـي خـمـسـةـ مـوـضـعـاتـ : هـيـ تـحـرـيـفـ الـتـوـرـاـةـ وـالـأـنـجـيـلـ ، وـنـسـخـ الشـرـائـعـ ، وـعـقـيـدـةـ التـشـيـثـ ، وـحـقـيـقـةـ الـقـرـآنـ وـبـيـوـةـ مـحـمـدـ (صـ) وـلـمـ ظـهـرـتـ الـغـلـبـةـ لـلـمـؤـلـفـ فـي مـسـأـلـةـ التـحـرـيـفـ وـالـنـسـخـ اـحـجـمـ رـئـيـسـ الـكـنـائـسـ عـنـ الـمـنـاظـرـةـ ، وـسـدـبـاـبـهـاـ ، وـولـيـ هـارـبـاـ .

ثم الفرحة الله في الموضوعات الخمسة كتاب اظهار الحق ، وقال في آخره: ابتدأت به في ١٦ رجب سنة ١٢١٠هـ، وانتهيت منه في آخر ذى الحجة من السنة نفسها.. وقد طبع الكتاب سنة ١٣٠٥هـ ، وهو نادر الوجود الافي بعض المكاتب القديمة ، واتمنى لطبع ثانية طبعة حديثة على ان يجعل للموضوعات عناوين بارزة، ولكل مسألة فقرة خاصة مع جملة في رأس السطر بالحرف الاسود تشير اليها ، وايضا مع الفوائل ، ورؤس الاسطر .

الفتح - ٣

اشر نافيماسبق الى ان الذين آمنوا برسول الله على انواع ، وذكرنا
منهم نوعين : نوع آمن به لمبر دالثقة بصدقه ، وآخر لورودالبشرارة به فى
التوراةوالانجيل، واضطرنا حديث البشرارة الى الكلام عن التحرير واوجزنا
بقدر الامكان ، ونعود الان الى الموضوع ، ونذكر فى هذه الفقرة النوع الثالث
وهو ان الله سبحانه بعد ان فتح على نبيه الكريم ، ونصره على عتاة اليهود
والشركين ، وامتلاط قلوبهم منه ربما - دخل الناس فى دين الله قبائل
وافراداكماء فى سورة النص ، لأن كثيراً منهم كانوا ينتظرون فى اسلامهم

فتح مكة ، ولما فتحها الله على نبيه عظم امر الاسلام ، وانتشر في الجزيرة العربية كلها .

٤- ايمان العقل والوعي

ابن دايم محمد (ص) دعوته بقوله ايها الناس قولوا: لا اله الا الله تملحوا ..
هو الذي خلقكم من نفس واحدة .. ان اكر مكم عند الله اتفاكم .. ان الله بالناس
لرءوف رحيم .. ولكنك لا يحب الظالمين والمفسدين .. ويحب المتقين
والمحسنين .

هذه امثلة مما قاله محمد (ص) للناس عن ربهم .. وقال لهم عن
نفسه: انما انا بشر، مثلكم بواحى الى انما الهمكم واحد فاستقيموا اليه واستغفروه
ووriel للمشركين .. فمن يرجو لقاء ربها فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة
ربها احدا .. ما كان لبشر ان يؤتى بهم الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس
كونوا عباداً لي من دون الله .

هذا هو اصل الدعوة الالهية المحمدية : الامان بالله وحده الذي يحب
المتقين، ويذكره المعتمدين ، والامان برسوله ، وهو واحد من الناس وبشر
مثلكم كما نطقت الآية ١٢٨ من التوراة : «لقد جاءكم زرسول من انفسكم عزيز
عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم» . هذا هو اصل الدعوة
المحمدية، وعليه تتفق جميع مبادى الاسلام واحكامه .. و اذا لم يأت الانبياء
بهذا الدين فبأى شيء يأتون .. وهل ابسطوا ووضاح، وانقى واصفى من هذا .

وجاء في كتاب «لماذا اختارنا الدين الاسلامي»: ان «ليون روش »
الفرنسي قال في كتابه «ثلاثون عاما في الاسلام» : وجدت الاسلام افضل

دين عرفته .. انه انسانى يجمع المحامى والفضائل ولو انه وجدر جال يعلمونه الناس حق التعليم ، ويفسر ونه تمام التفسير لكان المسلمين اليوم ارقى العالمين ، واسبقهم فى كل الميادين ومعنى قوله هذا، ان الاسلام ترکن اليه النفس ، ويقر العقل ، وان الناس يجهلون حقيقته واهدافه . حتى المسلمين .. وانه لو اتيح لهم يبيّنه للناس على حقيقته ، ويبشر به كما يبشر بال المسيحية لظهور على الدين كله ، وآمن به اكثرا من فى الارض ، وعاشوا فى امن ورخاء.. ويؤيد هذا الفهم للإسلام قول الرسول الاعظم(ص) : «المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » وليس من شك ان كل انسان يود ان يكون قويا ، لاضعيفا ، لانه بالقوة يعمل ويبنى ، و بها يحيا وينمو .

وآمن كثيرون بمحمد(ص) فى عهده ، وخلصوا لدعوته ، آمنوا بها وبه عن عقل وعلم ، وقناعة ودراءة : لالمحاكاة والتقليد ، ولا مجرد الثقة بصدقه وامانته ، او لجاهه وسلطاته.. و من هؤلاء النجاشى ملك الحبشة ، و معه كثيرون من الرهبان والقسيسين ، وغيرهم من المسيحيين : وحدى شه مع جعفر بن ابي طالب مشهور ومدون فى كتب السيرة والتاريخ ،
اسلام على واسلام ابي بكر

و اول من آمن برسالة محمد(ص) عن هدى وبصيرة هو على بن ابي طالب(ع) . قال محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد ص ١٤٠ الطبعة التاسعة - مانصه بالحرف : « دعاء محمد(ص) ابن عمه عليا الى عبادة الله وحده لا شريك له ، والى دينه الذى بعث به نبيه .. فاستمehل على ابن عمه محمد حتى يشاور اباه ، ثم قضى ليه مضطربا حتى اذا اصبح اعلن لرسول الله و

خديةجة انه يتبع دين محمد من غير حاجة الى رأى ابى طالب ، وقال على :
لقد خلقنى الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتى انا الى مشاورته
لابعد الله ..

وبعد ان نطق هيكل بهذه الحقيقة اخذه عرق من قرينته ؛ وانسجم
مع بيته ، وقال : «وكذلك كان على اول صبي اسلم» .
ان عليا سبق ابا بكر الى الاسلام باتفاق الكل ، وبسبقه ابوبكر الى
الخلافة ، فقال من آمن بالله ورسوله : كيف تقدم ابوبكر على اول القوم
اسلاما واقدمهم بالله ايمانا ؟ والله يقول : «والسابقون السابقون ولئك المقربون
١١ - الواقعة ؟ وحارف الجواب من تنكر للحق واهله .. واخيرا اسعفته
الفرحة على اللف والدوران ، فتلا عب بالافاظ ، وقال : « اول من اسلم
من النساء خديجة ، ومن الصبيان على ، ومن الرجال ابوبكر » .

اجل ، ان ابا بكر كان رجالا حين اسلم ، ما في ذلك ريب ، و ايضا
كان رجالا كبيرا ، وهو يعبد الاصنام .. و لكنه لم يكن ذا عقل نيرينهاه و
يردعه عن عبادة الاحجار كعقل ورقة بن نوفل ، و عثمان بن الحويرث ،
وزيد بن عمرو ، وغيرهم من الحنفاء الذين تمردوا على عصرهم الجاهلي ، و
ادركتوا بفطرنهم الصافية ان عبادة الاصنام جهالة وضلاله ... ان اسلام ابى بكر
لم يكن عن عقل ووعي ، بل لمجرد صداقته مع رسول الله ، ونفته بصدقه ،
كما قال هيكل في نفس الصفحة من الكتاب السالف الذكر ؛ و هذى هي
عبارة بالحرف : « وكان ابوبكر بن ابى قحافة التيمى صديقا حميمالمحمد
يستريح اليه ، ويعرف فيه النزاهة والصدق .. ولم يتردد ابوبكر في اجابة

اما ايمان على فهو ايمان العقل والعلم الذى اعلنه بقوله: « لقد خلقنى الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتى ان االى مشاورته لا عبد الله ؟ » و ليست هذه وحدة اهانه هفوات هيكل، فقد ذكر في الطبعة الاولى حدیث « ان النبي (ص) عند مازلت هذه الاية « وانذر عشيرتك الاقربين » جمع بنى عبد المطلب ، وقال لهم : قد امرتني الله ان ادعوكم اليه ؛ فايكم يؤازرني على هذا الامر على ان يكون اخى ووصى و الخليفتى فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا » ذكر هيكل هذافي الطبعة الاولى « ثم حذفه في الثانية ، لانه قبض خمس مائة جنيه ثم نالهذا التحرير .. والى ذلك على ذمة ناقل الرسالة .

الاسلام والقائلون بالحق

اسلم الذين يستمعون القول فيتبعون احسنها ، وآمنوا بدعوة محمد (ص) في عهده ، وفي كل زمان ومكان ، وتبنا كثيرون من قادة الفكر في هذا العصر بان الاسلام هو دين المستقبل مهم اطال الامد ، و علما بذلك بان العالم يتوجه الى العلم واستغلاله لخير الانسان و صالحه ، والاسلام هو الدين الذي يوجه العلم لهذه الغاية .

قال تلستوى الفيلسوف الروسي الشهير : « ان الشريعة الاسلامية ستعتمد البساطة كلها ، لا تهانأ تألف مع العقل والحكمة والعدل » .

وقال الكاتب الفرنسي « هنرى » في كتاب الاسلام : ان السبب الوحيد لانشار الاسلام بسرعة تشبه خرق العادة هو بساطة هذا الدين ، وسهولة

تعاليمه ، وخلوه من الخرافات ، ومن كل ما يصعب على العقل قبوله .
وقال الفيلسوف الشهير واديم القرن العشرين برنادشو الانكليزي :
« ان الاسلام دين المستقبل ، ولا بد ان تعتنق الامبراطورية الانكليزية
النظم الاسلامية .. ولو بعث محمد في هذا العصر لحل المشكلات العالمية ،
وقاد العالم الى السعادة والسلام ، فما احوج العالم الى رجل كمحمد» (كتاب
لماذا اخترنا الدين الاسلامي) .

وهذا العظيم يمثل اسمي ما وصلت اليه الثقافة في هذا العصر ، وقد
نطق بهذه الحقيقة ، وهو يعنيها ويفوّدها ؛ لأنها نتيجة حتمية لدراسة
طويلة وعميقة ، وثمرة يانعة لتفكير صاف وسليم .. لقد تطلع هذا الفيلسوف
إلى الوقت الذي يصبح فيه كل الناس مسلمين ، لأنهم يتطلعون بفطرتهم إلى
الامن والرخاء ، والعدل والمساواة ، ولا تتحقق هذه الامنية للناس كافة إلا
إذا آمنوا بالعدالة والأخوة الإنسانية ، ودخلوا في السلم كافة على هذا الأساس
وهذا هي دعوة محمد ولأجلها بعث .

لقد ادرك برنادشو الكثير من خصائص محمد(ص) التي استحق
بها ان يختاره الله لرسالته ، وأيضاً ادرك ان العصر الذي نعيش فيه تماماً كعصر
الجاهلية الجحلياء فساداً ونحرأً ، وان اختلف الشكل والمظهر ، وان قد
محمد الناس من جاهليتهم الاولى ، فينقذهم من قوافر فيه خصائصه من
الثانية .. واداً لم يكن محمد (ص) في هذا العصر بشخصه فانه موجود بستنته
وشرعيته ، وقد آمن بها كثير من العلماء وقادة الفكر المنصفون بعد الدراسة
والتحقيق ، وفيما يلى نذكر امثلة من هؤلاء الذين يعدون بالعشرات .

من الذين آمنوا :

اكتب هذه الفقرة ، ولدى من مصادرها كتاب التكامل لاحمد أمين العراقي ، وكتاب مايقال عن الاسلام للعقاد ، وثالث كتاب محمد والقرآن لكتاظم آل نوح ، ورابع كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي للرضوى ، وفي هذه الكتب الاربعة عدغير قليل من الذين آمنوا بان رسالة محمد (ص) الهاية ، لابشريه ، وكلهم من اهل المعرفة وحملة الشهادات العالية ، وفهم الانكليزي والفرنسي والالماني والامريكي والدنمركي والايطالى والهولندي والبلغارى .

قال اللورد «هيدلى» البريطاني : اعتنقت الاسلام نتيجة لبحث سنوات عديدة .. ان الاوربيين ينظرون الى الاسلام كانه وحشية و همجية مع ان كل اعمال محمد كانت لازالة التوحش والهمجية ، ولكن المبشرين المسيحيين لا يدخرن وسعا لتحریف الاسلام ، و هذاهو الكذب الذى يخزفهم .

وقال الدكتور «بنوه» الفرنسى : تصفحت القرآن لانتقده ، فاذا بي اؤمن به واقده .

وقال «دولاند» الامريكي : اسلمت بعد ان قرأت القرآن و شيئا من سيرة محمد (ص) فرأيت أن الجانب الانساني يتجلى في كل وصية من وصايا الاسلام .

وقال الدكتور «ماركوس» الالماني بعد ان اسلم : عقيدة التوحيد قدسية ، وتعاليمها منزهة عن الخرافات ، وتهدف الى تأسيس حرية جماعية

عامة . (انظر صور هؤلاء الاقطاب الاربعة في كتاب *لماذا اخترنا الدين الا-سلامي للسيد الرضوی*) .

وجاء في كتاب *«ما يقال عن الاسلام»* للعقاد بعنوان *الاسلام والنظام الاجتماعية* : يحمد صنيع الكاتب الفاضل الاستاذ : « ليوجولد فايس » النمساوي .. لقد دان بالاسلام منذ خمس و ثلاثين سنة ، و تسمى باسـم *«محمد داسد»* ، و دافع عن الاسلام ، و دأب منذ اسلامه على تصحيح اخطاء الاوربيين .. و الف في الموضوعات الاسلامية كتاب الاسلام على مفترق الطرق ، و كتاب اصول الفقه الاسلامي ، و كتاب الطريق الى مكة ، و كتاب مبادى الدولة والحكومة في الاسلام .

وبهذه المناسبة نشير الى ان الكتب التي الفها غير المسلمين في عظمة الاسلام - كثيرة ، منها كتاب الاسلام والنصر الحديث للدكتورة الالمانية *«الس ليختستادتر و كتاب الاسلام والجماعة المتحدة»* ، للاستاذ هو تنجومورى عميد قسم الدراسات العربية بجامعة دنبرة (انظر ما يقال عن الاسلام للعقاد) و كتاب حياة محمد لوليم ميود ، ايضا كتاب حياة محمد لثبورت اسمىت (انظر كتاب لما ذا اخترنا الدين الاسلامي للرضوی) . و كتاب اقوال محمد لتنلى ليس بول ، و كتاب اشعة خاصة بنور الاسلام (انظر كتاب محمد والقرآن لكانطيم آل فوح) .

محمد خاتم النببيين

وتساؤل : قال سبحانه في الآية ٤٠ من الاحزاب : «ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النببيين » . وقد فهم منها ان محمد ابا

ولكن لماذا خاتم النبىين؟ .

الجواب : ان الغاية منبعثة الانبياءهى ان يبلغ النبى قول الله الى عباده فيما يحتاجون اليه من امر دينهم ودنياهم ، واي مبدأ من المبادى التى يحتاج اليها الانسان فى هذا العصر وغيره - غير موجود فى كتاب الله وسنة نبى ، وهل من شىء اصدق فى الدلالة على ان الاسلام هو دين الحياة فى شتى مراحلها من اسلام عن بصيرة فى هذا العصر؟ .

قال سبحانه : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء عـ ٣٨ الانعام » . و قال الرسول الاعظم (ص) : مامن شىء يقربكم الى الله الا وامرتم به؛ وما من شىء يبعدكم عن الله الا ونهىتم به عنه .

وقال ايضا : ان مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فاحسنه الاموضع لبنيه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة؟ فانا للبنية ، وانا خاتم النبىين .

وقلنا فى ما ألقنا : ان محمدا ودين محمد قداسته فيها جميع صفات الكمال ، وبلغوا الغاية منها و النهاية ؛ تماما كما بلغت الشمس الحد الاعلى من النور ؛ فلا كوكب ولا كهرباء يمتلى عالكون بنورهما بعد كوكب الشمس .. كذلك لا نبى يأتي بجديد لخير الانسانية بعد محمد .

العصمة نوعان :

معنى العصمة : التنزيل من الخطأ و الخطيئة وهي نوعان : الاول العصمة فى تبليغ الوحي عن الله سبحانه ، اى ان المعصوم لا يخطئ فيه لا جهلا ولا نسيانا ، ولا يعتمد الكذب اطلاقا ، و هذه العصمة تجب حتما لمن

اصطفاء الله لابلاع رالته والاستحال ثبوت الوحي بحال من الاحوال حيث
لاوسيلة لابتهاه العاصمة المبلغ .

وتساؤل : هل هذا النوع من العاصمة يكون بالقدرة والاختيار ، او
بالجبر والقسر ؟
الجواب :

اما نحن فلا نرى مانعا من العقل ان تكون العاصمة في التبليغ بالقسر
لابالاختيار ، ودليلنا على ذلك :
اولا : انها في تبليغ الاحكام عن الله ، لافي امثالها .
ثانيا : ان النبي في هذه الحال هو لسان الله وبيانه . ولسانه تعالى
يستحيل عليه الخطأ .

ثالثا : ان ظاهر القرآن يدل على ذلك ، قال تعالى في سورة الاعلى
مخاطبا نبيه الكريم : « سنقرئك فلا تنسى » و « لا » هنا للنفي و الاخبار ،
لاللنبي والانشاء ، لأن المعنى نحن نقرئك القرآن يا محمد ، و نحفظه
في قلبك وعلى لسانك بكامله بحيث لا تنسى منه حرفا واحدا ؛ و الى
هذا يوميء قوله تعالى : « ان علينا جمعه وقرآنها ١٧ - القيمة » و قوله :
« نحن نزلنا الذكر واناله لحافظون - الحجر »

النوع الثاني : العاصمة في امثال الاحكام بحيث يفعل المقصوم
الواجب مع قدرته على تركه ، ولا يفعل المحرم مع قدرته على فعله ...
ابدا لا يفعل هذا ، ولا يترك ذلك ، لاعمد او لاجهلا ولا سهوا . وهذه العاصمة
ممكنة ، بل هي ثابتة لاهلها ، ما في ذلك ريب .

أين هو المقصوم:

وتسأل: قد يوجد انسان يعرف حدود الله وحاله وحرامه ، ويلزم بها نفسه، ولا يعتمد المعصية في قول او فعل، ولا يقصر في فريضة بل ولا في سنة .. ولكن هل يوجد انسان واحد يستحيل في حقه الخطأ بما هو انسان بحيث لا يخفى عليه مكر ولا خديعة ، ولا يجوز عليه سهو ولا سيان .. كيف وهو ابن الارض والطبيعة .. حتى سيد الانبياء (ص) قال: « انما انا بشر مثلكم » وحي الى - ع فصلت « ونحن نؤمن بعصمته في التبليغ، اما في غيره فهو كما وصف نفسه، وان قال قائل : ان العصمة بالطبيعة او بالقسر قلناله : اذن لا فضل بها ولا اجر عليها ..

الجواب:

ان الانسان بما هو انسان ليس بمعصوم، وايضا لا تأتي العصمة بالكسب والعمل، كما هي شأن العدالة ، ومن هنا .. فقط سبحانه التكليف عن الجاهل والناسي مع التحفظ وعدم التقصير .. وايضا لا تكون العصمة في امتنال الحال والحرام بالجبر والاجراء، حيث لاطاعة ولا امتنال الام مع القدرة والارادة ، ولكن ليس معنى هذا انه لا وسيلة عند الله سبحانه الى العصمة في الامتنال الا الجبر والاكراه .. كلا هنا كثطريق آخر اليها عنده تعالى ، وقد اشار اليه بقوله: وان الفضل يناد الله يؤتى به من يشاء والله ذو الفضل العظيم - ٢٩ الحديده .. واليكم البيان :

وبقصد التوضيح نمهد بهذا المثال : لك صديق وحبيب تحرص كثيراً على مصلحته حتى كأن شيئاً لا ياصابه قد اصابك بالذات .. ورأيته يهم بامر ظنه خير الله وصلاحا ، وانت تعلم علم اليقين أنه شر وفساد ، وهو ينفي علمك و

نصدقك، فتطلعه على الحقيقة ، وهو بدوره يحجم ويمتنع بارادته و اختياره بمجرد الاشارة منك ، فيكون لك «هذا هي الحال، فضيلة الاخلاص والنصيحة ولها ايضا فضيلة الاستماع اليها، والعمل بها .

والله سبحانه امر عباده ونهاهم ، ووعدا الطائع منهم بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب، ثم ترك كل امرٍ وما يختاره لنفسه، ولا يتدخل في شؤونه عند الطاعة والمعصية، ولكنك يعذر المخطيء اذا هو احتاط ولم يقصر .. هذاأشأنه، جلت حكمته، مع جميع عباده الامم المعصوم فانه يشمله بعنائه ويمده بارادة التسديد لالتكونين ، فاذا اوشك ان ينسى او ينخدع نبهه سبحانه بطريق او آخر، وكشف له عن الواقع، فينبئه المعصوم ويمتنع مختاراً لا ملجاً .

وقد حدث هذا مع الانبياء اكثرا من مرة ، من ذلك ما جاء في السبب الموجب لنزول هذه الآية : ومن يركب اثما ويرم به بريئا فقد احتمل بهانا وائما مبينا ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهم طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الانفسهم - ١٢ النساء قال المفسرون : ان رجلا من المسلمين سرق متابعا ، ورمى به بريئا ، فناصرت السارق طائفة من الصحابة ، وحاولوا جاهدين ان يخدعوا رسول الله (ص) في براعة السارق ، وكاد الرسول ان ينخدع ويشق بما اظهره من الصلاح ، وبما اقسموا من اليمان فاطلعه الله على كذبهم ومحركهم . فعامل الرسول الاعظم (ص) كلاما يستحق . وهكذا سبحانه يسد المعصوم، ويمده بارادة لاهي بالتكوين فينتفي الفضل والاجر، ولا بالتشريع فيستوي المعصوم وغير المعصوم، بل بين .. ونحن

على هذا الفهم والرأى حتى يثبت العكس ، وبهذه الارادة أى ارادة التسديد
للتكتوين أو التشريع - نفس ارادته تعالى في آية التطهير: انما يرمي الله
ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويظهر لكم تطهيرًا ٣٣ - الاحزاب) .
لقد اراد سبحانه للنبي وآله التطهير والتغزير عن الخطأ والخطيئة ،
اراد ذلك بالنص الصريح في هذه الآية التي لاقنبل التأويل بوجه .. ولكن
من أى نوع هي الارادة الالهية؟ هل هي من نوع التشريع ، واذن فلامبر
للتخصيص باهل البيت (ع) ، او من التكتوين ، واذن فلا فضيلة لهم ماداموا .
ولاتتصورنوعاً ثالثاً لارادته تعالى الارادة التسديد والتأديب ، واليها اشار
النبي (ص) بقوله: «ادبني ربى فاحسن تأديبى» ولنidan نفس هذا التأديب الرباني
بقول امير المؤمنين (ع) : «لقد فرقن الله نبيه محمدا (ص) من لدن ان كان
فطيمما اعظم ملك من مارئكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن اخلاق العالم
ليلهونهاره . ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه ، يرفع لى في كل يوم من
اخلاقه علماء يأمرني بالاقتداء به» .

وبعد، فهل من دليل على الارادة الثالثة أصرح واقوى من هذا الدليل

*

الشيعة والعصمة

والشيعة اول من ادرك أن العصمة يحتمها وجوب العمل بالوحى ،
وقد رواها باساليب شتى . واستدلوا عليها بمنطق المقل وبداهته . وعنهما اخذ
السنة فكره العصمة كما قال الدكتور احمد شلبى - من السنة - استاذ التاريخ
الاسلامى والحضارة الاسلامية بجامعة القاهرة ، فقد جاء في الجزء الثالث
من كتابه مقارنة الاديان طبعة ١٩٦٧ - مانصه بالحرف «الشيعة يثبتون عصمة

الأنبياء والائمه ايضاً، ويرون ان الرسول لم يكن معصوماً من الزلل لقلت
الثقة به، ولانفت فائدة البعنة.. والعجب ان قول الشيعة بعصمة الأنبياء تسرّب
إلى أهل السنة؛ وأصبح رأى جمهور المسلمين».

ومع هذا يقول صاحب الخطوط العريضة بكل جهل وصلاحفة : ان
الشيعة ينفون العصمة عن الأنبياء وبناء على افتراضه هذا حمل عليهم باضاليله و
اباطيله، وتتجاهل قول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : «من العسير
إقامة الدليل العقلى ، او اصابة دليل شرعى يقطع بمنذهب اليه الجمهوّر»
اي من وجوب العصمة للأنبياء .

وبعد ، فان النبي بشر بطبعه وطابعه ، وقد غالي وتجاوز الحد من
قال : «ان محمدا (ص) هو الحقيقة التي خلق الله منها الوجود ، والروح التي
سرت في جميع الكائنات علوها وسفلتها ، كلام لا فرق بين محمد سيد الان-
بياء ، وغيره من البشر الا في الجهات التالية :

١ - انه قادر على اعلى مراتب الانسانية كاما ، بحيث لو تجاوزها
قيد شعره لكان ألهاماً ونصفاً له .
٢ - يوحى اليه .

٣ - ان الله قد لطف به كمالطف بجميع الأنبياء ، فقر لهم من كل
فضيلة ، وابعدهم عن كل ذلة ، لطف بهم ، لافى بيان الاحكام فقط ، بل
في اقوالهم وافعالهم ، ومن اجل هذا كان قول النبي وفعله وتصريحه دليلاً
على الحق .

ومن المفيد ان نختتم هذا الفصل بما قلناه في المجلد الاول من تفسير الكاشف ص ١٩٨ : ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة وحدهم ؛ فان السنة قالوا بآبها ، ولكنهم جعلوها ايضا للإمام ، لالائمة ، مستندين إلى حديث لم يثبت عند الشيعة ، وهو: « لا يجتمع امتي على ضلاله » .. و المسيحيون قالوا بعصمة البابا ، والشيوعيون بعصمة ماركس ولينين ، وقال القوميون السوريون بعصمة أنطون سعادة ، والاخوان المسلمين بعصمة حسن البنا ، و كثير من البعثيين بعصمة عفلق ، وكل من استدل بقول انسان ، واتخذ منه حجة ودليل على الحق فقد قال بعصمه شعر بذلك الم يشعر .

وفي الصين مئات الملايين اليوم تؤمن بعصمة ماوتسي تنسخ ، وإذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم ، وكذلك غيرهم من ذكر نافائهم يختلفون في تفسير أقوال الرؤساء والقادة ، لافي وجوب العمل بها ، تماما كما يختلف المسلمون في تفسير نصوص القرآن ، وال المسيحيون في تفسير الانجيل .

فَلَسْفِيرِ الْقِرْبَةِ
كَسْتِيَّةِ الْأَنْتِيَّةِ

اصول ائدین

«ما يجب بلا شرط، وما يجب مع الشرط»

هذا الفصل:

هذا الفصل هام جداً ، وعليه ترتكز مباحث هذا الكتاب ، وكان من حقه أن يكون الأول في الترتيب ، ووضعناه هنا عن قصد ، لافه بمباحث الولاية اليق والصدق ، وعلى أي حال ، فالمعنى الأول من البحث أمران: الأول: بيان ما يجب على المسلم أن يتلزم به كاصل وركن من أصول الدين والعقيدة بحيث يكون مسؤولاً عنه أمام الله ، ولا يغدر فيه ان قصر وأهمل .

الثاني : تحديد الطريق الى معرفة هذا الاصل ، وما يتفرع على ذلك من صحة التقليد ؛ وحكم العاجز عن المعرفة والغافل .
بساطة العقيدة ووضوحها :

وعقيدة الاسلام فى منتهى الوضوح والبساطة ، لانه دين الفطرة
التي لا تشوبه اشائبة من دنس البيئة والتربيه ، فاصل الاصول فيه هو التوحيد ،
وأى عاقل يأبى الايمان بالله لاشريك له ولا نظير ؛ وانه الحليم الكريم ،
والغفور الرحيم ، والقادر العليم ؟ .

اما الايمان بمحمد (ص) فهو ايمان بالدليل الصادق الناطق بحال اللہ
وحرامه .. ومن اجل هذه البساطة ، وهذا الوضوح اسلم من طلب الحق
لوجه الحق في هذا العصر ، واشنر ناالي بعضهم في فصل محمد والقرآن ،
وايضا شهد كثيرون من قادة الفكر الاجانب بان الاسلام هو دين الحياة في كل
زمان ومكان ، ونقلنا طرفا من اقوالهم في الفصل المذكور .

أصول الدين على نوعين:

يعتبر لشيخ الانصارى بالسبق والاستدلة في الغوص وبعد النظر .
كل من تأثر به من اهل الفضل والاجتهاد ، وعلى كتابيه في الفقه و
أصوله مدار الدرس والمذاكرات .. عليه الرحمة والرضوان .. وان كان لا
يرحم طالبا ولاستاذا في تعبيره واسلوبه .

فقد انجب عشرات الالاف ، واجهد عقولهم ، واسهر عيونهم حتى
الصبح في تفسير معانى الكلمات وطلاسمها .. ومرة ثانية عليه رحمة اللہ
ورضوانه .

قال هذا الشيخ العظيم في كتابه المعروف بالرسائل ما توضيحة :
ان اصول الدين على نوعين :

الاول: ما يجب البحث والنظر مقدمة لمعرفته ، وتمهيد التدين و
الالتزام به ، ويسمى هذا النوع في عرف الفقهاء والاصوليين بالواجب
المطلق ؛ اي ان العلم به شرط لوجوده ، لا وجوبه تماما كالطهارة بالنسبة
إلى الصلاة - مثلا - من تنبه إلى الخالق وشك في وجوده فعليه أن ينظر
ويبحث ، ولا يجوز له أن يهمل ويقول : إن علمت بطريق أو آخر أن اللہ

موجود آمیت و اذنعت ، والافماعلی هن سبیل ! .. بل علیهان یسعی ، ولا
پدخر شیامن جهده و طاقته .

النوع الثاني : لا يجب تحصيل العلم بمعنى انه في الواقع من اصول الدين ، ولكن لا يجب التدرين به ، ولا تتم به الحجۃ الابعد الا طلائع عليه ، اى ان العلم به شرط لوجوبه ، لا لوجوده فقط ، فمتى علم به المكلف باى طريق من الطرق وجوب عليه ان يتلزم ويندعن ، و الا فلا يجب السعى وبذل الجهد لتحصيل العلم تماما كالاستطاعة بالنسبة الى الحج ؛ و يسمى هذا النوع بالواجب المشروع .

وزاد الاشتياقى تلميذ الشیخ الانصاری قسمًا ثالثاً حاشیته الکبری
على رسائل استاذه، وقال ما نصه بالحرف : «ان هنا قسمًا ثالثاً يجب التدبر
به ولو بعد العلم بشیوته عن النبی (ص) و اخباره به على سبيل الجزم والیقین ،
وان كان انکاره بعد العلم بشیوته عن النبی (ص) موجباً للکفر من حيث
رجوعه الى انکار النبوة و تکذیب النبی (ص) فان تکذیبه ولو في الاخبار
العادية موجب للکفر قطعاً ، وهو ما يرجع الى امور واقعية لا تتعلق لها بالدين
مثل بيان مبدأ خلق السماء والارض - الى ان قال - لا يقال : لامعنى لهذا
ال التقسيم لأن كل ما يبينه النبی (ص) يمكن من الدين لامحالة ، والالم يبينه ...
لان انقول : هذا غلط واضح ، وخلط ظاهر ، فان الرسول (ص) قد يخبر عن
الشيء عمن حيث كونه شارعاً او مبلغاً عن الله تعالى وما موراً بتبليغه الى العباد ،
وقد يخبر عن الشيء علام من هذه الحقيقة ، بل من حيث كونه عالماً بالغيب
باقاضة الله سبحانه ، ومن المعلوم ان هذا لا يرجع الى الاخبار عن الامر الديني » ..

وقد تنبه الشيخ الانصارى لهذا النوع؛ و اشار اليه بقوله: «نعم ظهر فى الشريعة امور، صارت ضرورية الثبوت من النبي(ص)، فیعتبر فى الاسلام عدم انكارها». تنبه الانصارى الى هذا النوع، ولكن لا يعتبره قسما من الاصول الالهية التي يجب التدين ببعضها من غير شرط، وبالبعض الاخر مع الشرط، وغاية الامر يحرم انكاره؛ وبديهية ان حرمة الانكار اعم من وجوب التدين، وجواز الوقوف على الحياد بلا انكار ولا اقرار.

وعلى اية حال، سنتحدث فيما يلى عن كل واحد من هذه الانواع الثلاثة في فقرة على حدة.

٩ - ما يجب التدين به من غير شرط:

الاصول الاولى التي يبني عليها الاسلام، وعنهما تترفع سائر الاصول، وكل الفروع، و يجب مطلقاً بلا شرط العلم بها هي التوحيد، ونبوة محمد (ص) والمعاد روحًا و جسماً.

اما الامامة: فقال الخوارج: ما هي من اصول الدين ولا من فروعه في شيء على ما نسب اليهم - وقال السنة: هي من الفروع، لامن الاصول، وان وجوبها كفاية لاعينا، اذا قام بها البعض سقط وجوها عن الكل.. ولا ادرى كيف يجتمع قول السنة هذا مع قول من قال منهم بـكفر الشيعة لانهم ينكرون خلافة الشیخین. (١) وهل انكار الفرع يستدعي الكفر حتى ولو كان من ضرورات المذهب، لامن ضرورات الدين؟.

و اتفق الشيعة على ان الامامة اصل، واختلفوا فيما بينهم : هل هي

(١) انظر: آخر الصوات عق المحرقة لابن حجر.

من اصول الدين، او من اصول المذهب وضروراته ، وان الاعمال تصح بدونها ،
ويسقط التكليف عن منكرها اذا قام بمعامله من عبادات ، ولكنها لا يستحق
الثواب من اجلها – كمعامله جماعة . ونحن نعتقد بانه لا يسوغ لغير المعصوم
ان يتحدث عن ثواب الآخرة وعذابها الامع النص القاطع سند او متننا . اللهم
الارجاء الترغيب والترهيب .. وعلى اية حال ، فان لحديث الامامة والولاية
العديدة من الشعب ، و يأتي الكلام عن الكثير منها .

وبعد ان ذكر الشيخ الانصارى بعض الروايات ، عن اهل البيت (ع)
كدليل على ان الاصول الاولى للإسلام هي التوحيد والنبوة والامامة – قال :
« تدل هذه الروايات على عدم اعتبار مازاد .. وهذا هو الظاهر من جماعة من
علمائنا الاخيار » وعلق الاشتياقى على ذلك بقوله : « لا اشكال في عدم اعتبار
الراي دعما ذكره في الایمان » .

وتسأل : لقذفتي في الحديث : من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل
الجنة . وأذن ، فمن أين جاءت الزيادة على الأقراب بالشهادتين ؟
الجواب : او لا لقد كان هذا عند بدء الإسلام وظهوره ، قال الإمام الباقر (ع)
بعث الله محمداً (ص) وهو بمكة عشر سنين ، ولا أحد في هذه المدة يشهد
ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله الا دخله الله الجنة .

(ملحوظة) اقام النبي بمكة ١٣ سنة بعد البعثة ، ولعلم من اراد الامام (ع) انه
في السنوات الثلاث الاخيرة كان لا يطلب من المسلم اكثير من الاقرار بالشهادتين
او ان الناقل سهى عن كلمة ثلاثة .

ثانياً : ان المراد بدخول الجنة ان من اقر بالشهادتين لا يخلو في النار ،

بل يعذب بقدر ما يستحق – ان كان قد اذنب – ثم يدخل الجنة .

ثالثاً: ان الاقرار بالشهادتين يتضمن الاقرار بكل ماجاء به محمد(ص)

ولو على سبيل الاجمال .

رابعاً: لاقائل من المسلمين بان مجرد الاقرار كاف في الاسلام حتى

مع انكار البعث .

٢ - ما يجب التدرين به على شرط :

لكل اصل من الاصول الاولى شعب تتفرع عليه، فمن الشعب او المسائل التي فرعها العلماء، على اصل التوحيد رؤية الله تعالى ، وهل : هي ممكنة بذاتها او ممتنعة ومسألة صفاتة تعالى ، وهل: هي عين ذاته او غيرها . وهل : افعال العباد مخلوقة لله . وهل: اللوح المحفوظ هو لوح كاسمها ، او هو كنایة عن علمه تعالى . وهل: الله ان يغفو عن المسيئ بعده التهديد والوعيد وهل القرآن حادث او قديم؟ . وهل نزل الوحي نجوماً او دفعة واحدة؟ .. الخ .

وفروع على نبوة محمد(ص) انه هل: كان يعلم الغيب؟ وهل : فوض الله اليه امر التشريع؟ . وهل: اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بالجسد، او بالروح؟ .. الخ .

وفروع على الامامة هل : الائمة المعصومون افضل ، او انباء ماعداً مهماً . وهل كانت الملائكة تحدثهم . وهل فاطمة افضل ، ام مريم بنت عمران ! .. الخ .

وفروع على المعاد اشياء وأشياء ، كالبرزخ ، وحساب القبر ، وحشر الحيوانات ، وكيفية النفح في الصور ، ودقة الصراط وحدته ، وكيفية نشر الصحف

و شجرة طوبى والزقوم ، و تعذيب ابن الزنا و اطفال الكفار...الخ .
كل هذه الشعب و نحوها لا يجب تحصيل العلم من اجل الایمان بها ،
وان كانت من اصول الدين او شؤونها؛ بل اذا اتفق و حصل العلم بها وجب الازعاف
والافلا ، على العكس من الاصول الاولى التي يجب تحصيل العلم للتدين بها
و الایمان .

والخلاصة ان الاعتقاد بالتوحيد، ونبوة محمد(ص) والمعاد الجسماني
وامامة الائمة الاثنى عشر - على قول الشيعة - يجب مطلقاً ومن غير قيد ،
والعلم شرط لوجود هذا الاعتقاد، لا لوجوبه ، و ماعدا ذلك فالعلم لوجوبه
لالوجوده ، وعلى من جهل ان يحتجم عن القول بغير علم نفيا و اثباتا ، قال الامام
الصادق (ع) «لواطن العباد اذا جهلو و افقووا ولم يجحدوا لم يكفروا» .

وتسأل : ان الاعتقاد من صفات القلب، لا ارادة فيه للانسان ، ولا خيار ،
وعليه يكون التكليف به تكليفاً بما لا يطاق ، فكيف تعلق الامر به .

الجواب : اجل؛ ان الاعتقاد و الایمان من حيث هو فوق القدرة
والاستطاعة ؛ سواء تعلق بوجود الله ، او بغيره ، ولكن الانسان يستطيعه
ويقدر عليه من حيث مقدماته و ايجاد اسبابه ، و ايضاً يقدر عليه من حيث
اظهاره و آثاره ، و الایمان مطلوب بهذهدين الاعتبادين ، فمعنى آمنوا بالله
ورسوله اطیعوا الله و رسوله ؛ ومعنى لا تكفروا لا ترتبوا آثار الكفر في قول
او فعل ، ومن كان في شك فليبحث وينظر الى حجج الله و بيناته التي تؤدي
بطبعها الى الایمان و الاعتقاد .

سؤال ثان اوحى به الجواب عن السؤال السابق ، و هو: لقد علمنا ان

للامان بالله ورسوله واليوم الاخر - اعظم الاخر ، حيث يبعثنا على التقوى والعمل الصالح ، اما الامان بان الله لا يرى بالبصر ، وان القرآن حادث ؛ وان لنا اماماً مستوراً ، اما هذا الامان ونحوه فلما ثر له يحس ويлемس .. ان المهم هو طاعة الله ، لاجواز رؤيته ، او عدم جوازها؛ واما المهم العمل بالقرآن ، لا الامان بحدوده ، او قدره ، والانتفاع بالامام ، لامجرد الاعتقاد بوجوده ؟ .

الجواب : ان الحق احق ان يقال ، والاعتراف به فضيلة للمعترف وتعظيم وتقدير للحق واهله ، وانكاره قبيح في نظر العقلاء واي اثر اظهر من ذلك واوضح ؟ ..

ان قول الحق حسن بذاته ، حتى ولو لم ينتفع به القائل والمعترف ، والاجازان تتجاهل الانبياء والعظماء الاموات منهم والاحياء الاميين المنفعة ، وان نترك الشهادة بالحق الا اذا جرت علينا نفعا ، او دفعت عنا ضرا ، مع ان العكس هو الصحيح .. ولو اخذنا بمبدأ المنفعة بالشهادة لانسد باب القضاء وعمت الفوضى ، وضاعت الحقوق على اهلها .. ودفعاً لهذه المفاسد و غيرها يجب علينا ان نقر بالحق ، ونعمله اينما كان و يكون ، ولا يجوز جحوده و انكاره بحال ، ومن ذلك الاعتراف : بان الله لا يرى ، و بحدود القرآن ، ووجود الامام المستور .. على ان الامان بوجود هذا الامام ليس باعجج واغرب من الامان بنبوة نوح وهو دو صالح ؛ وغيرهم من الانبياء الذين عفى الدهر على آثارهم ، واكل وشرب ، ويائني الحديث عن ذلك انشاء الله .

وبعد ؛ فان للحق بما هو حق قدسيته وجلاله ، ومن تنكر له في اى مورد من موارده صغراً كا انه من نفسه ؛ واجترأ عليه اينما كان ويكون ، وفي ذلك ضلال وفساد عظيم .

٣- ما يحرم انكاره فقط :

هذا النوع لاصلة له باصول الدين ولا بفروعه ، ولا هو من الاخلاق ، او الامر بالمعروف ، ولا يسأل عنه الانسان غدا ، ويحاسب على الجهل به ، لانه مجرد اخبار عن موضوع خارجي ، كالاخبار عن عمر الارض واصلها ، وطولها وعرضها ، وما فوقيها وما تحتها ، وعدد من عاش عليهما من قبل ومن بعد ، واذا لم يكن هذا النوع من الدين في شيء فكيف يجب التدين به ؟ ، اجل ، اذا الخبر المعصوم عنه حرم المرد عليه واعتراض ، لانه تكذيب له ، وليس من شك ان تكذيب اهل العصمة كفر والحاد .

طريق المعرفة الى اصول الدين :

قال الرسول الاعظم (ص) : « اصل ديني العقل » وقال الامام الصادق (ع) : من كان عاقلاً كان له دين ، وقال كبير من علماء الامامية ، وهو المحقق القمي : العقل حجة الله على عباده .. ولا نعرف ديناً اشاد بالعقل والعلم كما اشاد بهما الاسلام ، فلقد تتبع بعض العلماء آئي الذكر الحكيم ، فوجد فيها لكلمة العقل ومشتقاتها ومرادفاتها ٨٠ كلمة ، وكلمة العلم كذلك ٨٨٠ ... وليس معنى هذا ان العقل يدرك ويستقل بمعرفة الاسلام عقيدة وشريعة ، ولا يفوته شيء من اصوله وفروعه ، والا كان وجود الاسلام تحصيلاً للحاصل ، وتوبيخاً للواضح ، بل معناه ان الاسلام والعقل على وفاق تام في جميـع

مبادئه وكلياته وجزئياته ، ولا يذكر لشيء منها على الاطلاق .
اجل ، ان العقل يدلنا بمعونة الحواس على وجود الله تعالى ، حيث
لأ طريق الى معرفة الله سوى ذلك ؟ والا دار او تسلسل على حد التعبير
المشهور ، وسبق الكلام عن ذلك في فصل اثبات الخالق . وايضا العقل
وحله يستقل في اثبات فكرة النبوة من حيث هي ، وانه لا محالة من ان
يكون الله ابياء ورسل الى خلقه ، كما تقدم في فصل النبوة ، اما الطريق
الى معرفة النبي وتعيينه باسمه وشخصه كمحمد وعيسى وموسى فهو العقل ،
ولكن بضميمة النظر الى المعجزة وظهورها على يده بالذات ، وتحدثنا عن
ذلك في فصل محمد والقرآن . وايضا يحكم العقل بامكان المعاد ،
والحساب والجزاء بعد الموت ، اما وجوب الواقع فيؤخذ من النقل ؛ بل و
ومن العقل ايضا ؛ ولكن بلحاظ العدالة الالهية ، لأن ترك الظالم دون ان
يقتصر منه للمظلوم هو الظلم بعينه ، ويأتي البيان في فلسفة المعاد انشاء الله ،
اما الامامة فهي تماما كالنبوة ، و الفرق ان تعيين النبي بشخصه يكون
بالمعجزة ، وتعيين الامام يكون بالنص من الله ، او المعصوم .

هذا بالنسبة الى اصول الدين الاساسية التي اشرنا اليها في الفقرة
الاولى ، والتي يحب التدين بها مطلقا وعلى كل حال ، واما الشعب التي
اشرنا الى بعضها في الفقرة الثانية ، ولا يحب التدين بها الا بعد العلم ، اما
هذه فيثبت بعضها بالعقل كما تنازع رؤية الله ، وكون الانسان مسيرا ، لا مخيرا ،
وكعصمة الابياء ، وبعضاها الاخر يثبت بالضرورة الدينية او المذهبية نصا
كان سببها اما جماعا اما اشبيه ؟ . ولكن التمييز بين ما هو ضروري وغير

ضرورى صعب مستصعب . قال صاحب القوانين : اختلاف العلماء فى ضرورات الدين ، يحكم احدهم بان هذا الشيء من ضرورات الدين ، ويحكم الآخر بان عدمه من ضرورات الدين .

وايضا يثبت بعض الاصول بالنقل ، شريطة ان يكون قطعى السند و الدلالة كبعض آيات القرآن الكريم ، وبعض الاخبار المتواترة والخبر المحفوف بالقرينة القطعية على صدوره من المعصوم ، على ان يكون قطعى الدلالة ايضا .

وتساؤل . لقد ثبت بالدليل القاطع ان الظن الذى يستند الى ظواهر الكتاب والسنة ، والى الخبر الواحد « وجدة تماما كالعلم ، وبناء على هذا يجوز لنا ان نثبت الاصول والعقائد بالخبر الواحد وان كان ظنى السند ، وبظواهر الكتاب والسنة المتواترة ، وان كانت ظنية الدلالة ، وشرط القطع سندأو دلالة لا دليل عليه ، بل قام الدليل على عدمه .

الجواب : اي ثبت بالدليل القاطع ان التدين يجب ان يعتمد على العلم واليقين ، ولا يجوز التعويل فيه على الظن ايا كان مصدره . قال الشيخ الانصارى فى الرسائل :

« ظاهر كلامات كثير من العلماء انه لا يجوز العمل بظواهر الكتاب والخبر المتواتر فى اصول الدين ؛ ولعل الوجه فى ذلك ان وجوب التدين بهذه الاصول انما هو من آثار العلم ». وقال الاشتياقى : « ان اكثرا الایات والاخبار الامرة بالعمل بالعلم ، النهاية عن الظن تختص باصول الدين ، ومثله فى بعض الكتب المعتبرة .

وعليه يجب ان نخصص الدليل على جواز العمل بالظن الخاص ، و هو الناشيء من الخبر الواحد ، و بعض الآيات و السنة المتواترة ، ان نخصص هذا الدليل بالمسائل الفرعية العمليه دون اصول الدين العقائدية **التقليد في اصول الدين:**

قال اكثربالعلماء : لا يجوز التقليد في اصول الدين . وقال اهل التحقيق : يجوز . ومن هؤلاء الارديلي والانصارى والمحقق الطوسي ، ونحن معهم ، سواء كان المقلد قادر على تحصيل المعرفة ، ام عاجزا عنها ، لأن المطلوب الاول هو التدين والاعتقاد الجازم بالواقع على ما هو عليه من اي طريق سلكت اليه ، والمعرفة بالدليل وسيلة ، لاغائية ، ووجوبها مقدمة لوجود غيرها ، وهى وجد ذو المقدمة سقط بطبيعة الحال وجوب المقدمة .

هذا ، الى ان سيرة العلماء من هذا القديم - و منهم القائلون بعدم جواز التقليد - قائمة على معاملة المقلدين في اصول الدين معاملة المسلمين ، بل وعدالة من اتقى و عمل صالحها . وقد اشبعنا هذا الموضوع بحثا و تفصيلا في المجلد الاول من التفسير الكاشف عند تفسير الآية ١٧٠ من البقرة ، فقرة التقليد و اصول الدين ، و ذكر المقلد ع اقسام ، و قلنا في آخر البحث ما يلي :

« ان العبرة في اصول العقائد هي الايمان الصحيح المطابق للواقع ، ومن اجل هذا قبل النبي (ص) اسلام كل من آمن به ، وما طلب الاجتهاد منه واستعمال النظر .. اما الآيات التي وردت في ذم اتباع الاباء فان سياقها يدل

على ان المراد منها التقليد في الباطل والضلال ، لافى الحق والهداية، وتجلى هذه الحقيقة لكل من امعن الفكر في قوله تعالى: « اولوجئتكم باهدي ما وجدتم عليه آباءكم ». وقوله: « و اذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ». وقوله: « اولو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ». فان المفهوم من هذه الآيات ان آباءهم اذا كانوا على الهدى الذي نزل على الرسول جاز اتباعهم ، لأن المطلوب هو اتباع ما انزل الله ، فاذا اتباعوه فقد امتهلوا واطاعوا ، ولا يسألون بعد الطاعة عن شيء ». ^٤

الشاك في اصول الدين:

من شك في دين آبائه واجداده فلا يخلو ان يكون واحدا من

ثلاثة

١ - ان يعجز عن البحث والسؤال ، كمالوعاش في السحراء ، او بلد ناء عن الاسلام وال المسلمين ، واهله لا يهتمون الا بالدنيا و اشيائها ، وليس من شك ان هذا معدور من حيث الحساب والعقاب ؛ ولا فرق في ذلك بين ان يكون ابواء مسلمين ، ام كافرين . وفي رسائل الانصارى عن الشیخ الطوسي انه قال : « العاجز عن تحصیل العلم بمنزلة البهائم » .. ولكن لا فرق عليه آثار الاسلام اذا لم يقر باصول الدين ، و يظهر النطق بالشهادتين .

٢ - ان يقدر على السؤال والبحث ، وتهيأله اسباب المعرفة ، وهذا يجب عليه ان يبحث ؛ ويبذل الجهد لتحصیل المعرفة حتى يشعر بالعجز ،

و عندئذ يعمل بما توصل اليه من العلم ، فان كان محقا فذاك ، و الافه و معدور .

وان اهم البحث ولم يكترث ، (مع هذا لم ينطق بالشهادتين فهو و تأثر ظاهرا واقعا . قيل للامام الصادق (ع) : ماتقول فيمن شك بالله ! قال : كافر . قيل فشك في رسول الله (ص) ؟ . قال : كافر .

٣ - فدر على اسباب المعرفة ؛ ولكنه اهم و لم يبحث ، ومع هذا اقر باصول الاسلام و اعلن الشهادتين ، و هذا يعامل في الدنيا معاملة المسلمين ، وفي الآخرة حكمها على الله ، وقلنا عن الامام (ع) انه قال : « لوان الناس اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا ولم يكفروا » . وقال الشيخ الانصارى : « تدل هذه الرأية بظاهرها ان المقرب ظاهر الشاك باطنها الغير مظاهر لشكه - غير كافر » .

الغافل و اصول الدين :

اكثر الناس ينشأون على دين الاباء والاجداد ، و يطمئنون اليه ، ولا يشكون فيه على الاطلاق ، و يعتقدون انه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، و ان كل ماعدا هراء و ضلال ، ولا يختص هذا بالعوام - كما يظن - بل عليه العديد من العلماء واصحاب الكتب والمؤلفات .. و منهم من يقول ايضا بحرمة التقليد في اصول الدين ، و وجوب البحث والنظر لمعرفتها و العلم بادلتها .

وليس من شك ان الغافل الذاهل غير مكلف ولا مسؤول عما غفل عنه وذهل حتى ولو كان المحقق الاول ، لأن التكليف مع الغفلة تكليف بغير

المقدور ؛ وقد اطال المحقق القمي الكلام عن ذلك في كتاب القوانين ،
ونذكر من اقواله بعض المقتطفات مع التصرف في الاسلوب فقط بقصد التوضيح
والتبسيير على الافهام ؛ قال عليه الرحمة والرضا :

ان الله عادل وحكيم ورؤوف رحيم ؛ وعليه اذا افترض ان انسانا ناشأ
منذ طفولته على دين الاباء والاجداد ، واستمر على ذلك حتى الموت دون
ان يلتفت الى ان التقليد يصرف عن الحق ؛ ولا خطر لهذا على باله ؛ اذا كان
الامر على ذلك فبأية وسيلة يتحرر من التقليد ؟ .. ان التحرر من هذا التقليد
صعب وعسير حتى العلماء المتراضين الذين يحسبون انهم خلعوا من اعناقهم
اغلال التبعية والمحاكاة .. كيف والمفروض انهم لا يحتملون الخطأ
بحال ؟ .. ورأى انسان بلغ بهامر الى هذا الحد فهو بحكم البهائم والمجانين ..
ابدا . لا يتجه اليه امر ولا نهي ، ولا حساب ولا عتاب ؛ سواء كان مسلما ؛ او
غير مسلم .

والىك عبارة القمي بحروفها تكون على يقين مما اراد : « هذا
الكلام لا يتفاوت فيه الحال بين المواقف والمخالف ؛ والمسلم والكافر
على ماقتضيه قواعد العدليه .. والقول بتعذيب الكفار والمخالفين دون
المسلمين خروج عن العدل . الى ان قال - : وان كان اطمئنان الغافل من
جهة حسن ظنه باليه وامه من غير فرق بين ماصادف الواقع وعدهمه في عدم العقاب »
ويشهد لقول هذا المحقق (العقل الحاكم الجازم بان الله لا يكلف نفسا الا
وسعها . وايضا يشهد له النقل ؛ وهو قوله تعالى : « و من يشاق الرسول من بعدهما
تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين قوله ما تولى ونصله جهنم وساعت

مصيرًا - ١١٥ النساء » و معنى هذا ان من اتبع سبيل الكافرين و
الضالين عن جهل و قصور فان الله سبحانه لا يوليه ما تولى اي لا يكله الى من
اعتمد عليه ؛ و اخذ منه الكفر والضلال ؛ ولا يصليه نار جهنم و بئس-
المصير .

ثم قدم صاحب القوانين هذا المثال او هذا السؤال : ما قولك و
حكمك فيمن نشأ بين قوم يكرهون الشيعة بالغ الكره و اشده ؛ ولا يسمع
من علمائه و رؤسائه دينه الاتكفييرهم ، والاحاديث الموضعية ، و تكذيب
او تأويل كل حديث اخذ به الشيعة بما يتفق مع اهواء خصومهم و اعدائهم ! .
ماطنك بمن نشأ على ذلك ، ولم يتحمل ان الحق على غير ماسمع . و ما هو المبرر
لحسابه و عذابه ؟ (انظر المجلد الثاني من القوانين من صفحة ١٦٦ الى صفحة
١٧٣ طبعة عبدالرحيم) و ابلغ حجة قيلت في هذا الباب ماروی عن الامام
الصادق (ع) : « ان امر الله كله عجيب الا انه قد احتاج عليكم بما قد عرفكم من
نفسه ». وعلى هذا يقع الوزر على السبب الاول الذي اضل الناس عن الحق و
اهله و سوء بعض الشيعة لا الشيء عالا لانهم يقدمون اهل بيت النبي (ص) على
غيرهم عملا بآيات الله و احاديث رسول الله .

وتساؤل: هل يسقط التكليف بالواقع من الاساس بالنسبة الى الذاهل
عن اصول العقائد ، او ان التكليف بالواقع ثابت لاريب فيه ، ولكن له لم يصل
الى مرحلة التنجيز التي يجب ان يتبعها العمل والامتنال بلا فاصل ، كما هي
الحال بالنسبة الى الغافل عن الصلاة - مثلا . واستمرت غفلته حتى مضى الوقت .
الجواب : فرق بين اصول الدين و فروعه ، لان التكليف في الاولى
يتعلق بالإيمان والاعتقاد ، لا بالافعال ، وفي الثانية يتعلق التكليف بالافعال

الصلة ونحوها ، وليس من شك ان الافعال يمكن قضاء واستدراك مافات منها كمافات ، وعليه بصبح التكليف بهامن حيث هي ، وبصرف النظر عمما يعرض للمكلف من المowanع والطوارى عن الامتنال والطاعة ، فاذا عرض له مانع من غير تقصير كان معذوراً ، ومتى زال المانع وجب القضاء والاستدراك ، اما اليمان والاعتقاد فلانتصور بحال القضاء فيه ، وبالاولى ان لانتصور قضاء مقدماته التي تؤدى الى تحصيله.. ومن الذى يقدر على ايجاد الفرع مع العجز عن الاصل كما هو الفرض ؟ وبكلمة ان للفرع بدل ، ولذا وجب انشاء أعلى الاطلاق وتجيز أعلى الالتفات ، اما الاصل فلا بدل له ، واذن ، فایة جدوى من انشاء وجوبه حين الغفلة ؟ .

سؤال ثان: اذا كان غير المسلم معذوراً عند الله مع الغفلة والذهول فلماذا لا نعذر نحن كما عذر الله سبحانه وتعالى ، ولا نعامله معاملة غير الكافر . لماذا نحكم بنجاسته ونحرمه من الارث والمناكحة ، ونحو ذلك من الاحكام التي تجري على المسلمين . وهل يجب ان تكون ربانين اكثري من العدالة الربانية ؟

الجواب : ان الفرق بين احكام الدنيا ، واحكام الآخرة تماماً كالفرق بين الدنيا والآخرة ، ان الاحكام في حياتنا تتبع الاسماء ، وان الآثار تلحق الظاهر ، لا الواقع ، فمن قال : لا والله محمد رسول اخذنا بظاهره ، اما في الآخرة فلا اسماء ولا ظواهر .. ابداً لا شيء الا الواقع .. ومن اجل هذا قد نعامل واحداً من الناس معاملة المسلم؛ وما له في الآخرة الا النار والخسران وقد نعامل آخر معاملة الكافر ، وهو من عذاب الآخرة في أمن وأمان . وبكلام آخر كل من نطق بالشهادتين فلهما لل المسلمين ، وعليه ماعليهم كانوا من كان في حقيقته وواقعه ، ومن لم ينطق بهما حكمه غير حكم المسلم في الحياة الدنيا .

من هم أهل البيت؟

ليس الغرض من هذا الفصل ان نبين مكانة اهل البيت وعظمتهم عند الله سبحانه، بل غرضنا اولاً وبالذات أن نعرف من هم المقصودون بهذه الكلمة؟ والذى انتهينا اليه بعد التتبع والتأمل ان المقصودين عرفاً بكلمة اهل بيت النبي (ص) هم اسرته وعشيرته الاقربون، فلقد دبّ الناس منذا القديم والى يومنا هذا ان يستعملوا كلمة اهل البيت في هذا المعنى . . . اجل ، ان الائمة الاطهار اشهر واكمل المصاديق. اما المقصودون شرعاً من هذه الكلمة فهم فاطمة والائمة الاطهار ؛ ودليلنا على ذلك آية التطهير ٣٣ الاحزاب، وحديث التقلين؛اما آية التطهير فانها تعنى علياً وفاطمة والحسن والحسين بدليل آية المباهلة ٦١آل عمران، واغرب ما قرأت في التناقضات أن بعض السنة يقولون: ان المراد من «نساءنا» فاطمة لا ازواج النبي (ص) وفي الوقت نفسه يقولون: آية التطهير ٣٣ من الاحزاب نزلت في نساء النبي .. فain وجه الجمع تستدل بهذا، وبما جاء في سبب نزول آية التطهير في كتب الحديث والمناقب والتفسير، وهو أنها قد نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين. ومن كتب الحديث التي اثبتت ذلك صحيح مسلم والترمذى، ومستدرك الصحيحين، ومسند احمد؛ وخصائص النسائي، والرياض النضرة، وكتن العمال، ومسند أبي داود؛ والاستيعاب، واسد الغابة؛ ومشكل الآثار، ومجمع الزوائد،

ذكر هذه الكتب الفير و زاد بادى فى كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .
واما كتب التفاسير فمنها الدر المنشور للسيوطى عند تفسيره «وأمر أهلك بالصلوة» و تفسير الطبرى والاندلسى والحافظ وغيرهم كثير حتى ابن تيمية فى كتاب المفتقى .

وقال: صاحب المنار عند تفسير قوله تعالى: «ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين - ٨٦ الانعام» . قال مانصه بالحرف الواحد : «اقول في الباب حديث ابى بكر عن البخارى مرفوعا: ان ابني هذا سيد يعني الحسن ولفظ ابني لا يجري عند العرب على اولاد البنات، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لا يبي نعيم مرفوعا: وكل ولد آدم فان عصبته لا يبيهم خلا اولاد فاطمة فاني انا ابوهم وعصبتهم. وقد جرى الناس على هذا، فيقولون في اولاد فاطمة اولاد رسول الله (ص) وابناؤه وعترته واهل بيته» .

ومعنى هذا القول من صاحب المنار ان ولد فاطمة ليسوا ابناء رسول الله لغة، ولكنهم ابناء وشرعاً لقوله (ص): «انا ابوهم وعصبتهم» : وايضا هم ابناء رسول الله عرفا لان طريقة الناس جرت على القول : ان اولاد فاطمة هم اولاد رسول الله وابناؤه وعترته واهل بيته .

هذا هو المراد بكلمة اهل البيت في آية التطهير، اما المقصودون بها في حديث الثقلين فهم - على ما فهمناه من المساواة بينهم وبين القرآن في وجوب التمسك - فاطمة والائمة الاثنا عشر الذين اشار اليهم النبي (ص) بقوله: «ان هذا الامر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش» .

رواهمسلم فى صحيحه كتاب الامارة ، والترمذى ج ٢ ص ٣٥ طبعة ١٢٩٢هـ ، والبخارى كتاب الاحکام، ومستدرک الصحيحين ج ٤ ص ٥٠١ طبعة ١٣٢٤هـ ، ومسند احمد ج ٥ ص ٨٦ طبعة ١٣١٣هـ ، وکنز العمال ج ٤ ص ٢٠١ طبعة ١٣١٢هـ ، كما فى كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

هذا حديث الائمه ١٢، اما حديث التقلين فقد جاء فى صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل على بن ابي طالب ، وفي الترمذى ج ٢ ص ٣٠٨ ومستدرک الصحيحين ج ٣ ص ١٠٩ ، ومسند احمد ج ٣ ص ١٧؛ وحلية الاولى وج ٩ ص ٦٤ طبعة ١٣٥١هـ؛ وکنز العمال ج ١ ص ٩٦، ومجمع الزوائد للهيثمى ج ٩ ص ١٦٤ طبعة ١٣٥٢هـ ، والصواعق المحرقة ص ٧٥ طبعة ١٣١٢هـ اياضا كما فى كتاب فضائل الخمسة .

وبهذا يتبيّن معنا ان السنة والشيعة متفقون على ان الخلافة لا بد منها ، وانها في قريش دون غيرهم ، وان عدد الائمه اثنا عشر اماما ، ولكن السنة يختلفون مع الشيعة في امررين: الاول في حصر الخلافة بالهاشميين ، وبصورة اخص بعلى وبنيه، الامر الثاني في تعيين الائمة الاثني عشر باسمائهم وانسان بهم وعلى هذان تكون فكرة الائمة الاثني عشر من حيث هي اسلامية، لاسنية فقط ولا شيعية فقط وانما الخلاف في التطبيق .

اما السبب لتسمية الفرقه الاثني عشرية بهذا الاسم مع ان السنة يؤمنون بالائمة الاثني عشر فهو ان هذه الفرقه قد اجمعوا على تعيين ال١٢ باسمائهم واعيانهم، واختلف السنة في ذلك، فمنهم من قال: ال١٢ لم يخلقوا بعد و وسيخلقون ويملكون بعد ظهور المهدى المنتظر ووفاته ، ومنهم من قال : ان المراد

بالـ ١٢ اماماً غير اصحاب الرسول لان حكم اصحابه يرتبط بحكمه .. اذن كل الائمة الائتين عشر من بنى امية ماعدا عثمان و مروان بن الحكم لأنهم اصحابيـان و عليهـ يـكون اول الائمةـ الذين عـناهمـ النـبـىـ (صـ)ـ:ـ يـزـيدـ بنـ مـعاـوـيـةـ ،ـ فـمـ اـبـنـهـ مـعاـوـيـةـ،ـ ثـمـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ مـرـوـانـ ،ـ وـ اـوـلـادـهـ الـأـرـبـعـةـ:ـ الـوـلـيدـ،ـ وـ سـلـيـمـانـ،ـ وـ يـزـيدـ ،ـ وـ هـشـامـ،ـ ثـمـ عـمـرـ بـنـ الـعـزـيزـ ،ـ وـ الـوـلـيدـ بـنـ يـزـيدـ ،ـ وـ يـزـيدـ بـنـ الـوـلـيدـ ،ـ وـ اـخـوـهـ اـبـرـاهـيمـ وـ مـرـوـانـ الـحـمـارـ ،ـ وـ مـنـ السـنـةـ مـنـ قـالـ:ـ هـمـ اـبـوـ بـكـرـ ،ـ وـ عـمـرـ ،ـ وـ عـثـمـانـ ،ـ وـ عـلـىـ ،ـ وـ مـعاـوـيـةـ،ـ وـ يـزـيدـ بـنـ مـعاـوـيـةـ ،ـ وـ عـبـدـ الـمـلـكـ،ـ وـ اـوـلـادـهـ الـأـرـبـعـةـ ،ـ وـ عـمـرـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ وـ مـنـهـمـ مـنـ قـالـ:ـ الـمـرـاـدـ جـوـدـ الـ12ـ اـمـامـاـمـدـةـ الـاسـلـامـ حـتـىـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ ،ـ وـ مـرـوـانـ لـمـ وـ تـوـالـىـ اـيـاـمـهـمـ (ـفـتـحـ الـبـارـىـ فـيـ شـرـحـ صـحـيـحـ الـبـخـارـىـ لـلـعـسـقـلـانـىـ جـ13ـ صـ183ـ)ـ .ـ وـ مـاـبـعـدـهـ طـبـعـةـ سـنـةـ 1301ـهـ)ـ .ـ

وـ تـسـأـلـ:ـ لـقـدـ فـهـمـنـاـ انـ الـائـتـىـ عـشـرـ يـةـ آـمـنـواـ بـاـمـامـةـ عـلـىـ لـلـنـصـوـصـ الـتـىـ دـلـتـ عـلـىـ اـمـامـتـهـ كـتـابـاـ وـ سـنـةـ،ـ وـ فـهـمـنـاـ اـيـضـاـ اـنـهـمـ آـمـنـواـ بـاـمـامـةـ الـحـسـنـ وـ الـحـسـيـنـ لـقـولـ جـدـهـمـ الرـسـوـلـ (ـصـ)ـ:ـ وـ لـدـائـىـ هـذـانـ اـمـامـانـ قـاماـ اـمـقـعـداـ ..ـ اـمـاـ اـيـمـانـهـ بـاـمـامـةـ التـسـعـةـ مـنـ ذـرـيـةـ الـحـسـيـنـ فـلـمـ نـعـرـفـ لـهـ مـصـدـرـاـ؟ـ

الـجـوـابـ:ـ بـعـدـ اـنـ ثـبـتـ النـصـ عـلـىـ اـمـامـةـ عـلـىـ وـالـحـسـنـ وـالـحـسـيـنـ وـعـصـمـتـهـمـ ثـبـتـعـنـدـ الـائـتـىـ عـشـرـ يـةـ اـيـضـاـ اـنـ الـحـسـيـنـ (ـعـ)ـ نـصـ عـلـىـ وـلـدـ زـيـنـ الـعـابـدـيـنـ ،ـ وـ هـكـذـاـ نـصـ الـاـمـامـ السـابـقـ عـلـىـ الـاـمـامـ الـلـاحـقـ حـتـىـ الـاـمـامـ الثـانـىـ عـشـرـ ،ـ وـ عـلـيـهـ يـنـتـهـىـ النـصـ عـلـىـ الرـسـوـلـ الـاعـظـمـ (ـصـ)ـ بـالـنـظـرـ عـلـىـ اـنـهـوـ الـذـىـ نـصـ عـلـىـ الـائـمـةـ الـاـوـلـ .ـ

هـذـاـ مـاـبـتـعـتـ عـنـدـ الشـيـعـةـ الـاـمـامـيـةـ عـنـ نـبـيـهـمـ الـكـرـيمـ ،ـ وـ اـذـاسـأـلـنـاـ اـوـىـ عـالـمـ

من علماء السنة، وقلنا له: هل يجوز لاحدان يخالف نصاً يعتقد صدوره عن النبي لا شيء عالاً له لم يثبت عند غيره؟ وانه هل يحرم العمل بالنص الا اذا ثبت عند جميع الفرق والطوائف ، اذا وجهنا اليه هذا السؤال اجاب باتردد : كلاماً، وفلا كلاماً.. واذن علام الطعن والانتقاد .

وقد روى السيد عفيفي في كتابه «حياة الامام أبي حنيفة» روى عن السيوطي عن علماء السنة: ان النبي (ص) بشر بالامام مالك في حديث: يوشك ان يضرب الناس اكباداً قبل يطلبون العلم فلا يجدون اعلم من عالم بالمدينة . . وبشر بالامام الشافعى في حديث: لا تسبوا قريشاً فان عالمها يملا الأرض علماء . . وبشر بالامام أبي حنيفة في حديث: لو كان العلم معلقاً عند الثرى بالتناوله رجال من فارس . وجاء في تفسير روح البيان ان نصف الثمانية المقصودين بقوله تعالى «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» هم أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد .

فهل يجوز للسني ان يؤمن ويعتقد بان النبي نص على امامية المذاهب السننية ؟ وان الله سبحانه نص على انهم من حملة العرش يوم القيمة ؟ هل يجوز هذا للسني ؟ ولا يجوز للشيعي ان يعتقد بامامة الائمة الاطهار ؟ وان النبي (ص) نص على بعضهم مباشرة ؟ وعلى البعض الآخر بالواسطة ؟ . وخير ما نختتم به هذا الفصل قول أبي حيان الاندلسي في تفسيره البحر المحيط عند قوله تعالى : «ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل الرحمن لهم ودا - ٩٦ مريم» . قال الاندلسي : «ذكر النقاش ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب .. و من غريب الكلام ما انشدنا الامام

اللغوى رضا الدين ابو عبدالله محمد بن على الانصارى لزبينة - ابن اسحاق
النصراني الرسغى » :

عدى و تيم لا احاول ذكرهم
بسوء و لكنى محب لهاشم
و ما تعمرينى فى على و رهطه
اذا ذكروا فى الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم؟
واهل النهى من اعرب و اعاجم؟
سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم
فقلت لهم انى لا حسب حبهم



الولاية علم

الولاية موضوع دينى ، ذكرها علماء الكلام فى باب العقائد بعنوان الامامة ، ولكنها تصلح بمحاجتها الهمامة لأن تكون علمابذاته من علوم الدين ، وتکاد تكون عند الامامية كذلك ، حيث وضعوا فيها العديد من الكتب ، منها المطول ؛ ومنها المختصر ، ومنها ما يين هذين .. والف بعض علماء السنة فى الامامة كالماوردي صاحب الاحكام السلطانية ، و ابن قتيبة صاحب الامامة والسياسة ، ولكن مؤلفاتهم فى هذا الموضوع تختلف عن كتب الامامية فى الكثير من مباحثها واهدافها ، بل بعض فصولها لا يمت الى الامامة بسبب .

وسواء أكانت الولاية علم استقلاء ، ام ابابا من ابوابه فانها تثير هذه التساؤلات :

ما هو معناها ؟ . وما هي اقسامها ؟ . ولمن تجب ؟ . وهل هي من اصول الدين او من فروعه ، او لامن هذه ولاتلك ؟ . وانما هي من لوازم التقوى وشعار المخلصين .. وفيما يلى نحاول الاجابة عن هذه التساؤلات .

وفي رأينا انه لا ينبعى لاحد ان يكتب فى الولاية ، ويندیع كتابته على الملا الا بشکل يبشر ولا ينفر ، ويقرب ولا يبعد ، فان الشخص يتخدمن قول

الامامى ، ايakan ، حججه على جميع الامامية ، ووسيلة للطعن في عقيدتهم ..
حتى ولو كان القائل او الكاتب غير معترف به عند علمائهم بالمعنى الدقيق
لعلم والفضل ..

ان موضوع الولاية شائك للغاية ، وقل من يتتبه لحل المشكلات و
اجوبتها السليمة ، ولقد قرأت لبعض المؤلفين او المتطهفين كتابا لا يفرق
فيه بين حديث الولاية وحديث الفضائل ، فيستدل على امامية امير المؤمنين
بحديث « من سب عليا فقد سبني ، ومن سبني فقد سب الله » مع العلم بان من
سب مؤمنا لا يمانه فقد سب الله ايakan هذا المؤمن .

ونحن لانشك في ان بعض الذين كتبوا في الامامة على تحسيل عال ، و
علم واسع بالاصول والفقه .. ولكن الولاية شيء ، والفقه واصوله شيء آخر ،
ولاضير ابدا على الفقيه ان يقول : من انكر الولاية ، واقر بالشهادتين له في
هذه الدنيا اما للمسلمين ، وعليه ماعليهم ، ولكن هل يحق له ان يقول : تعتبر
الولاية في قبول العبادة ، والثواب عليه اعم العلم بان الحديث عن التواب
والعقاب من البحوث الكلامية ، لامن المسائل الفقهية . بالإضافة الى
ان الولاية على هذا لا تكون اصلا ولا فرعا ، بل من لوازن التقوى ، وشعار
المخلصين .

وسمعت من جعماحته ما يقول : وای مانع ان يكون هذا الشعار من
اقسام الولاية ، وان لم يتصف بالاصل او بالفرع ؟ .. اجل ، لامانع من جهة
العقل ، ولكن هذا الشعار لا يتبادر من كلمة الولاية ، بل هو بعيد عنها كل
البعد ، فكيف يكون من اقسامها ؟ .

معنى الولاية:

قد تستعمل الكلمة الولاية ومشتقاتها في أكثر من معنى ، ولكن المقام الاول لهذه المادة هو السلطة والقيام بالأمر ، وهذا المعنى وحده هو الذي يتبادر إلى الأفهام عند الاطلاق ؛ وغيره يحتاج إلى فرينة ؟ فإذا قيل: من يتولى أمرهؤلاء القصر سبق إلى التصور ؟ من يقوم بهم ؟ ويدبر شؤونهم ؟ وإذا قيل: هذا ولـيـ العـهـدـ فـهـمـ مـنـهـ أـنـ يـخـلـفـ الـمـلـكـ فـيـ السـلـطـةـ والـقـيـامـ بالـأـمـرـ .

والالبس وغموض في ذلك ، ولكن السنة أرادوا التخلص بكل وسيلة من نصوص الولاية على أهل البيت لاشيئه الآخر صاعلي خلافة أبي بكر ومن بعده ؛ وصيانته لها من الطعن والفضيحة ، فحملوا نصوص الولاية على غير معناها الظاهر أو الظاهر تمحلا وجزافا ، ولونظروا إلى الولاية بتجدد وصرف النظر عن خلافة أبي بكر لقالوا بمقالة الشيعة ؛ وما كان للخلاف بين الطائفتين عين ولاائر ويأتي التوضيح والتفصيل .

اقسام الولاية:

تنقسم الولاية باعتبارات شتى إلى أقسام ؛ فهي من حيث التشريع والتكوين تنقسم إلى تشريعية وتكوينية ، وهو الحال الذي يقول للشئيء: «كن فيكون» . ونسبة الخلق والتكوين إلى غيره تعالى شرط لا يغتفر ، وإلى تشريع خالق أو يخالف كتاب الله ، وسنة نبيه فهو بدعة وضلاله .

التفويض في تشريع الأحكام:

وتساؤل : أجل ؛ إن التشريع بيد الله تعالى ، ما في ذلك ريب ؟ ولكن

يجوز ان يفوض سبحانه و تعالى امر التشريع الى المعموم ؛ ولو في بعض المسائل بالنظر الى كماله في جميع الصفات ؛ و انه مسدد و مؤيد من الله ، بل جاء في بعض الروايات : ان الله سبحانه فرض الصلاة ركعتين ركعتين من غير فرق بين الصبح و غيرها ، فاضاف النبي (ص) الى كل من الظهر و العصر والعشاء ركعتين ؛ و الى المغرب واحدة ؛ وايضا في رواية اخرى : ان النبي (ص) سن اشياء كثيرة غير ذلك ؛ فاجاز الله تعالى كل ما اضاف و سن نبيه الكريم .

الجواب :

هذا جائز عقلا ؛ ولكن لا ثبت شرعاً بالمعنى متناوسندا ؛ و لانعلم بشبوب هذا النص ، اما قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذلواه و ما نهكم عنه فانتهوا - ٧ - الحشر » فالمراد به البلاغ عن الله ؛ لامن عند الرسول : « وما على الرسول الا البلاغ المبين - ٥٤ - النور ». هذا ؛ الى ان رواية الاضافة الى الصلاة محل نظر .. فنحن لا نتصور ان يفرض الله يسيرا على عباده ، والنبي (ص) يزيد عليه الزاما .. ثم ما هو القصد من جعل - المغرب ثلثاً والعشاء اربعاء بعد ان كانا سواء فهل الغرض فتح باب الاعتراض للمشككين والمتحدلقين ؟ .

هذا اولا ، وثانيا قال تعالى : « ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين - ٥٧ - الانعام ». و قال الامام الصادق (ع) : اما الحلال و الحرام فقد و الله ازله على نبيه بكلمه ؛ وما يزيد الامام في حلال و حرام . وكل من الاية والرواية تتنافى بظاهرها مع رواية التفويف :

ثالثاً : أية جدوى من الاعتقاد بـ *الله سبحانه وتعالى* فوض امر التشريع الى المعصوم مادام قوله وفعله ونفيه حججه على كل حال ؟ .

الولاية المحمدية لـ *التكوينية* :

وتسأل : نحن نؤمن بـ *التكوين* بشتى انواعه والوانه *هوله* وحده ، وان نسبة أى لون منه الى غيره شرك ، ولكن سمعنا عن قائل يقول : ان *الله سبحانه وتعالى* خص *التكوين* بشكل او آخر المعصومين بـ *الولاية* *التكوين* على الاشياء وان في قدرتهم ان يخضعوا *هالارادتهم* ان شاءوا ، فـ *الخضع* لهم تماماً كـ *ما تخضع* لارادة خالقها وباريها ، وان كانوا لا يفعلون ذلك ولا يشعرون ، ولكن *الله* خصهم بهذا *الفضل* وهو بيده *يؤتيه* من يشاء ، *والله* واسع علیم . فـ *ما رأيك* في ذلك ؟

الجواب :

كل شيء ممكـن باذن *الله* حتى اطباقي السماء على الارض بكلمة يقولها عبد من عباده *تعالى* ؟ ولكن العبرة بالوقوع لا بالامکان ، وبالايات لا بالثبوت .. وليس من شك ان طريق الايات هنا منحصر بالنص القطعى متنا وسند ، فـ *فـ* *اين* هو ؟ وعلى فرض قيام هذا النص عند البعض فهو حججه عليه وحده ، لا على غيره ؛ لأن وجوب الایمان بـ *التكوين* ليس من ضرورات الدين ، ولا المذهب ؛ فالواجب على الامامى الائتمى عشرى ان يؤمن ويعتقد بـ *كل امام من الاول الى الثاني عشر* معصوم عن الخطأ وـ *الخطيئة* ، وأنه يحيط علمـا بـ *كتاب الله* ، وـ *سنة نبيه* احاطة كاملة شاملة تماماً *كعلم الله* ورسوله ، بهذين الاصـلين ؛ وان *الله سبحانه وتعالى* قد اصطفاه للامامة

من بين خلقه ليكون رئيسا وحجة عليهم كما اصطفى جده للنبوة؛ ومما زاد على ذلك فلابيجب الاعتقاد به الاعلى من قام لديه الدليل القاطع متنا و سندًا .

وبكلام آخر ان الولاية الثابتة للامام قطعا ، وبضرورة المذهب هي الولاية المحمدية ؛ وغيرها يفتقر الى دليل قطعى لا يتطرق اليه الشك . ونعني بالولاية المحمدية ان كل حق ثبت لرسول الله (ص) على المسلمين فهو بذاته ثابت للامام المعصوم ؛ لانه الممثل الشرعى لرسول الله (ص) في جميع الشئون التي تقبل النيابة والتمثيل .

و كفى المعصوم عظمة ان يكون منزها عن كل ما يشين ، وعما يدين الله كما انزل على خاتم النبيين ؛ وان يكون قوله و فعله و تقريره حجة و دليلا على الحق تماما ككتاب الله و سنة رسول الله ؛ وهو بهذه الصفات الجلى يحلق الى القمة التي لا شيء فوقها الا خالق كل شيء ؛ و هو الواحد القهار .

اما كيف احاط المعصوم علما بدين الله و اسراره من الفهارس؟ وهل كان ذلك برواية معصوم عن آخر ؛ او قذفا في القلب ؛ او نفرا في السمع ، او بدعاء مستجاب .. كل ذلك جائز عقلا و شرعا .. ولكن نحن لانعلم التعيين والتفصيل ، ولا يجب علينا ان نبحث ؟ كيف ؟ وبأى طريق ؟ وانما يجب علينا ان نعتقد بأنه يعلم الدين بكامله ؛ وانه دليله وبرهانه .

وتساؤل : هل المعصوم يعلم الغيب ؟ .

الجواب : قال الله مخاطبا نبيه الكريم : «ومن اهل المدينة مردوا

على النفاق لا نعلمهم نحن نعلمهم - ١٠١ البقرة » و قال النبي :
« لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير - ١٨٨ الاعراف » وقال الامام :
« ليس بعلم غيب - اى علمه - و انما هو تعلم من ذي علم .. علم الله فعلمنيه »
وقال علماء الشيعة مجتمعين : كل خبر خالٰف كتاب الله يجب طرجه ؛ و قال بعض
الناس : كلام الامام يعلم الغيب و ان قال الله والرسول والامام و العلماء اجمعين
لان هناك خبر ايقول : انه يعلم ما كان وما يكون الى يوم القيمة مع العلم بان هناك
آيات و اخباراً كثيرة تقول : لا يعلم الغيب الا الله .. ثم ما هي الثمرة العملية
التي تترتب على ذلك ؟ .. انا لله وانا اليه راجعون .

وبعد ؛ فان الذى اعلناه من الاعتقاد بالمعصوم فى كتابنا هذا وغيره
مما كتبنا وادعنا هو الخط الاساسى لمذهب الائتى عشرية، وبه نقط
الطريق على الذين يختلفون الافتراضات والاکاذيب لمجرد الطعن والنيل
من الموالين لالله محمد(ص)

ولقد تبعت ادلة الولاية ؛ وقرأت الكثير مما قاله الموالون وغير
الموالين ، ودافعت عنها وكافحت بلسانى وقلمى ؛ وما زلت والي آخر يوم
وماصعب على شىء الا وقوفى في وجه العدو ؛ و هو يتسلح و يتثبت بقول من
يقول : الامام يعلم ما كان وما يكون ؛ و انه لو شاء اسقط السماء على الارض ؛
ورفع الارض الى السماء .. ولكن هذا اللون قليل : ولله الحمد ، ولا يمثل
الانفسه .

الولاية الطبيعية :
و ايضاً تنقسم الولاية من حيث النواميس الطبيعية، والمبادئ الشرعية -

الى نوعين: طبيعية، وشرعية ، وافراد كل من النوعين لاتفاق افراد النوع الآخر، بل يستحيل وقوع التنافى بينهما، لأن خالق الطبيعة هو واسع الشريعة الحقة بالذات.. والولاية الشرعية - بشتى اقسامها - تدخل في علم الفقه ، اما الولاية الطبيعية فهي اصطلاح من عندنا . ونريده به ان الناقص الفاقد لا ية صفة من صفات الكمال يفتقر بطبعه ووضعه الى الكامل الواحد لتلك الصفة ، فممكنا وجود - مثلاً - مفتقر الى واجب الوجود في اصل وجوده ، وفي بقائه واستمراره ، والعاجز عن تدبير شؤونه كالصغير والمجنون مفتقر الى قوى امين يدبره الله ، والاعمى يحتاج الى بصير يقوده والمريض الى طبيب يعالجه، والجاهل الى عالم يهديه ويرشهده .

وهكذا كل واحد لصفة هو ولد على من فقدها.. وعلى هذا الفاقدان يسمى ويطبع للتكامل الواحد بحكم العقل والعدل فيما يتصل بذلك الصفة ، ولكن على اساس مصلحة الفاقد لامصلحة الواحد واستغلاله.. فما من سلطة في الارض ولا في السماء الا وهي مقيمة بالمصلحة او بعدم المفسدة - على الاقل - وأى قوى واجد اذا خان وافسد وجب رفضه وابعاده كائنا من كان .

وقد يكون الاعمى استاذًا في العلم لقائده والمريض اماما في الدين لطبيبه ولكن قول البصير حجة على الاعمى في معرفة الطريق وقول الطبيب حجة على الامام في معرفة الدواء .. وايضاً قول من لا يتحمل الخطأ في علمه حجة على المجتهد الذي يتحمل في علمه الخطأ وهذا حجة على غير المجتهد ولو بساوى اثنان في الصفات لم يكن للولاية من موضوع الامر الا الارادة والرضا كانتخاب الحاكم والنائب واختيار الوكيل ونحوه ولو توالي بالقوة احد المتساوين شأنها

من شئون المساوى الاخر تكون التولية ظلما و عدوا و افاحش الظلم ان
الناقص على الكامل والجاهل يتسلط على العالم.

ولان هذه القاعدة اي ولایة الواجب على الفاقد - ضرورة للحياة و
نظامها فقد تبنتها و عملت بها جميع الشرائع قد يهمها و حديثها شرقيها و غربيها
كما اعتبرت قول الامناء من اهل الخبرة والمعرفة حجة قاطعة فيما يعود الى
مهنتهم و اختصاصهم .

وبما ان محمدآ (ص) هو امثل و اكمل من كان و يكون في جميع
صفات الكمال والجلال تكون ولایته طبيعية عقلية كما هي سماوية الہیة
و معنی ولایة النبی - كما نفهم و نعلم - ان لها السلطنة الدينية والزمنية على الخلق
وان قوله و فعله و تقريره حجة و دليل على الحق و العدل ولا يختلف في ذلك
انثنان من المسلمين و انما الاختلاف بين السنة و الشيعة في ان الرسول الاعظم
هل اوصى بهذه الولاية ل احد من بعده او انه انتقل الى رب بدون ان ينص على
من يخلفه في هاتين السلطتين او احد اهله . وفيما يلى التفصيل :
هل اوصى النبی (ص) ؟ .

قال السنة ذهب النبی (ص) الى رب بدون ان يوصى بالخلافة ل احد من
بعده و انه ترك امر هاشوری بين المسلمين و رد الشيعة هذا القول بما يتلخص :
١ - ما ادلي على ان النبی (ص) انانطا الخلافة من بعده بارادة المسلمين
و اختيارهم . وهل ادعى احد من السنة قد يهم او حديثا بانه (ص) انانطا الخلافة
من بعده بارادة المسلمين و اختيارهم . وهل ادعى احد من السنة قد يهم او حديثا
بأنه (ص) نص على ان الخلافة شوری بين اهل الحل و العقد . والذى نعرفه

ان البعض منهم ادعى النص على خلافة ابي بكر بتقديمه للصلوة .. مع العلم
بان هذا المدعى يجيز الصلاة خلف البر والفارجر ويؤمن ايضا بان اكثرا الذين
يصلحون للامامة في الصلاة لا يصلحون للحكم والقيادة . وبالتالي كيف جاز
للبشة ان ينسبوا هذه الشورى لنبي الرحمة وهم يعلمون بانه سكت عنها وعن
الخلافة، ولم يشر اليها من قريب او بعيد.. ان سنة الرسول الاعظم (ص) عبارة
عن قوله وفعله وقوله وفعله وقوله وفعله يبعد سكته عن شيء علم يحدث بعد، مع علمه بانه
سيحدث لامحالة هل يبعد هذا السكتة تقريراً مندلاً ما سيكون على كل
حال وكيف اتفق وبلا قيد او شرط ؟

٢ - روى السنة عن النبي (ص) بانه كان يعلم تناحر امته من بعده على
الحكم وانهم يفترون على ثلاث وسبعين فرقة وان الكثيرون منهم يرتدون عن
دينه ، و ان الخلافة بعد ثلاثين تكون ملكاً لاعضوا ، فكيف ساغ بعدها
كله ان يسكت عن الخلافة . وبالاصح كيف يصدق عاقل بانه (ص) سكت و
ونجاهل امر امته ، ولم ينص على امام يجمع شملها ، ويوحد كلمتها . ؟ وقد
وصفه الله بقوله: «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم
١٢٨ التوبة» وهل كان ابو بكر اكثرا حرصا على مصالح الامة من الرسول ،
واشدراً فقمة ورحمة بالمؤمنين حين اوصى لعمري بالخلافة ؟ ولماذا استن
ابو بكر هذه السنة التي مهدت السبيل ليزيد بن معاوية وامثاله ليدان يتحكموا
برقب العباد ، ويفسدوا في البلاد؟.

هذا تلخيص سريع لقول السنة والرد عليهم .. وهذا كسر عميق يمكن
وراء موقف السنة من النص على الخلافة وال الخليفة ؛ وانكارهم او تأديبهم

له ، وهو التعجب الاعمى لخلافة ابي بكر، وصيانتها من النقد والطعن، ويأتى
البيان والتوضيح فى الفصل الاتى .

وقد وضع الشيعة العديد من الكتب فى نصوص الخلافة و الولاية
التي رواها السننة انفسهم فى صحاحهم وسننهم ، واكثراها والكثير منها يبدل
بصراحة على ان على بن ابى طالب هو الذى يجب ان يخلف الرسول (ص) فى
السلطة الدينية والزمنية ، وان الولاية المحمدية حق الہى مقدس للصفوية
من اهل البيت ، وان طاعتهم واجبة ، ومناقشتهم محرمة .

وقد تناقل علماء الشيعة هذه النصوص جيلا عن جيل مدى مئات
السنين ، واعادوا التاليف فيها مرات ، وما زالوا ، ومحضوها تمحض اعلامها
ودقيقا ، فثبتوا وافق نقلها عن السننة ، واوضحوا دلالتها قبل ان يذيعوها على
الملايين ويناظر وابها من انكر وعاند .. واتمنى لواتيحة لنصوص الولاية عالم
منصف لاسنى ولاشيعى يبحثها بحثا موضوعيا ، ويصدر حكمه بما فهم منها
وعلم ، ومن الكتب التي تحتوى على هذه النصوص كتاب الشافى للمرتضى ،
ودلائل الصدق للمظفر ، والغدير للامينى ، والمراجعات لشرف الدين ،
وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للغيرة وزادى وغيرة ، ولا جدید
لدينا نعطيه على ما في هذه الكتب ، وآية جدوى في النقل عنها مادامت
في متناول كل راغب وطالب ؟ . وعلى سبيل المثال نشير الى نصوص
ثلاثة :

١ - بعد نزول الوحي على رسول الله (ص) امره تعالى ان يبدأ بدعوه
اول ما يبدأ بارحامه واقاربه ؛ ومخاطبه بقوله : « وانذر عشيرتك الاقررين

فلبى النبي (ص) و اولم لعشيرته ، و دعاهم الى الاسلام ، و قال لهم فيما قال مشير الى على: «هذا اخي و وصيي و خليفتى فيكم، فاسمعوا و ما طيعوا» انظر من الكتب القديمة للسنّة الجزء الاول من مسنن احمد والجزء الثاني من تاريخ الطبرى طبعة قديمة والجزء الثاني من الكامل لابن الاثير طبعة قديمه ايضا، ومن الكتب الجديدة حياة محمد، لمحمد حسين هيكل الطبعة الاولى و تاريخ الجمعيات لمحمد عبدالله عنان.

٢ - خطب النبي (ص) المسلمين يوم غدير خم ، و افتتح خطابه بقوله : الست اولى منكم بانفسكم؟ ، ثم قال: من كنت مولاه فعلى مولاه. والمتبادر الى الافهام من كلمة المولى هو الذي يتولى الامر - ويملك السلطة كما اسلفنا - ومع التسليم جدلا بان للمولى الفمعنی و معنی فان المقصود منه هنا خصوص الخلافة والولاية بدلالة «الست اولى النب: و قرینة الآيات والاحاديث الواردة في حق على (ع) و امامته». وابت الايميني في كتاب الغدير: ان هذا الحديث رواه ١١٠ من الصحابة ، و ٨٤ من التابعين .

٣ - قال الرسول الاعظم : «انى قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى: الثقلين واحدهما اكبر من الاخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، و عترته اهل بيته ، الا و انهم لم يفترقا حتى يردا على الحوض» .

وهذا الحديث يرافق في معناه معنی قوله تعالى : «وما آتاكم الرسول

فخذلوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب - ٧ الحشر». لقد ساوت هذه الاية بين القرآن والرسول في وجوب التمسك والاتباع، ومثلها تماماً حديث الثقلين، ساوي بين القرآن والعترة، و المساويان ثالث متساويان، وعليه فاي حق ثبت للرسول فهو بعينه ثابت للعترة شريطة ان يقبل النقل والانتقال كالسلطة الدينية والزمنية، وفي فصل «من هم اهل البيت؟» اشر ناالي سند الحديث والمراد بالعترة.

وتسأل : ان خلافة الرسول (ص) منصب هام و خطير للغاية ، لأن صاحبه يجمع فيه بين السلطتين: الدينية، والزمنية ، فينبغي ، وهذا هي الحال ، ان يكون النص عليه بالاسم لا بالوصف ، وبالتصريح لا بالتلويع .. وقدرأينا اكثرنصوص التي استدل بها الشيعة على خلافة الامام و ولاته من النوع الثاني ، مثل من كنت مولاه فعلى مولاه .. وانت ولی كل مؤمن بعدي .. وعلى مع الحق ، والحق مع على النب .. فلماذا اكتفى النبي (ص) بالوصف عن الاسم ، وبدلالة المزوم عن المطابقة ، وهي اصرح واوضح، وفتح باب النقاش والتأويل ؟ .

الجواب :

اولا : لا فرق من حيث العجية والازام بين دلالة المزوم والمطابقة ، كما هو الشأن فيسائر النصوص ، سواء أكان موضوع النص اسلام من اصول الدين ، او فرع من فروعه .. ومن اجل هذا اكتفى ابو بكر حين نص على عمر بقوله : «انى امرت عليكم عمر بن الخطاب». قال المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر في كتاب السقيفة : «ان الامارة تكون في الجيش

وفي كل شيء .. والفرق بين نص النبي - على الامام - ونص أبي بكر - على عمر -
ان أبا بكر لم يحدث بعده ما يوجب التأويل لانه قد عمل به ، اما نص النبي
فقد اول لانه لم ي عمل به » .

ثانيا : ان الحكم والصلاحة قد تستدعي العدول من التصريح الى
التلويح ، ومن الاسم الى الوصف مع العلم بان النتيجة واحدة ، والحكمة
هناك على اكانت له في الصحابة اعداء وحساد لفضلهم من جهة « وقد يدعا كان
في الناس الحسد» ولانه قد قتلت في - بدر واحد - الكثير منمن كان يمت الى بعض
الصحابة بحسب او سبب من جهة ثانية .. وعليه لو صرحت النبي (ص) باسم على
لانشق المسلمين ، معه وعليه ، واختلفوا فيه بعد ما اتفقا عليه ، وذهب
هيبة الاسلام ، وضفت شوكته .

ويدل على ذلك امران : احدهما ان النبي (ص) قد صرخ بخلافة
على في النص الاول يوم انذر عشيرته ، وقال: هذا خليفتى فيكم ، فاسمعوا
له واطيعوا . (١)

حيث لا حсад ولا اعداء لعلى (ع) آنذاك ، لانه كان في مقبل العمر ،
لم يمارس حربا ، ولم يقتل مشركا ، ولم يظهر له بعد من الفضل ما ظهر له يوم
- بدر واحد وخبير والاحزاب - ثانى الامرين: الذي يدل على شفاق الصحابة
لو صرحت النبي باسم على ، هو شفاقهم واحتلافهم عند النبي وفي بيته ومرضه
حين اراد أن يكتب لهم وصية لن يضروا بعدها ابدا ، وقول عمر : ما شأنه ؟
أي هجر ؟ . ويأتي البيان في الفصل التالي .

١ - تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٦٢ مطبعة الامنقة بالقاهرة سنة ١٣٥٧هـ . عن فضائل الخمسة من الصالحة الستة .

وبعد فان المصدر الاول والاخير لوجود التشيع وظهوره في الاسلام هو نصوص القرآن والسنن فقط لغير على ولاية اهل البيت ، لا لاغراض الشخصية ، ولا لمحسنات العقلية ، ولو لاهذه النصوص لقال الشيعة . بمقالة السنن ..اما الفضل في بقاء التشيع واستمراره فله اسباب لسبب واحد؛ ومنها اولمن اهمها رواية علماء السنن انفسهم لنصوص الولاية، وحفظها وتدوينها في صحاحهم وسننهم ومسانيدهم ،فلقد كان لهذا التدوين ،وتلك الرواية ابلغ الاتار في صمود مذهب التشيع لاهل البيت ؛ وثبتته ونموه بقلوب اهله وابنائه ، وانتشاره في شرق الارض وغربها .. وذهب الى ابعد من ذلك جازما بانه لو لا اعتراف السنن بنصوص الولاية – على رغم التأويلات والتمحلاطات –
بلغ التناحر بين السنن والشيعة غايتها ونهايتها .

وهكذا نرى ان علماء السنن قد ساهموا وامساحمة فعالة في التقرير بين الطائفتين الاسلاميتين من جهة ، وفي رسوخ التشيع ونموه وانتشاره من جهة ثانية ،ولكن من حيث لا يريدون؛ او من حيث ارادوا في واقعهم العكس .. واكر رجازما وعبر عن رأي الشيعة قاطبة بانهم يعتمدون لا يمانهم بولاية اهل البيت على النص القطعى متنا وسندًا ، وان علماءهم اذا أشاروا الى حكم القول في هذا الباب ،وعند المناظرة فانما يشيرون اليه كمؤيد ، لا كدليل مستقل ،ولو لا الخصومات والحملات لم يأتوا على ذكره تصریحاً ولا تلویحاً .

الدكتورية والديمقراطية:

و دب فائل : لو سرنا النظر عن نص الكتاب والسنن على خلافة على وامامته ، وقارنا بين قول الشيعة والسنن – لو جدنا قول السنن اقرب

إلى النفس وملاء ملة الحضارة» في هذا العصر. لأن قول الشيعة يوجب على الأمة كافة أن تخضع لحكم الفرد ودكتاتوريته؛ أما قول السنة فإنه يترك الأمة وشأنها تنتخب وتحتار من قرابة أهال للرئاسة عليها؛ وهذا هي الديمقراطية المتبعة اليوم في البلاد المتقدمة.

الجواب :

أولاً: لا سبيل إلى اتفاق عامة الناس على رأي واحد في أي موضوع كان.

ثانياً: مامن انتخاب جرى في العالم كله الا ودنسه الرشوة والجهل، والقوة والأغراض الشخصية؛ ومن هنا قال سبحانه في أكثر من آية: «اكثرهم لا يعقلون».

ثالثاً: لو سلمنا - جدلاً - بنزاهة الانتخاب وعدالته فإن النتيجة الحتمية له هي حكم الأقلية، وارغام الأقلية على الخضوع لها، ومعنى ذلك أن الأقلية لاشأن لها ولرأي .. هذا إلى أن الشواهد التاريخية قد اثبتت بالأرقام أن الديمقراطية العصرية تبتدئ عباق الانتخاب، وتنتهي باستبداد الأقلية بالأقلية، ومن هنا كانت الحرية للجميع، والمساواة بين الجميع في هذا العصر، بل وغيره من العصور - الفاظاً بلا معنى إلا في الذهن والتصور.. ويستحيل أن يتحقق للعدالة والمساواة أي معنى إلا إذا حكم وسيطر المعموم عن الخطأ والخطيئة .. وهذا هو قول الشيعة بالذات .. وقد يكون مجرد حلم من الأحلام .. ولكن حلم الحق والناس أجمعين.

اصل او فرع؟

وتساؤل: هل الولاية عند الشيعة اصل او فرع؟ . وعلى الأول هل

هي من اصول الدين او المذهب ؟ .

الجواب :

الولاية اصل، وليس فرع، لأن الولاية عملية قلبية داخلية، والفرع موضوعه الافعال الخارجية .. هذا ، الى ان الفرع يثبت بالظن من خبر الواحد ، وظواهر الكتاب والسنة ، و الولاية لا ثبت الا بالقطع و اليقين كغيرها من الاصول .

واكثر علماء الامامية على انها من اصول الدين . وقال قائل منهم : هي من اصول المذهب . وذهب البعض الى انها شرط لقبول العبادة و الثواب عليها، وليس شرطاً لصحة العبادة وكفايتها .. ويلاحظ بان اهل العرف لا يفرقون بين صحة العمل وقبوله ، فاذا قيل : هذا العمل مقبول فهموا انه صحيح ، واذا قيل : هو صحيح فهموا انه مقبول .

ويلاحظ على القول الثاني بان مصدر الدين و المذهب الاسلامي واحد ، وهو الكتاب الكريم و السنة النبوية ، فاى شيء له اساس فيهما فهو من الدين في الصميم ، سواء أسميناه ديننا أم عقيدة ، و الذي لا اساس له في الكتاب والسنة لا اقعا ولا ظاهرا اي بر الاجتهاد فهو بدعة و ضلاله لا تصح نسبته الى الاسلام بحال .

وعلى هذا فان كانت الولاية حقا في علم الله فهي من اصول الدين واقعا وظاهرا ، وان لم تكن كذلك فهي ايضا اصل من اصول الدين، ولكن ظاهر الواقع كغيرها من الامور الدينية ، اذ المفروض ان الفائلين بالولاية يعتمدون النص ، واذن فهي من الاصول على كل ، اما واقعا وظاهرا، واما

ظاهراً فقط، أصل، يجوز أن نسميه باصل المذهب بالنظر إلى أنها ثبتت عند أهل هذا المذهب دون غيره من المذاهب ولكن التسمية لا تخرجها من أصول الدين.

وتساؤل: هل الشيعة يكفرون من انكر الولاية لآئمته بالمعنى الذي

يؤمنون به ويدينون؟

الجواب :

كلاً؛ كيف وقد اجمعوا قولًا واحدًا على أن من نطق بالشهادتين له ما لل المسلمين، وعليه ما علية، يكفيه ناصبياً أو مغالياً، ومن أدلةهم قول الإمام (ع) هلك في رجلان: محب غال، وبعض قال.

سؤال ثان: أوحى بها الإجابة عن السؤال الأول، وهو إذا كان هذا حقاً وصدقًا، لاتفاقية ومجاملة، فكيف تكون الولاية من أصول الدين، وليكون الاقرار بها واجباً تماماً كوجوب الاقرار بالتوحيد والنبوة. وأية جدوى من القول بأن الإيمان بالولاء واجب كالتوحيد إذا كان لمنكر هذا الولاء ما لل المسلمين، وعليه ما علية؟

والجواب عن هذا السؤال يعرف مما ذكرناه في الفصل السابق بعنوان ما يجب وما لا يجب، وربما نسيه القارئ، أو لم يمر به، ونلخصه له بـ: بن على كل بالغ عاقل أن يبحث وينظر لتحصيل العلم بالأصول الأربع: التوحيد، والنبوة، والأمامية - على قول الشيعة - فـ المعاد، وـ ان القادر المقص في البحث والنظر غير معدور أمام الله إلا إذا آمن جازماً، عن تقليد يتفق مع الواقع، وـ ان الغافل الفاصل معدور، لأن حاله حال البهائم والمجانين من غير فرق

في ذلك بين جميع الأصول الاربعة .

وقلنا ايضاً : ان من نطق بالشهادتين يعامل في الدنيا معاملة المسلم حتى ولو كان شاكا في الواقع بالتوحيد والنبوة فضلا عن الشك بالولاية والامامة على شريطة ان لا يظهر هذا الشك، مع انه عند الله من الكافر حين لان من شك بالله او بنبوته محمد كافر كما تقدم عن الامام الصادق (ع) .. والفرق بين التوحيد والنبوة من جهة ، وبين الولاية من جهة هو ان اعلان الجحود او الشك في الله ورسوله لا يجتمع بحال مع اعلان الایمان بالشهادتين - حيث يستدعي اجتماع النقيضين ،اما جحود الولاية فضلا عن الشك فيها فانه يجتمع مع اعلان الشهادتين ومن المتسالم عليه ان الاحكام الشرعية وآثارها تتحقق هذا الاعلان ، وتترتب عليه تبردinya بصرف النظر عن الولاية ، وعن الثواب والعقاب ..

وعليه فلامنفأة بين قول الشيعة: ان الایمان بالولاية من اصول الدين ، وقولهم : ان منكرها ليس بكافر .. ان اقوال الشيعة في كل شيء ينسجم بعضها مع بعض ، ولا تناقض بعضها على الاطلاق ، وهي بكلامها تنسجم مع عقidiتهم وافعالهم ، وانما التناقض والتناقض بين اقوال السنة انفسهم ، حيث قالوا ان الامامة من الفروع ، لامن الاصول ، ثم حكموا من حيث يشعرون ، او لا يشعرون بان من انكر خلافة ابي بكر وعمر فهو كافر ، قال ابن حجر في آخر صواعقه بباب التخيير والخلافة ، ما نصه بالحرف الواحد : ان ابا حنيفة وغيره من علماء السنة افتوا بان من انكر خلافة ابي بكر وعمر فهو كافر ». ونقل الفزوي في كتاب الامامة الكبرى عن ابن حجر في صواعقه هذا الحديث عن النبي (ص) «يكون في آخر امتى الراضة ينتحرون حبا هيل بيته .. من ادركهم منكم

فليقتلهم فانهم مشركون».

فان كانت الامامة من الفروع حفاظاً على خلافة الشيختين لا يوجب التكفير حتى ولو كانت بامر من الله ورسوله ، ويأتي الكلام عنها ، وان كانت الامامة من الاصول فلماذا ينكرون ذلك على الشيعة؟ . وليس لواحد من السنة وغير السنة ان يدعى ويقول: اجل، ان خلافة الشيختين فرع، ولكنها من ضرورات الدين، وكل من انكر ضرورة دينية فهو كافر .. ليس ل احد ان يدعى ذلك ، لأن الشرط الاساسي للضرورة الدينية ان يجمع عليها كافة المسلمين في كل زمان ومكان، والشيعة ينكرونها ، وسبقهم الى انكارها كثير من الصحابة ، و يأتي البيان . هذا جواب ابي حنيفة وغيره من علماء السنة الذين افتوا بـ كفر من انكر خلافة الشيختين ، اما حديث قتل الرافضه فانه يرمي الى شيء عميق الدلالة لا يدركه الا المتعصبون من اهل السنة؛ وبعد، فان السنة او الكثير منهم يقعون في افحش التناقضات من حيث لا يدركون ويرمون بها الابرياء عن قصد او غير قصد .

حول التقسيم والتشييع

ولاية اهل البيت وخلافة ابي بكر:

كنت، وانا في مقتبل العمر أتساءل كما يتساءل الساذج البريء: لماذا انقسم المسلمون الى سنة وشيعة، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم واحدة؟.

ثم لاحظت - أكثر من مرة - حين يجتمع بعض السنة مع آخرين من الشيعة: ويأتي ذكر الاختلاف يتفقون جميعاً على أن سبب الانقسام بين المسلمين قد يرجع الى سياسة الحكم العجائب، ومبدأ «فرق تسد» وصادف ان قرأت ذلك في بعض الصحف والكتب الحديثة، فصدقني من غير تحقيق وتمحیص، بل من حيث لا احسن واعذر.. كان ذلك قبل خمسين سنة او أكثر.

واستقرت هذه الفكرة في رأسي سنوات، وكتبتها وادعتها في بعض ما كتبت وادع.. وحين اضطرني اعداء الحق واهله الى الدفاع عنه وعنهم اخذت أبحث وأنقب عن مصدر التشيع والبذرة الاولى لهذا المذهب؛ فوجدتها

في النص الصحيح عن رسول الله (ص) كما وجدها المنصوفون من السنة انفسهم ومنهم الاستاذ: محمد عبدالله عنان في كتابه تاريخ الجمعيات السرية حيث قال: من الخطأ أن يقال: ان الشيعة انما ظهرت الاول مرة عند انشقاق الخوارج؛ بل كان بدء الشيعة وظهورهم في عصر الرسول (ص) حين أمر الله بانذار عشيرته في الآية ٢١٤ من الشعراء: «وانذر عشيرتك الاقربين»، ولبي النبي فجمع عشيرته في بيته؛ وقال لهم مشيرًا إلى -هذا أخي ووصيي وخليقتي فيكم فاسمعوا وهو اطاعوا».

بحثت ونقبت عن مصدر التشيع، وقرأت نصوص الولاية بكلامها مرات وآيضاً قرأت اعترافات الشيعة عليها وعلى الشيعة مرات ومرات؛ وتقلىخص هذه الاعترافات بان بعض نصوص الولاية ضعيف السندي؛ وبعضاً منها يدل على الولاية بمعنى السلطة وتولى الامر، بل بمعنى المودة والنصرة، وبعضاً يدل على ان علياً يتولى الخلافة في المال، لافي الحال، اي بعد خلافة ابي بكر وعمر وعثمان، وبعد وفاة النبي بلا فاصل .. فرأيت هذا فعدلت عن فكرة السياسة وفرق تسد، وآمنت بان السبب للاختلاف بين السنة والشيعة يرجع الى الاختلاف فيهم نصوص الولاية سنداً ومتناً، وكتبت ذلك واذعنه ايضاً في بعض ما كتبت واذعنت،

وتشاء الاقدار ان اعود الى حديث الولاية، وانافى -قم-؛ او يعود هذا الحديث الى، ويفرض نفسه على، فرجحت به، لأن حديث الولاية احسن الحديث بل افضل الاعمال، وهذا من فضل ربى، وبعد التتبع والتأمل تبين لي ان السبب الاول للاختلاف بين السنة والشيعة بعد بكثير من السياسة؛ ومن الاختلاف

في النصوص سندأ ومتنا .. كلا ، ان السبب الحقيقي يكمن في تصميم السنة وحرصهم على خلافة أبي بكر ، والدافع عنها بكل سبيل حفاظاً على امباطلا .. واذن ، الاختلاف بين السنة والشيعة حول هذه النصوص جاء فرعاً ، لا اصلاً وتباعاً ، لا أساساً .

اما السبب الموجب لحرص السنة على خلافة أبي بكر فهو - كما نرجح - ان السنة او اكثراهم يؤمنون بالامر الواقع ؛ ويعترفون به ايما كان ، على عكس الشيعة الذين يدينون بالعقل والشرع ، وبهما يقيسون الحوادث والواقع ، ولو تولى على الخلافة بعد الرسول مباشرة لكان نصوص الولاية بكاملها عند السنة صدقاً وعدلاً متنا وسندأ .. ونحن لانزيد في اقوال السنة ولا ننسب اليهم ما ليس لهم به من علم ، كما نسب اليها البعض منهم ما نسب كذبها وافتراء . كلا ، لانكابالكذب بالكذب ؛ بل نلزم بالاقوال والافعال .. وفيما يلي نعرض طرفا من اقوال السنة التي تدل صراحة على انهم يدينون بمبدأ الاعتراف بالواقع مهما كان ويكون ، ثم نعرض بعض ما يدل من اقوالهم على ان خلافة أبي بكر اتت من طريق يرفضه الاسلام ، ويبرأ منه .

السنة ومببدأ الاعتراف بالواقع :

قلنا: ان السنة تبنوا خلافة أبي بكر عملاً بمبدأ الاعتراف بالواقع ، واليک الدليل :

١ - بایع نفر قليل ابابکر بالخلافة ، وساعدته الظروف والوضع ، فتلت السلطنة دون غيره من الصحابة ، واصبح هو الامر الناهي باسم خليفة رسول الله (ص) ، فاستدل السنة بخلافة أبي بكر : لابآية ولارواية ، ولا باجماع

او عقل استدلوا او ابتدعوا اصلاماً او هاماً، هو أن الخلافة الإسلامية الكبرى
تنعقد شرعاً، وتصح عقلاً وعرفاً ببيعة نفر قليل من المسلمين؛ وكان الاجدر
ان يستدلوا على فساد خلافة أبي بكر وبطلازها ببيعة النفر القليل، كما هو
منطق الحق والعدل .

قال الماوردي في أول كتاب الأحكام السلطانية: «أقل ما تعتقد به الأمامية
خمسة أنفار، لأن بيعة أبي بكر، انعقدت بعمر، وأبي عبيدة وأبي سعيد بن حضير،
وبشر بن سعد، وسالم مولى حذيفة . . ولأن عمر جعل الشورى في ستة ليعقد
البيعة لاحدهم برضاء الخمسة هذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة
وقال آخرون من علماء الكوفة تنعقد بثلاثة يتولاهما أحدهم برضاء الاثنين،
وقالت طائفة أخرى تنعقد البيعة بواحد».

وجاء في كتاب المواقف وشرحها باب الأمامية: «الواحد والاثنان من
أهل الحل والعقد كاف في ثبوت الأمامية ووجوب اتباع الأمام على أهل الإسلام ،
لأن الصحابة اكتفوا في عقد الأمامية بعقد عمر لابي بكر وعقد عبد الرحمن بن
عوف لعثمان» .

أليس معنى هذا ان بيعة عمر لابي بكر هي حق وعدل وان خالفت كتاب الله
وسنة نبيه .. لا شيء إلا لأن ابا بكر صار خليفة بالفعل وان بيعة ابن عوف لاريب
فيها لأن عثمان صار خليفة ؟

ومعنى هذا ايضاً ان عمر؛ أو أي انسان لو بایع علياً وتمت لها الخلافة –
لكان أولى بهامن جميع الصحابة بما فيهم ابو بكر ، ول كانت جميع النصوص
على خلافته ولالية المعصومين من اولاده قطعية السنده والدلالة .. حتى ولو

بائع ابا بكر الانس والجان ، بل ونص على خلافته النبي والقرآن مادامت الخلافة لم تتم له .. هذامبدأ السنة او اكثراهم يقيسون الحق بما وقع؛ ولا يقيسون ما وقع بالحق بالحق اماميبدأ الشيعة فالنص اولا وهو الضابط لما يقع ويحدث.

وقد تنبه بعض السنة لهذا الخطأ بغيره بما هو افحش، ووضع هذا الحديث «من اطاع الامير فقد اطاعني ومن يعصي الامير فقد عصاني فان امر بتقوى الله وعدل فان له بذلك اجر اوان قال بغيره - اى غير العدل - فان عليه منه» اى وبالمعنى نفسه لاعلى احد لانه من نفسه والنتيجة لذلك وجوب طاعته على كل حال.. جاء هذا الخبر في البخاري ج ١١ باب السمع والطاعة للامام .

٢ - وقعت الحرب بين علي ومعاوية وشاعت الاقتدار او الظروف ان يحكم معاوية كما حكم الاول والثاني والثالث فتبني السنة حكم ابن ابي سفيان واعتبروا به ودافعوا عنه لالشيء الا انه قد حكم بالفعل.. وكان قد تواتر عن النبي (ص): ان عماراً اقتلها الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعوونه الى النار توأرت هذا الحديث حتى اصبح كآية قرآنية بخاصة بعدهما دونه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المساجد ج ٤ ص ١٠٧ طبعة ١٣٥٢ هـ .

ومع هذارفض السنة ، وابو اان ينعتو معاوية وحكمه بالبغى كما نعته من لا ينطق عن الهوى ، رضوا بذلك ، وهم على يقين من قول الرسول بان عماراً يقتلها الطاغية الباغية .. وعلى الرغم من ذلك قال السنة : كلا، ان معاوية ماطغى ولا بغي ، وانه معدور، بل وما جور بقتل عمار وبسب على المنابر ، وحمل الناس على ذلك حتى يهزم الكبير ويشيب الصغير لانه

ای معاویة - اجتهد فاختطاً ، وللمجتهد المخطيء اجر .. و مهماشکت
فاني لاشك ابدا في ان معاویة لوفشل في حربه مع الامام ، ولم يستتب له
الحكم لمعته السنة بالطاغية الباغية لنفس الحديث المتوانى : « ياعمار
تقتلک الفئة الباغية ». ولكن معاویة صار حاكما بالفعل ، واذن يجب طرح
النص وان توافق .

وهذا هو بالذات حال النص على خلافة الامام ولاليته ، رفضه السنة ،
لان الاوضاع الفاسدة الجائرة اسعت ابا بكر ، وعاكست عليا ، ولو اسعفته
الظروف ؟ و عاكست ابا بكر لكان النص صريحا وقاطعا بولاية علي و
امامته .

أليس معنى هذا ان مقياس الحق عند السنة او اكثراهم هو م الواقع ،
للانص من الله ورسول الله ؟ .

الاسلام وخلافة ابى بكر :

هل خلافة ابى بكر صحيحة ، ام باطلة في مقاييس الاسلام واحکامه ؟
وليس من شك اذا بطلت خلافة ابى بكر بطلت خلافة عمر وعثمان بطريق
اولى ، لانهارشحة من خلافة الاول ، وبالتالي ينهاي مذهب التسنين من الاساس ،
او اعظم ركن من اركانه الذي من اجله اعرضوا عن نصوص الولاية ، وقسموا
المسلمين بهذا الاعراض الى شيعة وسنة .

واذا تكلمنا عن خلافة ابى بكر انهمونا بالتعصب و الانحياز ،
لذلك ندع الكلام عنهم ، قال الشیخ علی عبد الرزاق ، وهو
من علماء الازهر ، في كتاب « الاسلام واصول الحكم » ص ١٨٣ طبعة ثانية

سنة ١٩٦٦ ، قال مانصه بالحرف الواحد :

« اذا انت رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر ، واستقام له الامر تبين
لك انها كانت بيعة سياسية ملوكية عليها اطابع الدولة المحدثة ، وانها قامت كما
تقوم الحكومات على اساس القوة والسيف » .. وقال في ص ١٩٤ : « لعل بعض
من حاربهم ابو بكر ، باسم الردة لم يرفضوا الزكاة ، بل رفضوا الازعاج
لحكومة ؟ كم ارفض غيرهم من جلة القوم كعلى بن ابي طالب ؟ وسعد
بن ابي عبادة - الى ان قال - فقد اعلن مالك بن ذوي رة في صراحة
واضحة الى خالد بن الوليد - انه لا يزال على الاسلام ، ولكنك لا يؤؤدي
الزكاة الى ابي بكر » .

ومعنى هذا ان خلافة ابي بكر لا اساس لها من الدين .. كيف ومصدرها
القوة والسيف ؟ . واى شيء اعظم جرما وظلم امام التحكيم برقاب الناس
قهرها عنهم ؟ . ومن هنا اضطر جماعة من علماء السنة (١) الى القول بان
الامامة تتفقق بالقوة والغلبة .. وهذا شاهد آخر على ان السنة يؤمنون
بمبداً الاعتراف بالامر الواقع ، حتى ولو كان مصدره السيف ؟ ونعطي هذا
الشاهد على ما قدمنا في الفقرة السابقة .

وقال عبدالكريم الخطيب (من السنة) في كتاب الخلافة والامامة
ص ٢٧٢ طبعة ١٩٦٣ ، قال مانصه بالحرف :

« لقد عرفنا ان الذين بايعوا ابا بكر لم يتجاوزوا اهل المدينة ، و

١ منهم ابن خلدون في مقدمة ، والقاضي ابن جماعة الدمشقي فيما نقل
عنه صاحب حضارة الاسلام « جرونيباوم »

ربما كان بعض أهل مكة .. اما المسلمين جميعا في الجزيرة العربية كلها فلم يشاركا في البيعة، ولم يشهدوها ولم يروا رأيهم فيها ، وانما ورد عليهم الخبر بموت النبي مع الخبر باستخلاف أبي بكر . فهل هذه البيعة وهذا الاسلوب في اختيار الحاكم يعتبر معتبرا عن ارادة الامة حقا؟ وهل يرتفع هذا الاسلوب الى انظمة الاساليب الديمocratية في اختيار الحاكم؟ . لقدفتح هذا الاسلوب ابواب للجدل فيه، والخلاف عليه» . اي ان بيعة ابي بكر بالشكل الذي حدثت فيه اوجبت اختلاف المسلمين وتعدد فرقهم ومذاهبهم .

وقال في ص ٢٧٤: «من اى نوع هو عقد بيعة الخليفة؟ . ا هو عقد بيع ام عقد وكالة؟ . ان عقد البيع بعد ان تتم الصفقة يصبح كل من المتباهي عن بمعزل عن الآخر ، يتصرف فيما صار في يده مطلقا لسلطان الثاني عليه ، و لا شأن له معه ، فهل يصبح الذين بايعوا الخليفة لاصلة لهم به بعد البيعة ، ويصبح الخليفة مالك للخلافة لاحساب عليه لاحد؟ . هذا بالنسبة الى عقد البيعة ، اما عقد الوكالة فاين هو؟ ومن هم الوكاء والمسؤولون عنه؟ اهم اهل الحل والعقد؟ . ومن هم اهل الحل والعقد؟ . وما هي صفاتهم ومن الذي القى عليهم هذه المسؤلية؟ ومن هم اياها؟ . » .

نـم قال في ص ٢٨٦ وما بعدها : «هل ثمت البيعة لـابـي بـكـرـ بالـاـنـتـخـابـ العام .. ومن هنـاـئـرـىـ انـبـيـعـةـ تنـطـوـيـ عـلـىـ قـصـورـ فـيـ مـجـالـ التـعـرـفـ عـلـىـ الرـأـىـ العـامـ كـمـاـ تنـطـوـيـ عـلـىـ غـبـنـ وـاضـحـ لـحـقـ الـافـرـادـ السـيـاسـيـيـنـ الـذـىـ تـقـضـيـهـ الـمـسـاـوـةـ الـتـىـ اـقـامـهـ الـاسـلـامـ مـبـدـأـ وـاضـحـاـ صـرـيـحاـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ جـمـيـعاـ» .

وهاجم احمدامين المصرى الشيعة فى كتاب فجر الاسلام وضحاها هجوما عنيفا ، وبعد مضى عشرين عاما او اكثر أصيب بنظره فاملى كتابا، اسمه يوم الاسلام ، وطبع سنة ١٩٥٨ قبل وفاته بقليل واعترف فيه بما كان قد انكره على الشيعة .

من ذلك قوله فى ص ٤١ : « اراد رسول الله (ص) فى مرضه الذى مات فيه ان يعين من يلى الامر بعده ، وقال : هلم اكتب لكم كتابا بالانضموا بعده وكان فى البيت رجال منهم عمر ، فقال عمر : ان رسول الله قد غلب عليه الوجع » (١) .

وقال احمدامين المصرى فى الكتاب المذكور فى ص ٥٣ : « اختلف الصحابة على من يتولى الخلافة ، وكان هذا ضعف لياقة منهم ، اذا اختلفوا قبل ان يدفن الرسول » .

وقال فى ص ٥٢ : « كان مجال الخلاف الاول فى بيت النبى ، و الثاني فى السقيفة ، واخيرا تم الامر لابى بكر على مضض » .

وقال فى ص ٥٤ : « بایع عمر ابی بکر ، ثم بایعه الناس ، وكان فى هذا مخالفة لرکن الشوری ، ولذلك قال عمر : انه اغلطة وقى الله المسلمين شرها ، وكذلك كانت غلطة بیعة ابی بکر لعمر » .

واذالم تقم خلافة ابی بکر على الاجماع ، ولا على النص ، ولا على

١ - فى صحيح البخارى ج ٦ ص ٩ طبعة ١٣١٤ هـ : « ما شأنه - اى النبي - اهجر ؟ » ومثله فى صحيح سلم كتاب الوصية . ولكن البعض تصرف بكلمة هجر لانها تغيد الهدیان ، ومقام الرسول اعظم .

البيعة والرकالة ، ولا بالانتخاب الديمقراطي كمقال الاستاذ عبدالكريم الخطيب ، بل قامت على القوة والسيف كمقال الشیخ على عبد الرزاق ، وانها كانت غلطة كمقال عمر واحمد امين صاحب فجر الاسلام وضحاها ، اذا كانت هذه خلافة ابی بکر فی حقیقتها وواقعها فاین مکان الرشد فیھا؛ و فی خلافة عمر وعثمان ؟ . وهل یزید الفرع علی الاصل ؟ .

وبالتالی ، هل یبقى لمذهب التسنن من رکن یعتمد علیه ؟ . لقد انکر السنة النص علی خلافة الامام .. لالشیء الاحر صا علی خلافة ابی بکر فاقتصر الله ، جلت حکمته ، علی فی الدنيا قبل الآخرة ، وسخر من السنة انفسهم من یهدم هذه الخلافة من اساسها ، ویثبت بالحس وینشر علی الملاع والاجیال ان خلافة ابی بکرات من طریق لا یقره دین ولا عقل ، ولا عرف ، او قانون .

لماذا لم یحتاج الامام بالذض ؟

وتسائل : اذا كان هناك نص جلی علی امامۃ الامام (ع) فلماذا لم یحتاج به علی من ابعده عن الخلافة ؟ . ولو من باب القاء الحجۃ - علی الاقل -

الجواب :

ان العالم لا یجزم نفیا ولا اثباتا الا بدلیل فاطع .. و لا وجود لهذا الدلیل علی ان الامام لم یحتاج .. أجل ما سجل التاريخ ، ولا نقل الرواۃ ذلك عنه ؛ ولكن ليس كل ما قاله علی و فعله قد حفظه التاريخ ، ورواه الرواۃ بخاصة تاريخ العصر الاموی الذي كان فیه سب علی دیننا تدين به

الدولة واعوانها ، ومثله او اسوأ منه العصر العباسى .

ولو سلمنا - جدلا - بان الامام سكت و لم يبحج فليس من الحق في شيء ان نفترس كوت الامام بوجود النص او عدم وجوده الا في ضوء ما حدث وأحاط بالامام من الظروف و الملابسات آنذاك .. ولا يكون سكوت الامام دليلا على عدم النص الا اذا وجد المقتضى ، وارتقت جميع الموانع بحيث لا يحتاج الامام لباعيده عمر وابوبكر وسائر الصحابة ، اما اذا كان الاحتجاج بالنص وعدمه سواء بل يتولد منه مفاسد ايضا فلا يدل السكوت ، والحال هذه على عدم وجود النص . وادانظرنا الى تلك الظروف والاواعض بين الواقع والانصاف - وجدنا ان قريش كانوا مصممين على معارضه الامام في الخلافة على كل حال ، وابعاده عنها بكل سلاح حقدا وحسدا .

وقد ظهرت بادرة العداء على من قريش اول ما ظهرت حين اراد النبي (ص) - وهو على فراش الموت ان يكتب لامته كتابا يعين فيه من يلي الامر بعده ، كما قال احمد امين المصرى في كتاب يوم الاسلام ، فمنعته قريش ، وقالت الكلمة يهتز لها العرش ، وهي «أ.. هجو» .. كما في الصحيحين: مسلم - والبخاري - وهذه الكلمة بذاتها قرينة قاطعة على ان عمر ما نطق بها الالعلمه و يقينه بان النبي (ص) اراد ان يسجل في الكتاب الخلافة من بعده لعلى .. والافما هو الموجب لمنع الرسول عن الوصية ، ووصفه بالهجو؟ : وهل كان عمر يمنعه عنها ، ويقول عنه ما قال لوطن او احتمل ان النبي اراد ان يوصى بشيء غير الخلافة او اراد ان

يوصى بالخلافة اليه ؛ او الى ابى بكر؟. ولاستبعد اطلاقا ان النبى (ص) لواصر على الكتاب، وسجل فيه الخلافة لعلى من بعده لاصر اقطع قريش بدورهم على ان النبى كان يهجر ؛ واثبتو - والعياذ بالله - هذيانه .. ولا يبطل السنة بعد ذلك كل وصية يوصى بها فى مرض الموت .

ولولا هذا المحذور لاصر النبى على الكتاب ، وسجل . فيه ما اراد .. وايضا لو لا المحاذير التي سند كرها بعد لحظة لاحتاج الامام بالنص على خلافته ؛ فمن قال : لما ذا لم يحتج على بالنص ؟ . فلما فى جوابه : ولماذا لم يصر النبى على الكتاب ويسجل فيه ما اراد ؟ . والجواب الجواب .

هذه اول بادرة من قريش ظهرت فى عدائهم لعلى بعد ان رأوا امارات الموت على رسول الله (ص) ؛ اما البادرة الثانية فقد ظهرت من قريش فى عداء على ، حين اسرعوا الى سقيفه بنى ساعدة قبل ان يجرد النبى من ثيابه ، ويرد جسده الشريف ، اسرعوا الى السقيف ، واختلفوا على من يلى الامر ، وتجاهلوه علينا عن عمد ، وهم اعرف الناس بمكانته .. ولا سال الحقد والبغضاء ، والا التصميم والعزم على ابعاد على عن كل ما يمت الى الخلافة بصلة .. اما الاعتدار بان عليا كان فى شغل شاغل لتجهيز النبى (ص) فهو اوهن من بيت العنكبوت ، لان التجهيز مهما طال امده فلا يستغرق اكثرا من بضع ساعات .

فالبادرة الاولى من عداء قريش لعلى كانت ، والنبي فى ساعاته الاخيرة ، و جاءت الثانية قبل ان يوارى الجسد الشريف ، اما الثالثة من عداء قريش لعلى فقد جاءت بعد الدفن بقليل ، وهى اغتصاب فدك ،

وافتراط حديث : «نحن معاشر الانبياء لأنورث » . فعلوا كل هذا ، واكثر من هذا و مع ذلك لم يرضوا من على بالسکوت والحياد، بل هجموا عليه ليذكره و على الخضوع والاستسلام لابي بكر.. و كان من امر هذه الغارة على بيت فاطمة بضعة الرسول الاعظم (ص) ما كان .

و اذا لم يتركوا فدکالعلى ، ولم يقنعوا منه بالسکوت والحياد ، فهل يتركون له الحكم والخلافة ، ويقولون له مديرك حتى نبايع بمجرد ان يتغافل بالنص ؟ . و اذا منعوا النبي (ص) ان يكتب وصيته ، و هو في مرض الموت ، و نعمتهم بالهجر كما في صحيح البخاري ومسلم ، فهل يسمعون لعلی ويطيعون اذا احتج عليهم بالنص او يضعون حديثا في نسخ ما يحتاج به الامام على غرار حديث : « نحن معاشر الانبياء لأنورث » الذي اتفق السنة على صحته، لاشيء الا لان راويه خليفة ، و لو روی حديث النسخ ابن الخطاب - مثلا - لاصبح وحياما نزلا تماما كحديث « نحن معاشر الانبياء » الذي ما رواه احد الا ابو بكر.. وقد وضع عمرو بن العاص بعد حدين ارضا عاما لمعاوية حديث : « ان آل ابى طالب ليسوا الى باولىاء ». ولكن ترکوا همل لان راويه لم يتول الخلافة ، و لو تولها لا عترف بها السنة و بالحديث المفترى عملا بمبدأ الاعتراف بالامر الواقع الذي تقدم الكلام عنه.

لاتستبعد شيئا من ذلك - ايها القارى - فكلمه جائز ومعقول بالنسبة الى قريش .. الميمکروا بالرسول الاعظم (ص) ويصمموا على قتله، واوشك ان يتم كل شيء لولان يحول الله بينهم وبين ما ارادوا بخر ورج النبي من مكة ، ومبيت الامام على فراشه ؟ . ومن الذي فعل بكر بلاء ما فعل، واقام

مجزرة أهل بيت محمد، قريش أو غيرهم؟ ولو ان علياً أصر على الامتناع
عن بيعة أبي بكر لقتلوه وفعلوا به وبأهل بيته ما فعلوا بالحسين ونسائه
وأطفاله .. واليک الدليل ؛ قال الإمام (ع) في الخطبة ٢١٥ من خطب
نهر البلاعه :

«اللهم انى استعد ياك على قريش ومن اعانهم، فانهم قدقطعوا رحمي،
واكفأوا أنائى ، واجمعوا على منازعى حقا كنت اولى به من غيرى ، و
قالوا الا ان في الحق ان نأخذنه (١) وفي الحق ان نمنعه ، فاصبر مغموما،
او مت هتسفا ، فنظرت فإذا ليس لي رايد ولاذاب ولا مساعد إلا أهل بيته،
فضنت بهم عن المنية . فاغضيت على القى ، وجرعت ريقى على الشجى،
وصبرت من كظم الغيط على امر من العلقم ، وآلم للقلب من حز الشفار».
قول الإمام (ع) : «فضنت بهم - اي بأهله - عن المنية» واضح الدلالة
على انه او أصر على المعارضة ، والتمسك بحقه لاصبها الصاب ولده الحسين
(ع) و انه ائما سكت حرصا على حياة اهله وعياله ، لا على نفسه ، لأن
عليا لا يبالى دخل الى الموت ، او خرج الموت اليه ، بل هو آنس
بالموت من الطفل بشد امه .

اما قوله (ع) : «فنظرت فإذا ليس لي رايد ولاذاب ولا مساعد»
فمعناه انه لو أعلن الحرب على خصمه ومعارضيه في حقه لما وجد معه
معينا ؛ ولم يدافعا ، لأن الناس منذ القديم ، وفي كل زمان ومكان -

(١) روى: ان تأخذنه بالثاء ، وروى ان نأخذنه بالتون ، وهو الاصح
بقرينة السياق .

يقفون مع المحق الضعيف بقلوبهم فقط وموالיהם ؛ اما سيفهم فمع القوى
محقا كان ام مبطلا.. وقد لخص الفرزدق هذه النظرية للحسين (ع)
حين سأله عن اهل الكوفة ، لخصها بقوله: «قلوبهم معك ، وسيوفهم عليك».
وهل يستطيع قلب معافي من الافات ان لا يكون مع على والحسين .

والخلاصة ان حقد قريش على الامام ، وحسدهم له ، واصاراهم
على حربه مهما كانت النتائج اذا اصر على حقه هو الذى منعه من الاحتياج
بالنص ؛ كما ان خبث السرائر ؛ وسوء السماائر هو الذى دعا الرسول
الاعظم(ص) ان يكفو ويكتف عن الكتاب بعد ان حاول واراد - و هو في
مرض الموت - ان يعين لامته من يلى الامر من بعده .

لماذا سكت القرآن عن اسم على بالذات :

وتساؤل : لماذا لم ينسق القرآن على الامام باسمه الصريح
الواضح ؟ .

الجواب :

ان الفرض الاول من النص هو بيان الحق ، وقيام الحجة على من
خالفه وعاته ، وليس من شيك ان هذا الفرض يتحقق بذكر الوصف وغيره
من القرائن ، كما يتحقق بذكر الموصوف صراحة ، والفرق ان النص
الصريح الواضح حجة على العالم والجاهل لاشتراكهما في تفهمه ومعرفته،
اما النص بالوصف ، لا بالاسم فهو حجة على اهل العلم فقط - في الغالب -
لأنهم ادرى به وبمورده ، وهم حجة على الجاهل حيث يجب عليهم ان
يبينوا المقصود من الوصف ، فان قصر العالم وقعت المسئلية عليه وحده ، كما

هي الحال في أكثر النصوص القرآنية والنبوية ، و منها آيات الصلاة و الزكاة ، فانها مجملة ، والتفصيل على اهل الذكر والعلم .

فكرة الامام المعمصوم :

قال قائل من اهل السنة : ان فكرة الامام المعمصوم سياسية بحت ، لا دينية ، وان مصدرها الاول هو خيال الشيعة ، فلقد تمنوا ان يتولى على الخلافة بعد الرسول (ص) ولما اخذها ابو بكر قالوا : ستكون لعلى من بعده ، فاخذها عمر ، فقال الشيعة : هي لعلى بعد عمر ، فاخذها ابي عثمان .. و بعد ان ابعد على عن الخلافة ثلاثة مرات انتهت في الرابعة ، وهي تلقي النفس الاخير ، حيث وقف له معاوية وعائشة وطلحة والزبير ، ثم الخوارج .. حتى انتهت باستشهاده بعد امام قصير .

و لما استتب الامر لمعاوية اعدى اعداء المعلويين قال الشيعة : سيمضي معاوية ، وتنتقل الخلافة الى الحسن (ع) ، ولكن الحسن استشهد قبل ان يمضي معاوية ولم يمضى انتقلت الخلافة الى ولده يزيد .. وكان من امر الحسين (ع) ما كان ، ثم الذي جرى على عموم اهل البيت في عهد الامويين والعباسيين .. فاصطدم شعور الشيعة بالحقيقة ، ولم يبق لهم اى امل ، فعوضوا عن هذا الواقع الاليم بفكرة الامام المعمصوم ، ليبيطلو خلافة الاولين والآخرين الذين ظلموا اهل البيت ، وابعدوهم عن مراثيهم التي ربهم الله فيها ، ولو ان اهل البيت تمكنا في الارض ، وتقلدو الخلافة لما كان لفكرة العصمة عين ولا ثان .

هكذا حاول بعض كتاب هذا العصر ان يشوّه الحقيقة ، لا اشيء

الالينال من التشيع واهله .. وايا كان الدافع فجوابه فيما يلى :

١ - ان فكرا العصمة لا تختص بالشيعة ، بل هي عند السنة بصورة اشد واعنف ، بل هي عندهم فوق العقل وتصوراته .. فلقد ردو وافق بعض كتبهم : « ان رجلات بالمدينة ، فاراد النبي (ص) ان يصلى عليه ، فنزل جبريل ، وقال :

« يامحمد لا تصل عليه ، فامتنع النبي ، فقال له ابوبكر : صل عليه ، فما علمت منه الاخيرا ، فنزل جبريل ثانية ، وقال : يامحمد صل عليه ، فان شهادة ابى بكر مقدمة على شهادتى ». (١) . ومعنى هذا ان علم ابى بكر بالرجل الذى مات بالمدينة هو فوق علم الله تعالى ، لأن جبريل الامين لا ينطق الا بامر من علام الغيوب .

وقال صاحب المنار عند تفسير : « و من الناس من يتخذ من دون الله اندادا ». ١٦٥ البقرة : « ان الكرخي صرخ قائلاً بان الاصل قول ابى حنيفة ، فان وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك ، والواجب تأويل نصوص القرآن والسنة النبوية على وفق قول ابى حنيفة ». وهذا الكرخي امام من ائمة الاحناف ، والسنّة يستسقون ويستشفون بغيره ببغداد .. وحيث ان كتبت الفقه على المذاهب الخمسة رأيت كل أوجل علماء السنّة على هذا المبدأ الكرخي ، فاي عالم منهم يقلد اماما من ائمة الاربعة يجتهد بكل وسعي في تأويل الكتاب والسنة على مذهب الامام الذى يقلده .

١ - كتاب فزحة المجالس ج ٢ ص ١٨٤ ، وكتاب مصباح الظلام ج ٢ ص ٢٥٤ .
كماجاء في كتاب الغدير للاميبي ج ٧ ص ٢٤٤ .

ابعد هذا يقال : ان فكرة العصمة مختصة بالشيعة وحدهم ؟ . وهل في عقيدة الاثني عشرية ما يشبه هذامن قريب ، ام بعيد ؟ . ولقد جاء في كتبهم ان الائمة الاطهار من اهل بيت الرسول (ص) قالوا الشيعتهم : « لا - تقبلوا علينا خلاف القرآن ؛ فان تحدثنا بموافقة القرآن ، و بموافقة السنة ، افعلن الله وعن رسوله تتحدث ، فاذا اناكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردوه ، ان لكلامنا حقيقة ، وان عليه لنورا ، ومالانور عليه فذاك قول الشيطان » .

وما قال الشيعة بعصمة اهل البيت الا انهم لا يقولون ولا يفعلون الا - بوحى الكتاب والسنة .

وقال الشاطئي في المواقفات ج ٣ ص ٧٧ : « ان طائفة من السنة قالت ان قول ابي بكر وعمر حجة ودليل » . وليس من شك ان كل من استدل يقول انسان ، واتخذ منه حجة للحق فقد قال بعصمه : اراد ذلك ؟ ام لم يرد .. هذا الى ان السنة اجمعوا على واحد اعلى عصمة الامة احاديث « لا تجتمع امتى على ضلاله » . واذن ، محمد (ص) هو المصدر الاول لفكرة العصمة وليس الشيعة .

وندع الكراكي وغيره من السلف الداير ، وننظر الى عالم كبير من علماء السنة في هذا العصر وعميد كلية اصول الدين في جامعة الازهر ، وهو الشيخ عبدالحليم محمود ، فقد ألف كتابا ضخما ، اسمه التفكير الفلسفي في الاسلام ، قال في ص ١٧١ : « لو كان هناك ما يشبه ولو من بعيد رغبة الرسول في ان يتولى على الامر من بعده لسارع ابو بكر وعمر الى

بيعته» . اى ان عدم رغبة الشيختين فى ان يتولى على الخلافة دليل قاطع على ان رسول الله لم ينص بالخلافة على الامام . .

أليس هذا هو معنى العصمة بالذات ؟ . ولا ادرى كيف يسوغ لهذا الشيخ ان يستدل بما متنازع الشيختين عن بيعة على، ان يستدل على عدم رغبة الرسول في خلافة على ، ولا يسوغ لغيرهم ان يستدل بمعارضة على لابى بكر و عمر على عدم رغبة الرسول في خلافتهما ؟ .. اما حرس الشيختين على رغبة رسول الله (ص) فقد ظهرت بأجلى معانٍها حين قال عمر عن خاتم النبيين: «ما شاء الله أهجر؟» كما في صحيح البخاري ومسلم ، ومع هذان فان السنة يعتقدون بعصمة عمر، بل و يقدمون قوله على قول رسول الله ويحرمون متعة النساء والحج ، وقولـ حـى على خـىـر الـعـمـلـ . فى الاذان لـان عمر قال : «ثلاث كـن على عـهـدـ رسولـ اللهـ ، اـنـاـ اـنـهـىـ عـنـهـمـاـ وـاـخـرـهـمـ ، وـاـعـاـقـبـ عـلـيـهـنـ: مـتـعـةـ النـسـاءـ ، وـمـتـعـةـ الـحـجـ ، وـحـىـ عـلـىـ خـىـرـ الـعـمـلـ» .. (انظر شرح التجريد للقوشبي من علماء السنة ، آخر مبحث الامامة) .

وبعد، فان الشيعة الاثنى عشرية يعتمدون لعقيدتهم على بدئية العقل، وعلى كتاب الله وسنة نبيه القطعية سندًا ودلالة . انظر فصل اصول العقائد ما يجحب بلاشرط، ويجب بشرط من هذا الكتاب) . وقد استدل الشيعة على اصل فكررة العصمة بقوله تعالى : « لـاـيـنـالـ عـهـدـ الـظـالـمـينـ - ١٢٤ الـبـقـرـةـ» . وعلى عصمة ائمتهم بآية التطهير ٣٣ ، وب الحديث الثقلين الذي جعل اهل البيت وكتاب الله توأمين متساوين في هداية الخلق الى الحق ، وب الحديث على مع الحق، والحق مع على، و الحديث على مع القرآن ، و

القرآن مع علىـ . والحديث الأول ثابت بالتواتر عند السنة قبل الشيعة ، وقد تتبع طرقه وأحصاهافي رسالـة خاصة الشـيخ قـوام الدين القـمي الوـشـنـوـيـ ، واسمـاـها حـدـيـثـ التـقـلـيـنـ ، والـحـدـيـثـ الثـانـيـ رـوـاهـ التـرـمـذـيـ جـ ٢ـ صـ ٢٩٨ـ طـبـعـةـ ١٢٩٢ـ هـ ، وروـيـ الـحـدـيـثـ الثـالـثـ اـبـنـ حـبـرـ فـيـ صـوـاعـقـهـ صـ ٧٥ـ ، وـ صـاحـبـ مـسـتـدـرـكـ الصـحـيـحـيـنـ جـ ٣ـ صـ ١٢٤ـ طـبـعـةـ ١٣٢٤ـ وـ غـيـرـهـ (انظرـ كتابـ فـضـائلـ الـخـمـسـةـ مـنـ الصـحـاحـ الـسـتـةـ)ـ .

علىـ والعـصـمةـ :

علىـ انـ عـصـمةـ الـاـمـامـ عـلـىـ بـنـ اـبـىـ طـالـبـ لـاـتـحـتـاجـ إـلـىـ النـصـ ، لأنـهـ ثـابـتـةـ بـالـحـسـ وـالـوـجـدـانـ مـنـ سـيـرـتـهـ ، وـتـارـيـخـ حـيـاتـهـ ؛ وـلـذـاـ آـمـنـ بـهـاـكـثـيرـ مـنـ اـهـلـاـدـيـانـ وـالـمـذـاـهـبـ غـيـرـاـلـاسـلـامـيـهـ . مـنـ حـيـثـ لـاـ يـرـيـدـونـ وـلـاـ يـشـعـرـونـ بـلـ آـمـنـ بـهـاـ كـذـلـكـ العـدـيـدـ مـنـ الـذـيـنـ لـاـ يـؤـمـنـونـ بـالـلـهـ وـالـيـوـمـ الـاـخـرـ... وـ كـلـ مـنـ دـرـسـ حـيـاتـهـ عـلـىـ يـؤـمـنـ اـيـمـاـنـاـ جـازـهـاـ قـاطـعـاـ بـاـهـ يـخـتـلـفـ عـنـ النـاسـ فـيـ عـقـلـهـ وـ عـاطـفـتـهـ وـجـمـيـعـ صـفـاتـهـ .. اـبـدـأـاـ يـشـبـهـهـمـ فـيـ شـيـءـ وـلـاـ يـشـبـهـوـنـهـ فـيـ شـيـءـ اـلـاـ فـيـ الشـكـلـ... وـاـذـالـمـ يـكـنـ عـلـىـ مـنـ هـذـاـ الـبـشـرـ فـلـيـسـ مـنـ الـضـرـورـيـ اـنـ يـكـوـنـ اـلـهـ اوـنـصـفـ اـلـهـ ، بـلـ هـوـ طـبـيـعـةـ ثـالـثـةـ فـوـقـ الـخـلـقـ ، وـدـوـنـ الـخـالـقـ ، اوـانـ اـلـهـ سـبـحـانـهـ خـصـهـ وـمـحـمـداـ بـمـالـمـ يـخـصـ بـهـ اـحـدـاـ مـنـ خـلـقـهـ .

وـمـنـ شـكـ فـيـ شـيـءـ مـنـ هـذـاـ فـلـيـقـرـأـ سـيـرـةـ عـلـىـ ؛ اوـ يـقـرـأـ بـعـضـ مـاـ كـتـبـهـ عـنـ عـلـمـاءـ الـفـرـبـ وـالـشـرـقـ - مـنـ غـيـرـ الشـيـعـةـ... وـ اـذـكـرـهـاـ كـلـمـةـ وـاـحـدـةـ مـمـاـشـرـهـ الـاـسـتـاذـ اـحـمـدـ عـبـاسـ صـالـحـ فـيـ مـيـجـلـةـ الـكـاتـبـ الـمـصـرـيـهـ عـدـدـ نـيـسانـ سـنـةـ ١٩٦٥ـ بـعـنـوـانـ «ـالـصـرـاعـ بـيـنـ الـيـمـيـنـ وـالـيـسـارـ فـيـ اـلـاسـلـامـ»ـ . وـالـاـسـتـاذـ

صالح من كبار الأدباء في هذا العصر، ورئيس تحرير المجلة المذكورة، قال : «لولم يسر على سيرته المئالية أكانت تبقى تلك الجذوة - يرى د جذوة الحق كما يدل السياق - مشتعلة وكامنة في النفوس» . أى ان عليا بسيرته المثلث اشعل في نفوس عارفيه وقارئي سيرته جذوة الحق .

ثم قال : «قاد معاوية جيش الشام ، وهو الرجل الذي يمثل النقيس من علي بن أبي طالب تماماً ، هو شخصية فريدة ، جمعت كل خصائص الرجل الذي لا تقبل حركته أية قيمة من القيم الدينية والانسانية .. انه ابن أبي سفيان الشهير ، وابن تلك المرأة التي مضفت كبد حمزة عم النبي حين سقط قتيلاً .. ان في نفس معاوية ارادة الانتصار والغلب .. ان فيه قسوة الاعصار ، وعبرية القدر الغاشم .. انه قطب السلب المطلق الذي يصرع في قلب الانسان كما يصرع في قلب الكون ، والسلب في الكون يتوجه إلى الشر ؛ والايجاب يتوجه إلى الخير ، وقد تصادم القطبان : السالب - اي معاوية - والموجب - اي علي - بقدر ما تتيح الا مكانية البشرية ان تكون سلباً مطلقاً ؛ او ايجاباً مطلقاً » اي ان علياً فيه جميع امكانيات الخير والحق التي يمكن ان توجد في - الطبيعة البشرية ؛ كما ان معاوية فيه جميع امكانيات الشر والباطل التي يمكن ان توجد في الطبيعة البشرية ، وقد تصادماً ؛ وكل على صفتة ..

ثم قال الاستاذ صالح : «لقد تربى معاوية في حجر ابي سفيان ران القوى الرجعية في مكة ؛ وتربي على في حجر النبي بكل ما تحمله النبوة من فداء وضحية وایجابية للخير المطلق»

أثبتت الاستاذ صالح للامام صفات الانبياء و الخير المطلق ، ولا عدائه صفات اللؤماء والشر المطلق ، وهل للعصمة من معنى وراء ذلك ؟ ولكن لوسائلنا الاستاذ صالح عن عصمة اهل البيت الاطهار لانكرها وتشدد في انكاره .. وهكذا كل من قرأ سيرة الائمة الابرار بقلب سليم يؤمن بعصمتهم في جنابه تماما كما يؤمن الشيعة وزيادة ايضنا ؛ ولكنها ينكرها بلسانه من حيث لا يحس ويشعر .

المهدي المنتظر عند الشيعة والسنّة

قد يظن ان فكرة المهدي المنتظر من خصائص الشيعة . وانها مقصورة عليهم وحدهم ... وهذا خطأ فقد شاعت هذه الفكرة قبل الاسلام في - اليهودية ؛ وشاعت ايضا في النصرانية ؛ وغيرها من الاديان ، واطلق على - المهدي المنتظر لقب والمنقذ والمحمر وال المسيح والمخلص - بتشديد اللام وكسرها - اما الاحاديث التي رواها السنة عن النبي في المهدي المنتظر فقد شغلت حيزا كبيرا من كتبهم ؛ ومنها الصحاح كالترمذى . وابن ماجة ؛ وابى داود ؛ ومنها مسنند احمد ؛ ومستدرك الصحيحين ، وكنز العمال ؛ وغير ذلك ؛ اما الكتب التي وضعها السنة في اخبار المهدي بالخصوص فكثيرة ، ولعلها لا تقل عن كتب الشيعة في هذا الموضوع كما وكيفا .

اذن فكرة المهدي المنتظر ليست شيعية فقط ، ولا سنّية فقط ، بل هي اسلامية يدين بها كل مسلم ؛ بل يدين بها اليهود الذين ما زالوا في انتظار المسيح ، وايضا يعتقد كثير من النصارى برجعة المسيح ثانية الى الارض ، وبعد ان اتفق الشيعة والسنّة اواكثرهم على ظهور المهدي المنتظر

وعلى اسمه ونسبة ؛ و كنيته ولقبه ، و انه يملأ الارض قسطا و عدلا ، بعد
هذا اختلفوا فيما بينهم : هل ولد ؟ او سوف يولد ؟ قال الشيعة : انه ولد ، و
انه موجود ، ولكنك مستور ، وقال السنة او اكثراهم : كلا ، انه يولد في
آخر الزمان ... وما هذا بالامر الهم ، مادام الاختلاف في التقاديم والتاخرير
لافي اصل الفكرة واصولها .

لما ذا الامام الغائب

اعترض السنة ؛ ومنهم الرازى والابيجى والمت指控 ابن تيمية ،
اعترضوا على الشيعة ؛ وقالوا : ما الفائدة من امام غائب ؟ لا يرى له اثر ولا
خبر ؟ .

وأجاب العلامة الحلبي في كتاب الالفين بان القصور جاء من الامة ،
لامن الله ؛ ولامن الامام المستور ، و حفظ هذا الجواب كل من جاء بعد
الحلبي ؛ وكرره في حلقات الدرس وغيرها ، كاية محكمة ، اورواية
مسلمة دون ان يفكروا فيما يمكن ان يقال عن هذا الجواب ، ويرد عليه .
وأجاب المحقق الطوسي في التجريد بان مجرد وجود المعصوم
لطف سواء اتصرف ام لم يتصرف ، وتبني هذا الجواب الملاصدرا ، ولكن
اورده باسلوبه الخاص في كلام طويل ، ذكره في شرحه لاصول الكافي كتاب
الحججة ، ونحن بدورنا نلخص ونوضح ما فهمناه من كلامه باسلوبنا الخاص
بلا ادنى تصرف في المعنى ، وهو ان المعصوم حججة ، ما في ذلك ريب ، ولكن
للحججة وصفان : الوصف الاول :

ذاتي أي ثابت للذات بصرف النظر عن تبليغ الاحكام وبيانها للغير ؛ والزامه

بها، والوصف الثاني عرضي واضافي ، وهو تبليغ الاحكام للغير ، والقاء الحججة عليه، وبديمه ان نفي العرض لا يستدعي نفي الذات؛ بل العكس هو الصحيح ، واحسن مثال نوضح به مراد هذا الفيلسوف هو ان الحججة كالماء المطلق ؛ ظاهر بنفسه، ومطهر لغيره؛ وطرازه الذاتية باقية على ماهي، وان انفت طهارة العرضية اى لم ينطهر بها المتنجسون . . وهكذا اذا لم تبلغ الاحكام للغير، فانها تبقى قائمة بنفسها، بل هي باقية ببقاء الله، وبهذا نجد تفسير قول الامام الصادق (ع) : «الحججة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق» . (١)

هذا توضيح لما فهمناه من كلام صدراء «المطلسم» والذى ختمه بقوله : «فافهم، ولا راك تفهم، لأنك لست من الطيارين ولا السيارين» اجل؛ يا استاذنا ولامن الغواصين في بحار التكويرن .

وبعدهم اجاب بمارواه مسلم في آخر باب الامارة عن رسول الله (ص) انه قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

بتقرير ان لكل زمان اماماً تجب معرفته ؛ وقال الفزوي في كتاب الامامة الكبرى: جاء في هذا الحديث ج ٢ ص ٩٦ من مسنده احمد بلفظ : «من مات بغير امام مات ميتة جاهلية» ومثله في حلية الاولىاء ج ٣ ص ٢٢٤ ، وكتنز العمال، كتاب أحكام البيعة؛ ومستدرك الحاكم .

هذا ملخص سريع لما اطلعنا عليه من الاجوبة، وسواء أكانت في واقعها ردأ وتفنيد الاعتراضات السنة ، ام كانت بسطا وشرح لعقيدة الشيعة بلا رد وتفنيد . فاننا نعطف عليها ما يلى :

(١) قد يكون المراد بالحججة في هذه الرواية – حكم الله سبحانه في كل واقعة من حيث هي ، يصيغها من اصاب ، ويختلطها من اخطأ كما يقول الشبيه .

ان الاصول الاولى للدين كالايمان بالتوحيد ونحوه – ينظر اليها من خلال العقل، ما في ذلك ريب، اما الايمان ببعض التفاصيل والغيبيات المترفرفة عن الايمان بالله وكتبه ورسله ، كالايمان بوجود الجن والملائكة فلا ينظر اليه من خلال العقل؛ او العرف والتقاليد، وابدا ينظر اليه من خلال كتاب الله ، وسنة نبيه؛ قال تعالى: «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة» اول البقرة فالايمان بالغيب هو الوصف الاول للمتقين وتأتي بعده اقامة الصلاة مع العلم بانها عمود الدين . والغيب هو الذي لا يمكن التوصل الي معرفته الا بالوحى من السماء من كتاب الله وسنة الرسول : «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو» ٥٩ـ الانعام» والايام بوجود المهدى المنتظر ايام بالغيب؛ وكل ايام بالغيب يقاس بالوحى وحده؛ فان كان له مصدر منه فهو حق وهدى؛ سواء اكان له اثر كالايمان باليوم الاخر، ام لم يكن كالايمان بوجود سفينة نوح ، ونافقة صالح؛ اذا لم يكن له مصدر في كتاب الله وسنة نبيه فهو جهل وضلاله، وقد ثبتت عند الشيعة النص عن المعمصون ان المهدى حى يرزق، فوجب ان يؤمنوا ويتبعدوا بهذا النص حتى ولو لم يثبت عند غيرهم، والا كانوا من الذين عناهم الله بقوله: «يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم» لان الشرط الاساسى لوجوب العمل بالنص هو ان يثبت عند الباحث عنه، والمطلع عليه ، لاعند غيره ، وليس من شك انه لو ثبت النص عند السنة على وجود المهدى الان وقبله وبعد لقالوا بمقالة الشيعة، وان لم يكن للغائب اى اثر وخبر، و ايضاً لو لم يثبت النص عند الشيعة لقالوا بمقالة السنة .

والاختلاف في ثبوت النص وعدمه كثير بين المسلمين، ومنه ماجاء في صحيح مسلم والبخاري كتاب العيدان – من ان ابا بكر دخل على رسول الله

في بيت عائشة، فوجدها ربيعاً تغنيان في محضر النبي، فغضب أبو بكر، وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله (ص)؟ فقال النبي: دعهما. فصدق السنة وآمنوا بان النبي كان يستمع لمزمار الشيطان على حد تعبير أبي بكر ، آمنوا ثقة بالبخاري ومسلم ، وانكر الشيعة ذلك، لأنهم لا يثقون بالبخاري ومسلم لا لأنهما من السنة فان الشيعة لا ينظرون الى مذهب الرواى ، بل الى صدقه في النقل، وروايته عن الصادقين، وقد ثبتت عند الشيعة، وعند جماعة من السنة ايضاً أن البخاري ومسلم يرويان الصحيح والضعيف: هذا من جهة، ومن جهة ثانية أن الشيعة ينزعون مقام النبوة عن الشيطان ومزماره.. ولكل رأيه ووجهته .

واذن: فالهم هو ثبوت النص عند من اطلع عليه بصرف النظر عن حقيقة الثابت بالنص و آثاره .. وعليه يمكن اعتراض السنة على الشيعة بعدم الخبر والاثر للإمام - في غير محله ، والاجاز للشيعة ان يعتريضاً على السنة لأنهم آمنوا بان الرسول استمع لمزمار الشيطان .

وتسأل: ان هذا يصلح جواباً لاعتراض السنة وانتقادهم ؛ ما في ذلك ريب. بل يصلح ردأً لكل شبهة تقال حول الإيمان بالمخيبات ، ولكن نود ان نعرف ما للإيمان بالأمام من فوائد. فهل لك ان تبين شيئاً من ذلك .

الجواب :

ان الأمة او الطائفة والجماعة لها مقومات تحقق وحدتها ، وتجمع شتاتها ، وترتبط افرادها بعضهم ببعض ، ويستحيل ان توجد الوحدة بين اثنين فضلاً عن الأمة او الطائفة الابجامع ورابط بينهما ، و الجامع الاول

بين المسلمين - على اختلاف مذاهبهم وطوابعهم - شهادة ان لا اله الا الله و ان محمدا رسول الله ، اما المسلمين السنة فتجمعهم هذه الشهادة مع اليمان بان النبي (ص) انتقل الى ربه دون ان يوصى ، و يستخلف احدا ، اما الجامع بين المسلمين الشيعة فهو شهادة ان لا اله الا الله و ان محمدا رسول الله مع اليمان والاقرار بالولاية للائمة الاطهار من اهل بيت الرسول ؛ و انه قد نص مباشرة على من كان منهم في عهده ؛ و بالواسطة على من جاء من بعده - كما اسلفنا - و اكدا الشيعة على هذه الولاية توكيدهم على التوحيد والنبوة ؛ و اوجبوا البحث و النظر لمعرفة الامام المعصوم تماما كما اوجبوا لمعرفة الله ونبوة محمد (ص) ، و قد استدلوا على ذلك بنصوص كثيرة ، منها « لا يكون العبد مؤمنا حتى يعرف الله و رسوله ، والائمة كلهم ، وامام زمانه »

والمراد بامام الزمان المعصوم الغائب من اهل البيت ؛ اما الحكمة من وجوده - كما ارجح - فهى ان هذا اليمان هو الضامن والكافيل لعقيدة الولاية واستمرارها مدى الحياة ، لان الاعتقاد بوجود امام من آل الرسول في جميع الازمنة ، وان الارض لوكيلت منه لساخت باهلهما - يشدهم الموالى ؛ ويدفعه الى الحرص عليها ، والاستماتة في سبيلها .. ومنذ ایام قرأت بعض حامل شهادة الدكتوراة في الفلسفة - كلمة تقول : « كيف استطاعت عقيدة التشيع ان تعيش في قلوب قوم الى اليوم بالرغم مما احاط بهم من اضطهاد فكري وسياسي ، بينما اندثرت فرق جديرة آراؤها بكل اعجاب وتقدير ، واعنى بهم المعتزلة » .

وقد غاب عن هذا المتعجب ان السبب لبقاء عقيدة التشيع وخلودها هو الايمان بولاية المعمومين من اهل البيت الاطهار: واحياء ذكرهم وآثارهم وسننهم ، والايام بان الارض لا تخلو من واحد منهم منزه عن الخطأ والخطيئة .. ولو ان المعتزلة دانوا وآمنوا بهذا الولاء لآل محمد (ص) لبقو وبقيت آراءُهم الى يوم يبعثون تماما كالشيعة والتشيع ؟ و لكنهم رفضوا ذلك ، فاندروا واندترت آراءُهم مع انها جديرة بكل اعجاب وتقدير على حد تعبير الدكتور المذكور، وكما سقط المعتزل لسقوط الى الابد كثير غيرهم كالنواصي ومن اليهم من اهل المذاهب .

هذا، الى ان الايمان بوجود الرئيس - مستورا كان ام مشهورا - يخلق في نفوس اتباعه قوة معنوية تجعل منهم اسرة واحدة ، وقلبا واحدا على اختلاف لغاتهم وتعدد اوطانهم ؛ ولهذه الغاية حفظ المسلمون من قبل على منصب الخلافة بعد ان اضمحلت الدولة العباسية ، واضطربوا وغيروا قبل منصب الحكام ان يبقوا القب الخليفة لواحد من العباسيين، يخطبون باسمه في المساجد وعلى المنابر، ويقدمونه في الاحتفالات الدينية وغيرها و ما كان له ائن ولا خبر الا لحرص على وحدة المسلمين والاخوة الاسلامية .. وقد ضج كثير من المسلمين عند سقوط الدولة العثمانية ، وقامت قيامتهم خوفا على منصب الخلافة من الضياع والزوال ، ورثاها شوقى باكثر من قصيدة ، وقال فيما قال :

قل للخلافة قول بالك شمسها بالامس لما أنت بدلوك

وقال من قصيدة ثانية :

الهندوالهة ومصر حزينة تبكي عليك بمدمع سحاج
والشام تسأل والعراق وفارس أمحامن الارض الخلافة ماح
وكلنا يعلم من هم الخلفاء العباسيون والاتراك العثمانيون ؟ . . .
ولكن الرثاء والبكاء كان على منصب الخلافة ، لانه اللواء الذى ينضوى
تحته كل من نطق بالشهادتين ، وهذى هي بالذات الحكمة من الايمان بالامام
الم sezء عن الخطأ والخطيئة وأن كان مستورا ، وهى حكمة بالغة تجمع
قلوب الموالين لالبيت على الاحسان المتحدد.. وقد ادرك هذه الحكمة
الانكليز ، وهم من ارقى الامم ، فحافظوا على التاج البريطاني ؛ ووضعوا
رسمه على العلم والسلع ايضاً للدلالة على انهم اسرة واحدة لاب واحد و
هو حامل التاج مع انه اسم لغير معنى ، و حاكم بلا امر ونهى . . ولا يصل
اليه احد من رعيته واهل مملكته الا القليل النادر .. وهكذا ميسكاد و
اليابان الذى ينظر اليه اليابانيون كاله او نصف اله .. فهل الانكليز واهل
اليابان عقلاً والشيعة مجاهين ؟

حياة المهدي المنتظر :

وتسأل: يقول الشيعة: ان المهدي محمد بن الحسن (ع) حي يرزق،
وان حياته سوف تتمتد الى آخر الزمان .. وليس من شك ان هذا جائز و ممكن
في نظر العقل، ولكن العبرة بالواقع؛ لا بالامكان ؟ .

وأجاب عن هذا بعض من سلف، وليته لم يجب .. قال: وأى اشكال
في ذلك؟ فالخضر حي، والشيطان حي ! .. ولو سمع اورقاً احد المتشككين
هذا الجواب لصار شكه يقينا ، وتحمل المسئولية نفس المجبib اذا لم

يمكن من الغافلين الذاهلين . . ولا درى كيف تجرأ على التمثيل او الا
ستشهاد بالشيطان ! . وكان الاولى ان ينزعه عن مقام العصمة والامامة ؟ .
والحق ان الجواب عن هذا السؤال لانجده عند العقل من حيث
الواقع الذى اراده السائل، وان حكم العقل بالامكان، ولكنه غير مراد
للسائل . . . ونجده الجواب جلياً واضحاً عند الدين ، ويستسيغه و يؤمن
به كل من آمن بالله وكتابه وسنة نبيه ، على شريطة ان يثبت عند النص
الصحيح الصريح على ذلك؛ وقد ثبتت هذا النص عند الشيعة دون السنة او
اكثرهم ، فأن من به اولئك ، وانكره هؤلاء وما اكثروا حديث ذلك . .
ولكل رايه وعذرها ؛ وما لاحد منهما ان يعترض على الاخر؛ لأن الشرط
الاساسى للعمل بالنص هو ان يثبت عند من يطلع عليه ، لاعند غيره ،
كما اسلفنا في جواب من قال : أية جدوى من الایمان بامام غائب ،
لاتهاته ولاخبر .

ومما قلناه في كتاب المهدى المنتظر والعقل : ان كثيراً من الناس
يخلطون بين الممتنع عادة، والممتنع عقلاً ، ويتعذر عليهم التمييز بينهما ،
فيظنون ان كل ما هو ممتنع عادة فهو ممتنع عقلاً .. فلقد اخبر القرآن
بصراحة لا تقبل التأويل ان السيد المسيح كلام الناس ، وهو في المهد ، و
ابراً الاكمه والابرس من غير علاج ، وانزل مائدة من السماء بمجرد
الدعاء ، وانه ما زال حيا ، وسيبقى حيا الى الوف السنين او الوف
الا لوف ! .

وان النار كانت بردا وسلاما على ابراهيم ، وان عصاموسى صارت

ثعبانا ، وان المهدى لان لداود ، وسبع معه الطير والجبال ، وان سليمان استخدم الجان ، وعرف لغة النمل والطيور .

وهذه الخوارق ممتنعة عادة ، جائزه عقلا ؟ ولو كانت ممتنعة فى نفسها لامتنع وقوعها على يد الآباء وغيرهم .

ولأنها جائزه في العقل ، واحبر عنها الشرع وجب التصديق ، فكذلك بقاء المهدى جائز عقلا واقع دينابشهادة الاحاديث الثابتة عن رسول الله و اهل بيته المعصومين ، والایمان بوجوده حياليس باعظم من الايمان بتلك الخوارق ، بل الجميع من باب واحد .

اشارة

ونختم الفصل بهذه الاشارة ، وهى ان فكرة العصمة والامامات من قريش ، والمهدى المنتظر والممتنعة كلها اسلامية ، لامذهبية سنية ، ولا شيعية ، لاتفاق المسلمين عليهما جمیعا وانما الاختلاف في الصغرى والتطبيق ، فالسنة ينسبون العصمة للامة ، وبعضهم ينسبها للشیخین ايضا بـ كرو عمر كما اسلفنا ، والشیعة يثبتونها للائمة الاطهار من آل محمد (ص) ؟ و السنة يعدون الـ 12 اماما من غير اهل البيت ، والشیعة يوجبون الحصر بهم ، والسنة يقولون : الممتنعة شرعت ، ثم نسخت ، و الشیعة يقولون : لم يثبت النسخ . ولو ثبتت عندهم لقالوا بـ مقالة السنة ، ولو لم يثبت عند السنة لقالوا بـ مقالة الشیعة ، والسنة قالوا : لم يلد المهدى بعد ، وقال الشیعة ولد . وهكذا في كثير من المسائل .

فَلَسْفِنْ مَعَ الْأَكْبَارِ

التعجب من المعاد هو العجب

انا واليوم الآخر :

ما شفقت بشيء شغفي بالقراءة عن حديث الحياة بعد الموت، والاستماع اليه، والى حل اسرار البعث والقازه و اي انسان لا يتوجه بكل حواسه، ويقبل بكلياته على الحديث عنه وعن مستقبله ، وبالخصوص اذا كان عن احيائه بعد الفناء ، وخلقها خلقا جديدا .. وايضا ماتخوفت من شيء تخويفي من القبر ووحشته ، ثم موقفى للعرض والحساب بين يدى عالم الغيب والشهادة .. ، اما جهنم فنخوذ بالله من لهبها وكلبها .

وكل الناس من ملوك وصعاليك ينتهون - لامحالة - الى قبر طوله خمسة اشبار او ستة في عرض شبرين ونصف او ثلاثة .. ولكن هل هذا اللحد هو غاية نهاية الانسان ، ونهاية عقله العجيب الغريب الذي يملك ما يملك من الطاقات ، ويفعل ما فعل وسوف يفعل من المعجزات ؟ . هل هذا اللحد هو جزاء الحق والعدل للصالح والطالح على السواء ؟ . وهل معنى الديمقراطية المساواة بين القاتل والمقتول ظلم او وعدانا ؟ وبين العالم والجاهل ؟ . واذا كان الامر كذلك فما فرق بين الا نسان والهوم والديهان ؟ .

وخير للإنسان الف من قات يعيش بلا عقل؛ ويمتلىء دماغه بالقذارة .
من أن يكون له عقل نير يرتفع به إلى القمر والمريخ ، ثم ينفتحى كما نفتحى
الحشرات والحيوانات .

واعجب من العجب أن يقول الإنسان : أنا ابن جلا ، ويرى نفسه من
الذوات والشخصيات ، ويطلب من الغير أن يحترمه ويعظمه ، وان يجزى
بالاحسان احسانا ، وبالسيئات عفوا وغفرانا ، وهو في نفس الوقت يعتقد
انه تماما كالنبات والحشرات ، وانه سيختفى إلى الابد !! .. واذن ، لماذا
تكرير الاموات ؟ والحفاوة بجنازتهم ورفاتهم ؟ . و لماذا اقامة الحفلات
لتخليد الذكر ؟ واحياء الآثار ؟.

لقد آمنت بالأمس الآخر اول ما آمنت تقليدا وتلقينا ، و شب هذا
الإيمان عن الطوق فى مدرسة النجف الاشرف ، و بلغ اشدھ بعد أن
امتهنت التأليف ، و اذعت ما عرفت عن هذا اليوم فى كتاب « الآخرة و
العقل » وفي العديد من كتبى ، كالاسلام مع الحياة ، ومعالم الفلسفة الاسلامية ،
و فلسفة المبدأ والمعاد ، ثم عدت إلى هذا الموضوع مرات ومرات فى
التفسير الكاشف لمناسبة آيات الساعة والحساب والجزاء .. والآن اعود
إليه فى هذا الكتاب ، ولاوقفات ولفتات جديدة لدى كى اعطفها على ما
اسلفت سوى تساؤلات تؤكد وتوضح الفكرة ودليلها – كمارأيت – ولذا
سأوجز الكلام ما استطعت .

وحدثت المعاد يمكن تلخيصه بها تين الكلمتين : « قال من يحيى
العظام وهى رعيم قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق علیم -

ويمكن ان يؤلف فيه مجلد ضخم ، و نتيجة الاطناب والايجاز واحدة ، وهى ان المعاد ممكّن عقلا ، و ثابت شرعا ، فيجب الايمان والتصديق .

لماذا انكر والبعث ؟

قد يقال : ان البعث والحياة بعد الموت من اصعب الحقائق فهما ، واكثرها غموضا ، و ابعدها عن التصور والشعور ، لان ما من احد رأى ميتا عاد الى الحياة بعد ان فارقها انسانا كان ام حيوانا ام نباتا .. واذن ، فأى عجب في قول من قال : « ائذاكنا عظاما و رفاتا ناعبها ثون خلقا جديدا - ٤٩ الاسراء » ، اى عجب في هذا كى يعجب منه سبحانه ، ويقول : « وان تعجب فعجب قولهم ائذامتنا و كناترا باعنا لفى خلق جديد - ٥ الرعد » .

الجواب :

لقد اراد سبحانه بهذه الآية ان البعث في ذاته سهل يسير على الافهام ، وان الغموض والتعقيد جاء من غفلة الجاحدين ، وسبات عقولهم عن الكون وانفسهم ، وانهم لواطنبيهوا وفکروا قليلا لفاسوا الآخرة على الدنيا ، وادرکوا من النظرة الاولى ان الذى قدر على خلق الاشياء من لاشيء عفه على جمع اجزاءها بعد التفرق والشتات اقدر ، وعليه ايسر ، كما قال ، جل شأنه : « وهو الذى يبدأ الخلق فم يعيده ، و هو اهون عليه - ٢٧ الروم » . وقد تكرر هذا المعنى بشتى الاساليب في العديد من الآ-

يات ، واجزه الامام (ع) بقوله : «عجبت لمن انكر النشأة الاخرى ، وهو يرى النشأة الاولى ! .. وعليه يكون العجب من البعث هو العجب ! .. « ومن اصدق من الله قيلا - ١٢٢ النساء » .

ولكن المصاين بداع القيل والقال قد ابوا الا ان يشككوا ويضللوها
قال الشيخ الانصارى في كتابه المعروف بالرسائل ، آخر باب الظن :
« الانصاف ان النظر والاستدلال بالبراهين العقلية - فيما يعود الى اصول
العقائد - للشخص المتفطن لا يفيد بنفسه الجزم ، لكثرة الشبهات في
النفس ، والمدونة في الكتب ، حتى انهم ذكروا شبهات يصعب ان يجib
عنها المحققون الصارفون اعمارهم في فن الكلام ، فكيف بغيرهم ... و
الشيطان يفتنم الفرصة لالقاء الشبهات ، والتشكيك في البديهيات ، وقد
شاهدنا جماعة صرفا اعمارهم فيها ، ولم يحصلوا منها الا القليل » .

واوضح دليل على صدق هذا الاستاذ الكبير انك كلما اكثرت من
قراءة كلام الفلاسفة ، وتوغلت فيها ازدت حيرة وارتباكا .

وبعد ، فان من تتبع اقوال الجاحدين لا يجد عندهم شيئا من المنطق
الامجرد الزعم بان البعث بعد الموت مستحيل الواقع ، لأنهم مارأوا ذلك
بالعيان والوجدان ! .. ومن أجل هذا كان رد القرآن الكريم في جميع
آياته يهدف الى ابطال هذا الزعم وخطئه .. ونعطي نحن على تلك الآيات ،
او تزويدها توضيحا بان نفي الامكان واستبعاده لعدم الواقع بالفعل - لا
يصلح دليلا ولا قرينة على النفي ، فبالامس القريب كان احفادنا ، وهم
الذين ألغوا الهاتف والطائرة والتلفزيون - مثلا - ولم يستبعدوا شيئا من

ذلك كما استبعدها نحن من قبل، كان هؤلاء الصغار الى ايام قلائل يستبعدون ولا يتصورون ابدا صعود الانسان الى القمر ، ويرونه فوق قدرة العقل ؟ و مع هذا صعد الانسان الى القمر ، ووطأه باقدامه وتحدى اهل الارض من فوقه ؛ وسمعه العالم كله حتى الاطفال.. بل رأوه يمشي، وينتقل عليه من مكان الى مكان ! ..

أبعد هذانقيس امكان البعث بالماًلوف والمعتاد ؟ . وما الناول للزهرة والقمر.. لندع السماء وما فيها ، وننظر الى اشياء هذه الارض صغيرها وكبيرها من النملة وطاقاتها الى الجبال والبحار ، ونفكر قليلا في عجائبها ، ولا بد ان ننتبه من هذا التفكير الى اتنا لولم نر النملة بالعيان والوجدان - فضلا عن غيرها - لاعتقدناها جازمين بانها من الممتنعات ذاتاً و عقلا... و هكذا حال البعث بعد الموت ما جحديه جاحد و استبعده مستبعد الا انه مارآه بعينه ، ولا مسه بيده .. وعلى منطقه هذا ينبغي ان ينكر ايضا الكثير من طاقاته الروحية والجسمية ، لانها لا تزال مجهولة لديه .

لماذا وجد الانسان:

ما هي الحكمة الالهية من خلق هذا الانسان الصغير بجسمه و حجمه ، الكبير بعقله و آثاره ؟ لقد اودع الله سبحانه في الانسان من - الاستعداد والطاقة مالا يودعه في أي مخلوق آخر ، وبهذه الطاقة وهذا الاستعداد بحث الانسان عن نفسه ، وعمارء الطبيعة ، وعن الطبيعة ، و سخر الكثير من اشيائها ؛ ولا يزال ، وسوف يسخرها او يسخر منها مالا تتصوره العقول والاوهمات.. هل الغاية او الحكمة من خلق الانسان ووجوده

ان يقيم فى هذه الارض امدا قصيرا ، ثم يذهب بلا رجعة تماما كما يدخل بعض المطاعم مختارا او مضطرا ؟ ثم لا يعود اليه ؟ وهل يحتاج هذا الدخول والخروج الى كل الطافات والاستعدادات التي زود الله بها الانسان ؟
ولاجواب لهذا السؤال الاعند خالق الانسان ، فهو وحده الذى يعلم ماذا أراد من خلقه .. ان الاطباء وعلماء التشريح يعرفون اعضاء الجسم ووظائفها ووجه الترابط بينها ، وتكيف كل عضو منها مع الآخر ، وعلماء الكيمياء يعرفون ما في جسم الانسان من مواد وعناصر ، وعلماء النفس يعرفون ما فيها من خصائص وغرائز حيوانية وانسانية ، وعلماء التاريخ يعلمون ما فعل الانسان وما عجز عن فعله ، وقد يعلم علماء الآثار عمر الانسان على هذه الارض .. اما الحكمة من خلق الانسان فلا يعلمها الاخلاق الانسان وموجده ..

وقال مؤلف معاصر : « لا يزال ورائع النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم ، كما ان علم الانسان بنفسه وبامكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الان ، وربما استطاع الانسان ان يعرف عن الكون المادي اكثر مما استطاع ان يعرف عن اسرار نفسه » .

ونحن نقول مع هذا المؤلف : ان الانسان يعرف عن غيره اكثر مما يعرف عن نفسه ؛ وان هناك اسرار الخلق الانسان لم تفسر بعد ، ونقول ايضا : ان النصوص القرآنية لم تتحدث بالتفصيل : وتبين بصراحة ما هو القصد الاول من خلق الانسان وجوده .. ولكن بوسعنا اذا امعنا النظر في بعض الآيات ان ندرك الحكمة من وجود الانسان ، وانه وجد في هذه الدنيا الفانية ليستعد ويهيئ نفسه لحياة ابقى واكملا ، فوجوده الاول وسيلة ، وجوده الثاني هو

الغاية .

قال تعالى: «ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين - ٣٦ البقرة» .

أى ان الانسان يتمتع في هذه الحياة، ويستثمر محاصلها وخيراتها ، انه يبني بيته، او يفتح متجراً ، او يفرس بستانه ، ولكن ما هو بالمالك الحقيقي لشيء من ذلك، وانما هو حارس يسلم ما في يده للأولاد الوافدين من بعده ، ثم ينتظر الاحفاد دورهم في التسليم والتسليم.. وفي نهج البلاغة: «ما زا يصنع في الدنيا من خلق للآخر» .

وقال سبحانه: «ان الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار - ٣٩

غافر» .

أى ان نهاية الانسان هي الآخرة؛ والنهاية هي الغاية بالذات . وقال : «أفحسبتم اننا خلقناكم عبنا وانكم اليانا لا ترجعون - ١١٥ المؤمنون» . أى ان كانت الحياة الدنيا هي الغاية من خلق الانسان ووجوده لكن خلقه عبنا لامعنى له.. واذن: فلا بد من وجود حياة ثانية للانسان تبقى ببقاء الله سبحانه . ومن هذه النصوص تبين معناها الحياة الاولى وسيلة لغيرها، وان الثانية غاية في نفسها .

وتسأل : وما تصنع بقوله تعالى : « اني جاعل في الأرض خليفة - ١٦٥ الانعام» . فان ظاهر الآية يومئذ الى ان الاستخلاف في الأرض غاية لا وسيلة ؟ .

الجواب :

ان آيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضاً، لأنها جمیعاً من مصدر

واحد ، وهناك آيات كثيرة تدل بصرامة على ان الله سبحانه واجد الانسان في دار الدنيا ليتهيأ فيها بالعمل الصالح لحياة أخرى ابعد اثرا من الاولى واعظم ، وفي هذه الحياة الاعلى ، يلقى الانسان الجزاء على ما قدم من اعمال في الحياة الادنى ..

قال تعالى : « هو الذي جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره - ٣٩ فاطر ». وقال : « يومئذ يصدر الناس اشتراكا ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - ٨ الزلزلة » وقال . « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا - ٧ الكهف » أى ان الله سبحانه واجد الانسان في دار الدنيا ليعمل ، و تظهر اعماله التي يستحق بها الثواب . والعذاب في الآخرة ، و عليه يكون عمله في الدنيا غاية من جهة و سيلة من جهة أخرى « وغاية بالنظر الى الامتحان و الابلاء طريق بالنظر و سليلة الى ان الابلاء و الامتحان الى النجاح او الرسوب في الآخرة .

ولا مانع من الجمع بين هذا المعنى ، وبين قوله تعالى : « اني جاعل في الارض خليفة » حيث قال المفسرون : معناه ان الله سبحانه واجد استخلف الانسان على الارض ليعمراها ، وينتفع بخيراتها ؛ لامانع ابدا من الجمع فالانسان يعمرا ، وينتفع ، وفي نفس الوقت يعمد صالحا . اى ان وجود الانسان في دار الدنيا عبارة عن عملية مزدوجة من العمل للدنيا ، والعمل للآخرة : « وابق في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا - ٧٧ القصص » .

سؤال ثان : وماذا تصنع بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس

الا يعبدون - ٥٦ الذاريات » فانه يدل بصرامة على ان الغاية من خلق
الانسان هي ان يعبد الله فقط لغير ؟

الجواب :

المراد بالعبادة هنا؛ كل عمل يرضي الله سبحانه من اى نوع كان و
يكون ، وليس من شك ان مرضاته ، جل شأنه ، هي السبيل الوحيد الى
الحياة الطيبة الدائمة ، وعليه يكون المعنى ما خلقت الجن والانسان الا
ليعملوا صالحا ، وبهذا العمل الصالح يحيون حياة دائمة في جنة قائمة ..
وبكلمة ان قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانسان .. الخ يرافق قوله : « وما
أمرنا الا يعبدوا الله مخلصين لها الدين - ٥ البينة » .

اى تكون اعمالهم كلها خالصة لوجه الله سواء اكانت من نوع
الركوع والسجود ، ام من نوع آخر .. ونتيجة الاخلاص في الاعمال هي
الخلود في جنات تجري من تحتها الانهار . اما الحديث القدسى : « خلقت
الخلق لكي اعرف » فمعناه ايضاً لكي يعملوا صالحا باخلاص ، لأن من
عرف الله حقا خاف من عذابه ، ومن خاف اتفى ، ومن اتفى فهو في جنة
المأوى .

لاتوحيد ولانبوة الامع البعث :

قالت طائفة من المتكلمين : ان المعاد ممتنع بالذات ، وان العقل
يستقل استقلالا تماما بعدم امكانه جسم او روحا فضلا عن وقوعه ، لأن
المعدوم لا يعاد ، وان من مات فات .. وتوقف آخرون عن الحكم نفيا
واثباتا .

وابطل العلم الحديث زعم المانعين والمتغسفين بعد ما ثبت حدوث المادة على اسس واقعية ، وانها تتحول الى طاقة . وان الطاقة ايضا تتحول الى المادة .

ووقفت طائفة اخرى موقفا مصادما من الطائفة الاولى ، وقالت بثقة وحزن :

«ان العقل يحكم حكماما مستقلا وباتاب وقوع المعاد جسما وروحانا فضلا عن امكانه .. وقالت فئة من الفئات : بل يحكم العقل باعادة الروح فقط ، لانها جوهر مجرد لا يقبل الفناء .. وقد تكون هذه الفئة وتلك الطائفة على حق .. ولكن دليلاهما مبهم ومعدن ، وفهمه يحتاج الى عقل كبير كعقل انيشتين واديسون اللذين قلبا العالم كله رأسا على عقب ، ودفعا به الى الامام مئات السنين .

اما نحن فنرفض هذا الافراط ، وذاك التفريط ، ونقف موقفا متواسطا بين الاثنين ، ونقول : ان العقل السليم يحكم بامكان المعاد حكماما مستقلا بصرف النظر عن العدل الالهي والنصوص الدينية ، ويحكم بوقوعه و انه حتم لا مفر منه ، ولكن مع النظر الى ثبوت النص والعدل الالهي ، امانتنا ثبوت النص فواضح بعدان تجاوز حد التواتر ، وبلغ الضرورة الدينية ، واما العدل الالهي فهذا بيانه :

ان الله سبحانه منح عباده القدرة ، والعقل والارادة ، ثم كلفهم وامرهم بالخير ، ونهىهم عن الشر ، وهم بالقدرة يفعلون او يتكون ، وبالعقل يميزون بين هذا وذاك ، وبالارادة يختارون فعل الخير او فعل الشر .. هذا

هو شأنه جل وعلام عباده .. وقد اطاعه منهم من اطاع ، وعصاه من عصى
في هذه الحياة ثم مضى كل من الصالح والطالح الى حفرته ، دون ان يشأب
المطبيع ؛ ويعاقب العاصي ، بل ان كثيرا من العصاة طفوا وبقوا ، وملأوا
الارض ظلما وفسادا؛ ولم يحاسبهم محاسب ، ويسأله سائل .

فإن افترض انه لا بعث ولا حساب غدا فمعنى هذا ان الظالم والمظلوم ،
والمؤمن والجاحد عند الله سواء بـالجائز والمفسد خيرا وافضل عنده سبحانه
من العادل والمصلح ، والطاغية الباغية اكرم عليه من استشهد في سبيل
الحق والانسانية . . وليس من شك ان هذا يتنافي مع عدل الله و حكمته و
قدرته ، بل و مع وجودها ايضا . . تعالى الله عن ذلك علو اكيرا . . وقدرأينا
كثيراً من المظلومين يصرخون من الاعماق قائلين : لو كان الله موجوداً
لما ابقى طاغية على وجه الارض . . وليس هذا القول الا انكاسا عن غريزة
الايمان بوجود عادل قادر يقتضي للمظلوم من الظالم ، ولكنهم تجلوا
القصاص لحرقة الالم ، وذهلوا عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فقالوا اما
قالوا ، وهم في قرارة نفوسهم من المؤمنين .

ومما قلته في التفسير الكافش : ان اقوى الادلة على ثبوتبعث قوله
تعالى : «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ان الله سريع الحساب
١٧ غافر». ان هذه الاية تحمل برهانها معها ، و تدل على نفسها بنفسها ..
«اليوم تجزى كل نفس بما كسبت» ولماذا ؟ . لانه لاظلم عند الله ، بل هو
سرريع الحساب .. والتحليل العلمي لهذه القضية انه لو لا هذا اليوم الذي
تجزى فيه كل نفس بما كسبت لكان الله ظالما لا عادلا ، ووجوده نعمة لا .

رحمة ، وتكليفه عبئاً لاحكمة .. سبحانه وتعالى عما يصفون .. والنتيجة
الحتمية لهذا المنطق ان كل من انكر البعث والحساب والجزاء فقد انكر
وجود الله ، لاعده فقط من حيث يرى ، او لا يرى .

هذا ، الى ان فكرة البعث تقضى على فكرة العدم التي تفرق الانسان
في الشعور بالتفاهة والضياع ، وتقتل فيه معنى وجوده وتسلط عليه اليأس و
الكابة .. الامر الذى يحطم حياته او يدفعه الى الاستقرار المجنون فى
الفردية وانهاب المللذات وبعد ، فلاتوحيد ولا نبوة الامر البعث والحساب
والجزاء ولا بعث ولا جزاء الامر التوحيد والنبوة ، فكل واحد من الاصول
الثلاثة متمم للآخر ، وبالجميع يحكم العقل مباشرة او بالواسطة ، وبهذا وحده
يطمئن القلب ، ويجعل للانسان معنى ، وللحياة حقيقة ، قال انيشتين : ان الشخص
الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيساً فحسب
ولكنه غير مؤهل للحياة » وقال افلاطون : لولم تكون للانسان حياة ثانية
لكان القرد اشرف منه .

وقال الفيلسوف الالمانى « كنت » : على الانسان ان يكون فاضلاً فى
اخلاقه و اعماله كى تتحقق له السعادة ولن تتحقق بحال الا اذا آمن بالله
حكيم خبير ، يعلم النوايا الطيبة ، و يجازى عليها ، و يكون الله وحده
هو الكفيل والضامن لسعادة الطيبين .. ولما كانت الحياة الدنيا لاتتحقق
الجزاء الذى يفرضه القانون الاخلاقى فان الموت لا يمكن ان يكون
نهاية حياة الانسان ، ولا بدان تكون الروح خالدة لكي تستطع مواصلة
طموحها ، والاقتراب من غايتها ، وهذا لا يكمن بطبيعة الحال الافقى حياة

آخرى .

وقال جماعة من الفلاسفة : ان الله سبحانه قادر عظيم و علیم حكيم
فیستحیل ان يوجد الادنى حيث يمكن وجود الاعلى و ای عاقل يختار
النقص على الكمال ، والعدم على الخلود ؟ . وليس من شك ان خلق
الانسان لحياة باقية او لی واعلى من خلقه لحياة فانية .

المعاد الجنسي :

المعاد الجنسي ممکن عقلا ، و ثابت شرعا بصریح الكتاب والسنة
المتوافرة ، واجماع المسلمين كافة في كل عصر ومصر حتى اصبح ضرورة
دينية ، والایمان به من اصول الدين الاساسية التي يجب البحث والنظر
لمعرفتها تماما كالتوحيد والنبوة ، ومن انكر المعاد جسما و روحًا ، او
جسمًا فقط فقد انكر الجنة والنار من حيث يريدوا لا يريد ، لأن اوصافهما
في النصوص مادية تبصر بالعين ، و تسمع بالاذن ، و تذائق بالفم : و تلمس
باليد ، كالغرف والاشجار؛ والکؤوس والانهار ، والمحور والولدان ، والحدائق
والاعناب ، ولا موجب للتأويل بعد حکم العقل بالامکان ، وليس من شك
ان انكار الجنة والنار رد صریح على ما ثبت بالضرورة عن الله و رسوله .

اما القول بان هذه الاصفات كنایة عن لذة الروح او ألمها ، وان الحکمة
من هذه الکنایة مجردة ، غیب والترهیب ، او مجردة التقریب الى الاذهان ،
او هماما ، اما هذا القول فبهم ، ورد على الله ورسوله بطرح النصوص القطعية
متنا وسندآ . . و فوق هذا فنیعن لا تتصور راحة و تعبا ، ولذة وألمان من غير
جسم؛ كمالا تتصور جسما يقبل بالماء ، لا لشيئي الا ان ظله قد ارتس فيه

وايضاً لا تصور ان كوبك اعظم مما تسعه من آلة صغيرة لان صورته فقد انك كست فيها ..
 ان المللذات الروحية وآلامها ترتبط بالجسم ارتباطاً وثيقاً.. حتى الحب العذري
 يعتمد على النظارات والابتسامات وعلى عنوابة الحديث واسلوب الحركات ..
 وقد ثبتت في العلم الحديث حركة بالحياة ولاندرى : هل ثبتت فيه حياة بلا
 حركة او حركة بالجسم؟

اقول هذا وقد فرأت اقوال المتصوفة وبعض الفلاسفة عن نشوء الروح
 ومر حها ببهجة العقل واشرافه حين يتحرر ان من ظلمة الجسم وكثافة المادة
 فرأى الكثيرون من هذا النوع ولكنى ما فهمته ولا هضته ولماذا؟ . هل لانه
 كلام فارغ لا يحصل له اولان فهمى بل يدو آسن .

وقال صاحب الاسفار : ان السيف يسيف بحده لا بحديده . . ونقول له :
 ولاحد للسيف من غير حديد . . وان قال : ان الحديد محمول لا حامل وقابل
 لافاعل قلنا في جوابه : لا اثر للفاعل الا بوجود المفعول . . واذن فالزبد منهما
 معاوهذه هي الحال بالنسبة الى الروح والجسد فلا ينفع لا احدهما عن الآخر
 حيث لا توجه متعطلا بطالها الا به ولا يشعر هو الا بها (١) .

ومن اجل هذا آمنا وآمن كل عارف باعادة الانسان روحه وجسمها
 تماماً كما كان في حياته الاولى ولاغرابة فان قدرة الله لا يعجزها شيئاً ولا
 تفتقر الى اداة وآلة .. انه يقول لغير الكائن كن فيكون وللإنسان الذي صارت ابا
 وعظاماً عدالى سير تلك الاولى فيعود بجسمه وحجمه، ودمه ولحمه وبملامح
 وجهه وخطوط اصابعه وعدد شعرات رأسه وبذاته التي تختلف في كل فرد

(١) صاحب الاسفار يقول كذا المعاد الجناني، ويصر عليه، وذكر هذه الجملة
 «السيف بحده لا بحديده» تمهيداً لاثباته، وناقشه بقصد التوضيح ودفعاً للالتباس .

عن الآخر من هذا الإنسان الأول إلى الإنسان الآخر كل هذه وغيرها تعود إلى سابق عهدها كما كانت تماماً وكما لا .

وتسأل : هناك أدلة تقول : الإنسان بعد موته ، وقبل بعثه أاما في عذاب ، وأما في ثواب ، حسب عمله ، وإذا كانت الروح لاتحس بشفاعة أو هناء بدون الجسم - كمقابلات - تكون هذه الأدلة حكماً بالاموضوع ، ولفظاً بلا معنى ، لأن جسم الإنسان خلال هذه المدة تراب ويباب ، وابعدما يكون عن روحه ؟ .

الجواب :

يجوز في حكم العقل والعدل أيضاً أن الروح بعد ان تفارق جسمها الطبيعي تتصل بجسم آخر مثله ، ويكون هذا الاتصال سبباً لنعيمها أو جحيمها تماماً كالماء يبرد بالثلج ، ويُسخن بالنار .

وروايات أهل البيت(ع) تدل على ذلك قال الإمام الصادق(ع) : إذا قبض الله أرواح المؤمنين صيرها في قالب كفالتها في الدنيا فإذاً كلون ويشربون ويتعارفون قال الشيخ البهائي : وامثال هذه الأحاديث من طرق الخاصة كثيرة ؛ وروى العامة ما يقرب منها انظر الأربعين حديثاً ص ١٩٠ وما بعدها لهذا الشيخ الجليل .

وليس لفائل أن يقول : إن هذه المادة الجديدة لم تأت بجناية ؛ ولم تدراها الغاية ؛ فكيف يتخذا الله من عذابها وسيلة لعذاب الروح التي جنت وآخطأت ، لا يتحقق لأحد أن يقول لهذا كمالاً يتحقق له أن يقول : ما ذنب الخطب حتى يحرق ، والقمح حتى يطحون ، والحجر حتى يكسر ؛ لأن كل ذلك وما

الى غير قابل بطبعه للالم والعذاب.. وانما اتخاذ سيلة اليه .

وقال صاحب الاسفار في ج ٢ من السفر الرابع طبعة ٣٧٩ هـ : ان النفس بعد ان تفارق البدن تدرك بقوتها الخيالية الجزئيات و الماديات، ومن ذلك ما يحدث لبدن الميت في قبره ، ونعيم النفس وجحيمها انما يكونان بمجرد تصورها لما يعرض لبدنها المقبول، وان سعة القبر عبارة عن ان شراح الصدر ، وضيقه عبارة عن ضيقه . ثم قال صاحب الاسفار في ص ٢٢١: « ان النفس اذا فارقت البدن بقى لها من البدن امر ضعيف الوجود ، فوق في الحديث النبوى التعبير عنه بعجب الذنب » . بفتح العين اي اصل الذنب .

وان دل هذا القول على شيء فانما يدل على ان النفس لاتتألم و لاتنعم الا على صعيد البدن او تصوره - على الاقل - .

الأكل والماكول :

وتسأل : ان للمعاد الجسماني محاذير ، و اهمها الشبهة الذائعة والمعروفة بشبهة **الأكل والماكول** ، وهى كما في الاسفار: «احتى من انكر البعض بأنه ان اكل الانسان انسانا فالاجزاء الماكولة ان اعيدت في بدن الأكل لم يكن الانسان الماكول معادا ، و ان اعيدت في بدن الماكول لم يكن الأكل معادا ؛ ولزم ان تكون الاجزاء الماكولة بعينها منعمة و معدبة اذا اكل مؤمن كافرا »

واجيب عن ذلك في الكتب الكلامية بان المعاد هو الاجزاء التي منها ابتداء الخلق ؛ و هي الاعضاء الاصلية عندهم ، والله يحفظها ، ولا

يجعلها جزءاً البدن آخر» .

ثم قال صاحب الاسفار ما معناه : ان هذا الجواب لا يفي بالغرض ، والحق ان كل ممكן في نظر العقل ، ودل عليه الوحي يجب الامان به ، والبعث الجسmani ممكן عقلاً ، وثبتت وحياناً ، فوجب التصديق والامان .. اما اقىسة الفلاسفه واهل المنطق فما هي بمعصومة عن الخطأ .. مع العلم بان صاحب الاسفار اجاب عن هذه الشبهه في غير مكان من اسفاره بهذه الاقىسة التي لا تغنى عن الحق شيئاً .

جهنم والأسلحة الجهنمية .

وتساؤل : لقد ذكر سبحانه في كتابه صور العذاب اهل النار ، قراءتها تبعث الرعب في القلوب والنفوس ؛ والقشعريرة في الجلود ، و التوتر في الاعصاب ، فكيف بمن يذوق ويختبر .. ومن هذه الصور حشر المجرمين مكبلين بالقيود ، يلبسون ثياباً من مادة شديدة الالتهاب ، وعلى وجوههم غطاء و غشاء من نار ، اما طعامهم فمن شجر الزقوم ، و شرابهم من ماء الصديد ، هذا و هم في جحيم لا يقضى عليهم فيموتوا و لا يخفف عنهم العذاب .. ألا يتناهى هذا مع حلم الله ورحمته : وجوده ورافقه ؟ ألا يكفى لجزاء هذا الانسان بلحمه ودمه بعض هذا الجحيم الاليم ؟.

الجواب :

ان في الناس مجرمين يستحقون هذا النوع الاليم و اكثر منه ايضاً لواطن .. و من هؤلاء الذين يستحقون للاحيا السنن السيئة ، و يحاربون الحق ، او يكتمونه وهم يعلمون ، و اعظم منهم جرماً تجاه

الحروب الذين اعدوا السفك الدماء و تدمير الحياة الاسلحة الجهنمية كالقنابل الذرية والهيدرو جينية ، والمواد السامة التي تقتل الالوف و مئات الالوف في دقائق معدودات .. ان اية عقوبة يعاقب بها السفاحون فهى دون ما يستحقون ..، وليست السلائل والاصفاد وسراويل القطران بشيء في جانب تدمير البلاد وتشريد العباد ، وسلب اقوائهم ومقدراتهم وتشريدهم وقتلهم بمئات الالوف .. وبكلمة ان الجريمة بنوعها او اثراها، لا بصورتها ومظاهرها .

هل هذا علم و تحقيق ؟

وهنالك مسائل كثيرة ذكرها صاحب الاسفار وغيره في مباحث المعاد، واعرضنا عنها انها لا تصل بالبعث من قريب او بعيد ، ونشير هنا الى مسألة واحدة منها كشاهد ومثال ، قال صاحب الاسفار في الجزء الثاني من السفر الرابع في مبحث من مباحث المعاد ص ١٤٤ طبعة سنة ١٣٧٩ هـ : قال مانصه بالحرف :

« العنقاء محقق الوجود عند العارفين لا يشكون في وجوده كما لا يشكون في البيضاء وهو طائر قدسي ، مكانه جبل قاف ، و صغيره يو قظ الرادين في مرافق الظلمات ، صوته ينبعه الفافلين عن ذكر الآيات ، ونداوته ينبعه الى اسماع الهاطين في مهوى الجهات المترددين كالحيارى في تيه الظلمات » .. الى آخر هذه المبهمات والمعميات .

وقال المعلق على الاسفار : جبل قاف اي قاف القدرة اذا انظرنا الى فوق ، وقف القلب اذا انظرنا الى تحت .

ولادرى : هل هذا كشف علمى حديث يثبت المعاد بالتجربة والعيان ، ويحمل الباحدين على التسليم والاذعان ، او هو نوره دينية انسانية ضد الجهل والفقر والتخلف ، او هو عبادة وتقديس ، او هو مجرد حيرة وببلة ، او ماذا ؟ .

ان الاسلام - كما حددته القرآن والسنة النبوية . سهل يسير لا يحتاج فهمه الى منطق فلسفى ، وتفكير علمى .. انه واضح وبسيط يمكن شرحه بمنطق النطرة فى سطرين فقط ، و يمكن ان يشرحه العلماء فى مجلدات ..

ومن اجل هذا خاطب به سبحانه الاذكياء والبلداء ؛ و حملهم المسؤلية .. كل بحسبه .. واى شىء ادل على ان الاسلام هو دين الفطرة والبساطة . من دعوته تعالى كل عاقل ان يتوجه بنفسه الى الكون و ما فيه ليتعرف على عجائب خلقه ، وبه يستدل على وجود الخالق الحكيم ، وان الذى بدأ الخلق اول مرة يعيده ، وهو بكل شيء عاليم ؟ .

وبعد ، فانى احمد الله الذى هداني الى معرفته ، والتمسك بالنبي و ولایة الصفوۃ من عترته و اشكره على توفيقى الى هذا الكتاب وغيره مما كتب و اذعنت .. وما شعرت بالغبطة والسعادة كشعورى - وانا اختم كتابى هذا بفلسفة المعاد - فى مشهد الامام الرضا (ع) وجواره مساء (ه) جمادى الاولى سنة ١٣٩١ه الموافق ٢٦ حزيران سنة ١٩٧١م . وهو سبحانه المسؤول ان يجعل جزائى عليه ، وجزاء من استفاد منه واهتدى به شفاعة النبى و آله الابرار يوم تسود وجوه ، وتبين وجوه . انه خير مسؤول ، والصلة على محمد واهل بيته ، وعلى كل من استن بسنتهم ، ومات على ولايتهم .

بَيْنَ الْعَيْنَةِ وَالرَّسَمَةِ

قصة هذا الفصل

لاحظت ان تلاميذى فى دار التبليغ الاسلامى بمعزل فى معرفتهم عن الاتجاهات الفكرية والمذاهب السائدة فى هذا العصر، وانهم لا يفرقون بين الاشتراكية والشيوعية؛ وبعضاهم لم يسمع من قبل كلمة الرأسمالية فضلا عن معرفته بحقيقة واهدافها.. ومن الطريق ان احدهم قالى فى اليوم الثانى من القاء الدرس : مارأيت هذه الكلمة فى كتب اللغة .

فكتبت ملخصا لهذا الموضوع ، والقيته عليهم ليكونوا على بصيرة من اصوله الاساسية – على الاقل – وايضاً جعلته احدي مواد الامتحان ، وكانت النتيجة مرضية ، والله الحمد .

وما كان من قصدى ان اجعل هذا الملخص فصلا من كتاب فلسفة التوحيد والولاية؛ ولكن احد تلاميذى المتفوقين فى التحصيل والامتحان حدثنى بما اغتبطت به ، وحمدت الله عليه، قال : ضمنى مجلس مع بعض الشباب فى احدى مدن ايران، فتحدىواعن الانظمة الاقتصادية، واشتركت فى الحديث وتفوقت كما رأى من حضر وسمع ، والفضل لله ولدرسك هذا، ولو لا ما كان امامى الا الصمت او القول بغير علم، لانى لم اكن من قبل على العام بالموضوع فشكرت الله سبحانه وقلت فى نفسي لولم يكن لوجودى فى قم سوى هذه

للكفى وادرجت التلخيص هنا رغبة في المزيد من النفع والفائدة ، وعليه سبحانه المعمول .

فلسفة الشيوعية ونظامها الاقتصادي :

للشيوعية فلسفتها الخاصة بتفسير الكون والانسان بصرف النظر عن الاقتصاد ونظامه ، وايضاً لها نظام يختص بالثروة وتوزيعها؛ واذن ، فموضوع كل من فلسفة الشيوعية ونظامها الاقتصادي مستقل عن موضوع الآخر ، وان كان هذا النظام وثيق الصلة بتلك الفلسفة ، ولكن الصلة غير الموضوع كما ان الانسان غير الماء مع قوّة الصلة بين الاثنين .

وفلسفة الشيوعية بوجه العموم تمثل في ان المادة هي الموجود السبق من كل موجود، بل هي الموجود الوحيد الذي لا شيء غيره في الوجود كله واطلق الشيوعيون على هذه الفلسفة «المادة الجدلية» بالنظر الى ان المادة تتغير وتتحول من الشيء الى نقضه باستمرار والى مالا نهائية.. وفرع عاumi هذه الفلسفة ان الانسان في جوهره ومهنته مادة صرف وانه من صنع الطبيعة وحدها ، وانه يفنى ويزول كلية بالموت تماماً كنسبة الربيع ، وانه لا طبيعة بشرية عاقلة بالذات ، ولا قيم لها مطلقة ، ولا هي بمعنى واحد عام لا فراد انسان في كل جيل ، لانه لا شيء في الواقع سوى كائن طبيعي اسمه الانسان ، يندمج مع غيره من الكائنات الطبيعية « وليس ما يمنع ان يتتحول في المستقبل الى كائن آخر يكون مفهومه غير مفهوم الانسان الحالى ، وايضاً ان يكون هذا الكائن الآخر هو النهائي و الحاسم ، بل يتتحول الى ثالث ، والثالث الى رابع .. الى مالا نهائية .. ففي كل حقبة من

التاريخ طبيعة بشرية جديدة تختلف عن غيرها من الحقب » .

اما الذى نراه فى الانسان من احساس وادراك وارادة فهو جانبي ثانوى يتفرع عن المادة ويقول منها .. وبالقلم العريض ان كل ما فى الانسان من خصائص كالعقل والارادة وغيرها من الفرائز ان هو الا من افراز جسمه واعضائه تماما كالعرق والمخاط وسائل الفضلات .

هذا هي الفلسفة الشيوعية فى جوهرها واقعها .. اما الفلسفة القرآنية فانها تعرف بانسانية الانسان ، و تفضيله على المادة ، وان الله خلق باله ولصالحه ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم .. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا - ٧٠ الاسراء ». وقال : « الله الذى جعل لكم الارض قرارا و السماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات -٤٦ فصلت » .

وبعد هذا العرض الموجز نسأل الشيوعيين : هل قولكم : المادة هي الموجود الوحيد هو من وحي المادة او من غيرها ، فان كان من غيرها فقد ناقضتم انفسكم و اعترفتم بان المادة ليست هي الموجود الوحيد ، وان كان قولكم هذا من وحي المادة نفسها احتاج اثباته الى دليل مغاير للمادة لأن الشيء لا يكون دليلاً ومدلولاً ، ومدعياً وحاكماً؟.. والمفروض انه لا شيء في الوجود إلا المادة ، و بالتألي فلادليل على ماتزعمون .. وايضا اذا كان العالم كله مادة وجب ان تكون خصائصه واحدة من غير فرق بين الانسان وغيره من الكائنات ، ولا وجہ لظهور الحياة في مادة دون مادة .. ثم هل تدرك المادة نفسها بنفسها؟.. وجہ هذا السؤال للشيوعيين

لأنهم ردوا على المثاليين بان الذات المدركة – بالكسر – غير الشيء المدرك – بالفتح – وايضا اذا لم يكن للبشرية من قيم فلماذا تقديس الشيوعية وعبادتها ؟ .. وبالتالي اذا كان الانسان مادة وكفى فيجوز تسخيره واستعباده، بل واكله ايضا كما جاز ذلك في غيره من الاشياء المادية.. واذن فعلام الصلاح والصلاح للمطالبة بحقوق العمال ماداموا في حقيقتهم كآلية التي صنعواها واداروها باليديهم ؟ اما عقولهم واحساساتهم فهى ثانية لاقيمتها لها ، لأنها تولدت من المادة ذاتها تماما كالعرق والمخاطر والفضلات ؟.

اما النظام الاقتصادي الشيوعي فانه يلفي الملكية الخاصة الفاسدة تماما ، ويحررها تحريرا مطلقا حتى ملكية الانتاج نفسه ، و السلع الاستهلاكية فضلا عن الوسائل المنتجة كالارض والآلية والعمل ، بل لا يتحقق للانسان ان يملك ثمرة عمله بالذات برغم ان الشيوعية تفرض عليه ان يعمل حسب طاقته : ومع هذا لا شيء له من كديعيمته ، وعرق جبينه الاما يملاء عينيه بويكسوجلده ، وما يأوي اليه عند مبيته تماما كوحش الغاب ، وان كان مخترعا مبدعا .

والغريب ان انصار الشيوعية يعتبرونها قمة القمم ، ونهاية النهايات؛ وفي الوقت نفسه يؤمنون بان كل شيء يتغير ويتحول الى ضده حتى اذا وصل هذا الضد الى درجة معينة تحول الى ضده .. و هكذا الى مالا نهاية ؛ ومعنى هذا ان التحول والانقلاب ضروري حتمي ، فكيف تكون الشيوعية اذن ، هي القمة والنهاية ؟

طبيعة الرأسمالية ونظامها

الفرق بين المالك والرأسمالي عموماً وخصوصاً مطلقاً، فكل رأس مالي هو مالك، ولاعكس ... فقد يملك الإنسان بيته يسكنه أو بستاناً أو حانوتاً يستثمره في سد حاجاته دون أن يمكنه من السيطرة على غيره، وهذا يسمى مالكاً فقط، أما المالك الرأسمالي فهو الذي يملك من المال ما يقوى به على غيره، ويستطيع بواسطته أن يتحكم بباب الحياة العامة ولو بجهة من الجهات .. وكثيراً ما تطلق كلمة «برجوازى» على الرأسمالي .. وقد استخلصنا هذه التفرقة من الاستعمال الدارج، والرأسمالية بطبيعتها عدوة الأديان والأنسانية . لأنها توغل في احتقار الضعيف والمحروم وتعتبره آلة يتحرك لينتج الارباح لاصحاب رؤوس الأموال ، فهم وحدهم محور الوجود وغايته ، و غيرهم وسيلة لتكديس الثروات في مصارف الآثرياء .. و نتيجة لذلك يرى أصحاب رؤوس الأموال أن أي شعب يحاول الاستقلال الاقتصادي والاكتفاء الذاتي عن سلعهم و مصانعهم فهو العدو والأخير للدول الصالحة وجودهم و حياتهم ، يدبرون ضده المؤامرات والانقلابات، و عمليات التخريب والتجسس ، ويشنون عليه الغارات سراً أو علانية ، و يقفون ضده في الأمم المتحدة ؛ و يضيقون عليه الخناق اقتصادياً حتى يموت جوعاً .. بل لواقام أي إنسان مصنعاً في جزء من الأرض ينتج سلعة ما ، ولو من نوع «العلكة» اعتبره الرأس ملايين هزيمة لهم ، و طعنة في قلوبهم ؛ لأنـه يقفل مصنعاً مماثلاً من مصانعهم .

وبعد فاذا كانت الشيوعية تقف موقفا عدائيا من الاديان و العقائد التي ترفضها ولاتدين بها فان الرأسمالية حرب على كل شعب يبتغي التقدم على المستوى الاقتصادي ، و يرفض ان تكون مقدراته و خيراته نهبا لشركات «العالم الحر» وان يكون سوقا لسلعها وانتاجها .

النظام الاشتراكي:

والنظام الاشتراكي انواع متعددة و مختلفة ؛ ولكنها - على وجه العموم - يؤمم مصادر الثروة الكبرى كالبترول و غيره من المعادن ، و الصناعة الثقيلة ، ويلغى الاقطاع والاحتكار ، ويفقر الملكية الخاصة فيما عدا ذلك ، ولكنها يضيق عليها الخناق بفرض القيود والشروط التي تقلل من اظافر أصحاب المال ، و تجردهم من السيطرة و النفوذ ؛ و تقرب بين الافراد والطبقات من الوجهة المادية؛ و لاتلغي الطبقية من الاساس في المجتمع الاشتراكي - كما رأى احد الباحثين - .

و اذا امعن النظام الاشتراكي في كثرة القيود على الملكية الخاصة ، و اضعاف رأس المال - قرب من النظام الشيوعي ، و يسمى بالاشتراكية اليسارية ، ومثاله ان يؤذن للفرد بحيازة عشرة دنمات من الارض فقط ، و اذا خفف القيود عن الملكية الخاصة قرب من النظام الرأسمالي ، و يسمى بالاشتراكية اليمينية ، ومثاله ان يحدد ملكية الارض بمئة دنما او اكثر ، و اذا لم يشدد ولم يخفف يسمى بالاشتراكية المعتدلة ، كما لو جعل ملكية الارض ٥ دنما .

و اذا نظرنا الى الاشتراكية كنظام اقتصادي و كفى بصرف النظر

عن فلسفة اربابها وعقيدتهم ؛ وبلاهوى وتحيز ، اذا نظرنا اليها كذلك الفينا لها حسنات و سيئات .. فمن حسناتها ان الفئة القليلة المستغلة – كالرأسماليين والاقطاعيين و سمسارتهم – اختفت او كادت من المجتمع الاشتراكي .. وايضا كان الرأسماليون و ارباب المصانع يستغلون العامل استغلا لا بشعا حيث كان يعمل اربع عشرة ساعة في اليوم باجر زهيد حتى اذا شاخ او مرض طرحوه كالقمامنة ، فاضطرتهم الاشتراكيه ان يعترفوا للعامل بحقوقه او بعضها كتحديد ساعات العمل ، وزيادة الاجور مع نفقات التطبيب ، والالتزام بقانون الضمان او العدل الاجتماعي كما اضطرتهم ان يبسطوا كف الهبات لبعض المشاريع والهيئات خوفا من العواقب و حرصا على المكاسب .

ومن سيئات الاشتراكيه ان الغرض الاول من تشرعيها هو الاصلاح الجذرى وقطع الطريق على المظالم والمحاسد – كما قال الاشتراكيون – فهل تتحقق هذا الغرض في البلاد الاشتراكية ، وفالكل واحد من اهلهما وابنائهما الفوز العظيم او سلك الطريق القوي اختيارات او اضطرارا ؟ . اجل ان الاشتراكية حرت الكثير من ظلم الرأسماليين و الاقطاعيين ما في ذلك ريب ولكنها اعادتهم من جديد الى دكتاتورية البروليتاريا اليغدوا آلة لانتحار الاباراده الحاكmine ؟ .

ولماذا سلطة العمال فقط لغير ؟ . لأنهم مقصومون عن الخطاء و الخطيئة او لانهم وحدهم العدول الابرار ؟ . ولنفترض انهم كذلك فهل كانت الكلمة الحاسمة في دولتهم للعمال اجمعين او للبعض منهم ؟ . وقد اجاب

عن هذا السؤال زعماء الاشتراكية وحماتها أجب عنده خلفاء ستالين بأنه كان هو وحده الحاكم بأمره ولا شيء له من خالف الأالموت حتى ولو كان عاملاً بل و عضواً من الحزب الشيوعي . . اذن اين حق الضعف و حمايتها من الأقوياء في ظل الاشتراكية و دولتها العمالية؟

و ما قرأت شيئاً ابلغ واقوى في الرد على الرأسمالية من قول الاشتراكيين وردهم على الرأسماليين واياضاعقرات ابلغ واقوى من رد هؤلاء على الاشتراكيين .. و نحن نبني الردين معاً ونبطل كلاً بمنطق الآخر .

ويتلخص رد الاشتراكيين بان النظام الرأسمالي يخضع السياسة والحكم لاصحاب المال والاقتصاد، و يجعل من الدولة خادماً اميناً للمصالحهم والاغضبوا وثاروا وبدوا الاموال لحربها والقضاء عليها، وجندوا الصحف والاذاعات لهذه الغاية . . فتغير لهم هي بما يزيدهم قوة وثراء حرصاً على مرضاتهم وسكتونهم ، وهم يمنحوها بدورهم الثقة والتسليد ، والشعب الضحية ومن لا حول له ولا قوة . . وكم من رجل كان قبل الحكم ظاهر القلب والقصد ، ولما حكم امعن في الفساد حرصاً على سيطرته ومكانته وخوفاً عليها من اعداء الحق والعدل .

و يتلخص رد الرأسماليين بأنه اذا كان النظام الرأسمالي يخضع السياسة والحكم لارباب المال فان النظام الاشتراكي يخضع ثروة البلاد كلها لرجال السياسة والحكم ، وتصبح الفئة الحاكمة هي المسيطر الوحيدة على الاقوات والثروات ، و النتيجة الحتمية لذلك هي سلب الحرية عن الناس ، وبالتالي لاشعب الاالدولة ، ولا مال الا في تصرفها .

و اذا بطل هذا و ذاك وجب البحث عن نظام ثالث يحقق العدل

والحرية للجميع

بين النظام الاقتصادي الشيوعي والاشتراكى

اضح مما قدمنا الفرق بين النظام الاقتصادي الشيوعي والاشتراكى ، و

زيادة في التوضيح نشير في هذه الفقرة إلى خصائص كل منها :

١ - ان النظام الشيوعي يلغى الملكية الخاصة من الاساس بشتى انواعها ، اما النظام الاشتراكى فيلغى البعض ، ويقييد البعض الآخر ، كما قدمنا :

٢ - النظام الشيوعي يمحو الطبقات حيث لا مالك لشيئى على الاطلاق ، اما النظام الاشتراكى فيقرب بينها ولا يلغىها كلية حيث يكون في الناس مالك صغير و مقييد ، ولا مالك اطلاقا .

٣ - الحكم والسلطة في النظام الاشتراكى بيد «البروليتاريا» أي العمال ، فهم وحدهم يشرفون على ثروة البلاد و يتصرفون فيها ، اما الشيوعية فان اختصت بجزء من الارض ، ولم تعم وتشمل العالم بكامله فلابد لها من دولة تحافظ على ارضها وحدودها من الاعتداء ، وهذه الدولة بطبيعة الحال تمثل جميع الافراد حيث لطبقات ولا صراع .. وان عممت الشيوعية العالم كله ، وانصر فيها جميع الناس فلا يحتاجون انذاك الى دولة على الاطلاق حيث لطبقات وقوميات ؛ ولا جبائية ضرائب ولا حدود ، ولا ملكية خاصة تحتاج الى حماية .

وخفيت هذه الحقيقة على بعض الباحثين حيث نسب الى الشيوعيين

القول بان المجتمع الشيوعي لا يحتاج الى حكومة ، وان لم تعم الشيوعية العالم كله ؛ وكان هناك حكومات غيرها « وكل حكومة اخرى على وجه الارض تتمسك بمركزها » على حد تعبيره .

٤ - النظام الاشتراكي يقول : من كل حسب طاقته ، ولكل حسب عمله ، ويقول النظام الشيوعي : من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته ومعنى هذا ان بعض الافراد في المجتمع الشيوعي قد يعطى كثيراً ويأخذ قليلاً كالمحترع ، والبعض الآخر قد يعطى قليلاً ، ويأخذ كثيراً .

كالعامل البسيط - بالنسبة الى المحترع - واذن اين المساواة ؟ .

٥ - النظام الشيوعي يؤمم الملكية الخاصة من غير تعويض ، والنظام الاشتراكي قد يعوض .

٦ - الاشتراكيه عند الشيوعيين هي الخطوة الاخيرة التي يتم الانتقال منها مباشرة الى الشيوعية .

الاسلام والاقتصاد

للإسلام تشرع خاص به في العبادات والمعاملات بشتى انواعها ، وفي الاحوال الشخصية ، والجنيات بحدودها وقصاصها وديانها ؛ ويطلق على هذا الشريع بمجموعه كلمة الفقه الإسلامي و ايضاً يطلق عليه الأحكام العملية في مقابل الأحكام الاعتقادية ، و ايضاً يطلق عليه كلمة الشريعة الإسلامية ، وبعضاً يعمم كلمة الشريعة للأحكام الاعتقادية والعملية.. وللفقه الإسلامي اصوله و تاريخه وكتبه ومعاهده .. ولا كلام في ذلك ؛ او سؤال .. والشيء الذي يجب دراسته ومعرفته هو :

هل للإسلام مذهب او نظام اقتصادي كامل ومفصل على غرار الانظمة
التي تناولت الحياة الاقتصادية انتاجاً وتوزيعاً ؟ مع العلم بان هذا النظم
الاقتصادي - على فرض وجوده - وثيق الصلة باحكام الشريعة الإسلامية
بوصفهما فرعين عن اصل واحد ، ومعلوين لعملة واحدة ، وهي مبادئ
الإسلام و عمل الاحكام .

وأجاب مسلم غيور بأنه لاشك في ان الاسلام قد وضع نظاماً مفصلاً
ومبرماً للشئون الاقتصادية انتاجاً و توزيعاً على ارحب
نطاق . . . كيف ؟ وهل يستكمل الاسلام لخصال الخير الا بهذه النظم .
وأجاب مسلم آخر ، لا يقل غيرة على الاسلام من الاول ، وقال: ان
كمال الاسلام و فضله ان يترك المجتمع في ان يختار من الانظمة للشئون
الاقتصادية ما هو اصلاح له وافع على انس المراعاة لمبادئ الشريعة
الإسلامية . وبكلمة ان الاسلام يرافق ويحاسب جميع الانظمة الاقتصادية ،
فيحللها او يحرمنها او يعدلها على اساس مصلحة الفرد والجماعة ، وفي
نطاق الحدود التي اشار اليها سبحانه بقوله : « تلك حدود الله فلا تعتدوها -
٢٢٩ البقرة » . و عليه يكون للإسلام انظمة اقتصادية ؛ لانظام واحد .
واستدل هذا الغيور بما يلي :

١ - ان البيئات الاجتماعية تختلف وتتباين تبايناً كبيراً في ثرواتها
وسائل انتاجها و في حاجاتها ، و ضروراتها الاقتصادية ، وفي عاداتها و
ثقافتها ، بل ان المجتمع الواحد تتبدل اوضاعه ، وتتغير مع الزمن ، و
يغدو النظام الذي كان يصلح بالامس من امر يفسده اليوم ، ويضر بمصالحة

فمن العسير اذن ، بل من المستحيل ان يتحقق نظام اقتصادى واحد لمجتمع واحد جمیع مصالحه في كل زمان ، وفي سائر الاحوال ، فكيف بالنظام الموحد للعالم كله من اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، وفي كل الاجيال والازمان ! .

وأى عاقل يتصور أن النظام الاقتصادي الذي يطبق الآن في الولايات المتحدة هو اصلاح وانجح نظام لليمن واهل اليمن ؟ . وان الاجدر والاليق بالکويت والسعودية ، وبعد أن تدفق النفط في اراضيها هو نظام الصحراوة الجرداء الذي كان متبعاً فيهما قبل النفط ؟ .

ان رسالة محمد (ص) عامة تشمل كل جيل في كل ارض ، والى آخر يوم . فإذا سنت هذه الرسالة نظاماً اقتصادياً لمجتمع دون مجتمع ، ولبيئة دون بيئه - تناهى ذلك مع عمومها وشمولها ، ومع اهدافها ايضاً ومن البداية يمكن ان تعدد الانظمه بتنوع المجتمعات والظروف غير ممكن ، لأن الظروف والاحوال لا يحصر لها ولا نهاية .. والنظام المثالى العالمي مستحيل - كما اوضحنا - فلم يبق الا سكوت ، واذا سكت الاسلام عن هذا النظام ، لانه مستحيل من الوجهة العملية والتطبيق - فقد اعلن وقال - اى الاسلام - بسان الامام جعفر الصادق (ص) : « كل شيء فيه للناس الصلاح في جهة من الجهات فهو جائز ، وكل ما فيه قوامهم ، وببلغة لجميع حواياهم فحال تعلمهم وتعليمهم والعمل به ». وبهذا المبدأ العظيم تتجلى عظمتة الاسلام ، ولو لاه لم يكن دين الله يسراً ، ولا للإسلام مرونة ، وللله عقول ان تنظر وتجتهد ، وبالتالي ان لا تختتم الشرائع بشريعة محمد

محمد (ص) ولا النبوات بنبوته .

٢ - ان الاسلام أجاز الاقطاع في حال دون حال ، وذلك اذا دار الامر بين ان يبقى هذا الجزء من الارض بوراً ومعطلًا بلا انتاج مع عدم الاقطاع في حين ان الناس بحاجة ملحة لاصلاحه وانتاجه ، وبين ان يقطعه الحاكم مؤقتاً لفرد او لفترة على ان ينتفع ما يسد الحاجة ، ويستغنى بانتاجه عن الاستيراد من الخارج ، اذا كان الواقع على هذا فالاقطاع ارجح كوسيلة الى غيره ، لافعالية في نفسه تماماً كأكل الميتة لمن اشرف على ال�لاك .

وايضاً انماط الاسلام - في بعض الحالات - ملكية الارض بدين الانسان وعقيدته ، فلقد اجمع فقهاء المسلمين قوله واحداً على ان أي بلد شرك فتح المسلمين بالقوة - بعد ان رفض اهله الاسلام - انتزع منهم الارض وتغدو بكمالها مشاعاً بين المسلمين لمن كان منهم ويكون ؛ وان اسلام اهل البلد المشرك طوعاً ودون قتال تبقى الارض على ملكهم يتصرفون فيها كما يشاءون .

ولانعرف نظاماً اقتصادياً انماط الملكية بالدين والعقيدة .. ولكن الحكمة والمصلحة آنذاك اقتضت هذا القيد والشرط تماماً، اقتضت جواز الاقطاع عند الضرورة ، واذن ، من الخطأ ان نعتبر هذه الملكية مصداقاً للنظام الاقتصادي وفرداً من افراده .. وقد فسر بعضهم هذه المصلحة بالترغيب في الحق والتحذير من اتباع الباطل ، ونطع على هذا التفسير : ان الاسلام ترك الخيار للمحاربين المشركين في البقاء على ارضهم ان اسلمو ، او

انتزاعها منهم ان اصروا على الشرك والقتال ، فاختاروا الشق الثاني ، وتنازلاوا عن الارض ، وهم قادرون على ابقاءها والاحتفاظ بها لصالحهم .

٣ - لو أن الاسلام قيد المسلمين بنظام اقتصادي خاص لاقعهم في العسر والحرج ، واضطربهم الى الخروج من عقيدتهم ، و بهذه يكون الاسلام هو السبب لاغرائهم بمعصيته والخروج عليه كالحاكم العاجز يخرج الرعية الى الخروج عن طاعته .

٤ - اتفق فقهاء المسلمين على ان كل شيء جائز وحلال اذا لم يحرم حلالا ، او يحلل حراما ، وان الاسلام قد أقر الناس على عاداتهم و اوضاعهم و انظمنتهم ومعاملاتهم ، وأباح لهم كل ما يأتى به الزمن على ان لا يتعدوا حدود الله واحكامه .. وعلى هذا الاساس ، عدل الاسلام بالتقليد والتطعيم بعض المعاملات والنصرفات ، وهدفه الاصيل اصلاح الكل ، و توجيههم نحو العدل والاحسان ، وصيانته الحقوق و الحريات للناس على السواء ؛ و توطيد الصلات فيما بينهم ، فلا يطغى انسان على اخيه بالاستغلال ، او التعدى على حق من حقوقه .

هذا ما جمع عليه علماء المسلمين ، بل هو من ضرورات الدين .. ونذكر من اقوالهم عبارة لقطب من كبارهم ، وهو الميرزا النائيني فيما رواه عنه تلميذه الخراسانى في فوائد الاصول ج ٤ ص ١٤٠ ، وهذا نصه بالحرف : «ان الامور الا عتبارية العرفية التي يعتبرها العرف و العقائد كالملكية - انتبه لكلمة الملكية - والزوجية والرقية والحرية و نحو ذلك من منشآت العقود . والايقاعات كلها ثابتة عند الناس قبل الشرع والشريعة وعليها

يدور نظامهم ومعاشرهم ، والشارع امضاها بمثل «احل الله البيع .. وادفوا بالعقود .. والصلح جائز بين المسلمين ، ونحو ذلك من الادلة الواردة في الكتاب والسنة وليس الملكية المنشأة بالبيع من المختبرات الشرعية بل هي من الامور الاعتبارية العرفية التي امضاها الشارع بزيادة بعض القيد والخصوصيات».

وهذا الكلام واضح الدلالة على ان «الملكية» لا واقع لها في نفسها، ولا هي من جعل الاسلام واختراعه في شيء ، وانما هي مجرد تبادل واصطلاح من العرف دعت اليه الحاجة والضرورة تماما كما تبادلوا على بيع الطماطم مثلا - بالوزن - و الجوز بالعد، واقرهم الاسلام على ذلك تيسيرا عليهم من جهة ، ولا نهم لم يعصوا الله فيه من جهة ثانية ، ومعنى هذا ان الناس لو تبادلوا و اتفقوا على الغاء الملكية طوعا وعن طيب النفس - لا قررهم الاسلام على ذلك، ولم يلزمهم بابقاء الملكية جبرا وقبرا .. و ايضامعنى هذا ان الاسلام لانظرية له مستقلة في الملكية ، وانما نظره ورأيه فيها تابع للعرف وجود واستمراره ، وبالتالي فلامذهب اقتصادي للإسلام، لأن الملكية هي الدعامة الاولى للانظمة الاقتصادية .

وبعد ، فلائئر في الاسلام ، ولا في غيره لنظام اقتصادي عالمي ومنطالي كامل وثابت لا يتغير ولا يتبدل بتبدل الوضع والمستحدثات .
أبدا لا يوجد لهذا النظام ، لانه يتفرع عن الوضع والمستحدثات، ويرتبط بها ارتباط الحكم بموضوعه ، والفرع باصله .. هذا الى ما ثبت بالتجربة والخبرة الحسية ان كل وضع ، بل كل محسوس ملموس اقتصادا

كان ام غير اقتصاد فهو الى التغير والزوال لامحالة ، واذن فالنظام العالمي
خيال في خيال .. ومن اجل هذا وغير هذا فوض الاسلام الى الناس التنظيم
للشؤون الاقتصادية والاحتفاظ باصول الشريعة وقواعدها ، وقال فيما قال: كل
شيء عيسى . العيش والراحة، ويتحقق العدل والخير للمجتمع فهو جائز وحال
قد فيما كان ام جديدا . ومعنى هذا في جوهره ان كل نظام انساني عادل لا
يضيع فرضا واحدا من فرائض الله ، و لاستة واحدة من سنن نبيه فهو
اسلامي قرآنی محمدي ، وعليه يكون للإسلام انظمة اقتصادية لانظام
واحد ، وبالتالي فای القولين افضل وانسب لعظامه الاسلام ، هذا القول ،
او القول بان للإسلام نظاما واحدا فقط لا يتغير ولا يتبدل من يومه الى قيام
يوم الدين ؟ .

اطار واحد لجميع الاجرام

في الشريعة الاسلامية احكام مطلقة لا يحدها شيء ، وهي التي
شرعت لمصلحة الانسان بما هو انسان بصرف النظر عن وضعه الخاص ، مثل
رفع القلم عن الصبي والمجنون ، وايضا في الشريعة احكام مقيدة وتابعة
للظروف والاطراف الخاصة ، وهذه تتبدل وتطور بحسب تبدل الظروف
وتتطور الاطراف كجواز الاقطاع اذا دعت الضرورة .. وللأحكام الشرعية
اطار واحد يضمها جميعا مطلقة كانت ام مقيدة ، وهذا الاطار هو الاصول
العامة والقواعد الكلية ، ومنها : ضمان الحرية للكل فردمع العدالة -
طبعا - اذلا حرية بلا عدالة ، ولا عدالة بلا حرية وصيانة الحقوق للجميع ،
والتعاون المتبادل ؛ واعتبار المجتمع وحدة متماسكة ، وان حقوقه تسمو

على حقوق الافراد ، والاعتراف بكل ما يصلح الناس ، وتحريم الاستغلال وكنز الاموال ، ومسؤولية الانسان عن عمله وتقصيره .. الى غير ذلك من القيم الاخلاقية ، والمبادئ الانسانية .

وبهذه المبادى وحدها تقاس جميع الاقوال والافعال ، وفي ضوئها يجوز للمجتهد ان يختار من القوانين الوضعية المستحدثة ويفتقى به ، وان لم يكن له عين ولا اثر في كلمات الفقهاء القدامى منهم و الجدد .. فاي حكم انسانى ، او نظام ينبع من حاجات الناس فهو حكم الله ونظامه وقانونه ، وان كان جديدا ومن تشرعى الشرق او الغرب .. بل يجب على الفقيه ان يفعل ذلك و بخاصة المرجع المسموع ، كى يثبت للملاء والاجيال ان الاسلام هو دين الحياة والخلود .. بل يجوز للمجتهد ان يراجع الفقه المدون من الفه الى يائه ، وان يقلم ويطعم على شرط الرسالة المحمدية التي جاءت لصلاح الناس واصلاحهم في كل زمان ومكان ، ومن اجل هذا فتحت باب الاجتهاد على مصراعيه ، وجعلته حقا ثابتا للمجتهد ، واجبته عليه ان يمارسه ، ولا يمنع الناس من تمارسه .

ولكن اين الذى لا يخشى في الله لومة لائم ؟ . « و اذا اخذ الله مثناه الذين اؤتوا الكتاب لتبيينه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون - ١٨٧ آل عمران » .

الاسلام ضد الانظمة الثلاثة

قلنا: ان الشيوعية تلغى الملكية مالا وآلها وعمراء وارضا وعقاراتها ، وان الرأسمالية تطلقها للفرد بلا حدود؛ وان الاشتراكية تحدد وتقيد ببعض القيود ،

اما الاسلام فلا يلغى ولا يطلق، ولا يحدد، بل يفوض لكل مجتمع الرأى في اختيار ما هو اصلاح له انتاجا وتوزيعا على شرط كتاب الله وسنة نبيه، وكل من الانظمة الثلاثة يرفض هذا الشرط ويناوئه، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا الامتناع الغرور .. والباقيات الصالحات خير عند ربك نوابا وخير مردا ». وقال الشيوعيون : كلام لا مرد ولا ثواب ولا عقاب؟ ولا شيء الا الدنيا ومتاعها وغورها .. وياكل الرأسماليون اموال الناس بالباطل، يتلهون بها عن الله والانسانية ، ويستزيدون من الترف وكثير الاموال على حساب البائسين .. وهددهم سبحانه بقوله : « ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلهمهم الامل فسوف يعلمون - ٣ الحجر » .. و تؤمن الاشتراكية املاك العباد بالقهر والغلبة ، و تحكم العمال بالدماء والاموال، والله سبحانه يقول : « لاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم - ١٠ النساء ». وقال الرسول الاعظم (ص) : « دماءكم و اموالكم عليكم حرام ». .

وبهذا يتبيّن معنا ان من نسب الاشتراكية الى الاسلام فقد خبط و خلط، وأتخدمن دين الله اداة لدعم الشيوعية والكتلة الشرقية من حيث يريد؛ او لا يريد . و من نسب الرأسمالية بوضعها الحاضر الى دين سماوي فهو عميل مأجور، او جاهل غير معدور؛ لأن الجهل بالوضاعات تقصير و اهمال؛ ومن قال : للإسلام نظام اقتصادي مستقل بحدوده وقيوده عن كل نظام من هذه الانظمة فهو، ولاشك، نزيره القصد، وصاحب نظرية ايضا، ولكن خانة التطبيق، وكم من عالم نحرير زلت به القدم حين تصطدم خطوطه بعملية

التطبيق ، ومهما يكن فان الامر هين ويسير مدام كل من يؤمن ويعتقد بان الاسلام يهدف في جميع احكامه و مبادئه الى حياة افضل؛ وانها المثل العليا الذين يسعى الانسان بما هو انسان الى بلوغه في كل جيل .

الزكاة :

قرن سبحانه واجب الزكاة بوجوب الصلاة في العديد من الآيات، واهتم بها الفقهاء اهتماما بالغا ، فعقدوا لها في كتبهم بابا خاصاً، وحددوا نوعها وكميتها وكيفية أدائها ، ومن هم المستحقون لها ، و غير ذلك في كلام طويل ، وتفصيل دقيق .

وتكلم حول فوائدها كثيرا من ارباب الاقلام ، فرأوها بعضهم من باب المساواة ، وآخر من العدل الاجتماعي؛ وشط ثالث بقوله : ان الهدف منها ازالة الطبقية ، و تحقق الاشتراكية ، وقال رابع : هي عبادة. ولا تعلل العبادات الا بالنص الذي دل عليها ، وامر بها .

والحق ان في الزكاة جانبين : احدهما عبادة حيث يعتبر فيها قصد التقرب إلى الله تعالى، وثانيهما حق مالي، و بالنظر إلى هذا الجانب يصح لنا ان نعدها من العدل الاجتماعي الالزامي، اما المساواة في مازاد عن الحق المعلوم الذي ذكره الفقهاء فهي برواحسان، لا وجوب والزام .. و على اية حال فقد حارب الاسلام الترف والضرر معا، وحيث كل غنى ان يبذل ما زاد عن حاجته في سبيل الله؛ وعلى المعوزين . ومن ذلك قول الرسول الاعظم (ص): «من كان معه فضل من ظهر فليعدبه على من لازدله ، ومن كان له فضل من ظهر فليعدبه على من لاظهر له ». المراد بالاظهر المطيبة والمركب . وفي

الحديث ثان : « ايمما اهل عرصة امسوا ، و فيهم جائع فقد برئت منهم
ذمة الله ». .

وهناؤال يطرح نفسه ، وهو مadam الامر كذلك فلماذا لم يحدد
الاسلام الملكية الفردية . بمقدار حاجة الفرد فقط ، و يمنعه عن تملك
الزائد بدل ان يبيع له ذلك ثم يحثه على الصدقة ، و يستدر عطفه و شفقتة
على المعوزين ! . و على الاقل ان يوجب على الاغنياء بذل مازاد عن
حوائجهم تماما كما اوجب الزكاة .

الجواب :

ان الاسلام يحرض كل الحرص ان يستكمل الانسان حريةه ،
ويحتفظ بشخصيته ، و ان يستغل طاقته في الابداع و التعمير ، و يبذل
في هذه الميدان كل مالديه من جهد و كفارة ، ومن اجل هذا افسح له
المجال على اساس الحق والعدل . . و في الوقت نفسه يحرض الاسلام ان
يحتفظ الانسان بانسانيته و ضميره و وجدانه ، فيتعاطف مع ابناء جنسه
بالمال وبالنصيحة والارشاد ؛ وغير ذلك من انواع التعاطف و التعاون . .
ولو قيد الاسلام الملكية الخاصة بحاجة الفرد لسدي و وجهه بباب التعاون ،
والتقرب الى الله بعمل البر من جهة ، و قضى على ارادته و طاقته و طموحه
من جهة ثانية . . وليس من شك ان الانسان بلا طاقة و طموح اشبه بالجماد
او الحيوان .

ونحمد الله شكر على هدايته ، والصلوة على محمد و عترته .

ابتدأت بتأليف كتاب «فلسفه التوحيد والولاية» في شهر المحرم سنة ١٣٩١هـ . بقى ، وانتهيت منه في جمادى الاولى بمشهد الامام الرضا (ع) في اوتيل سينا ، واعدلت النظر فيه في شهر جمادى الثانية بمدينة تبريز ، وانا ضيف على العلامة الشهير حجة الاسلام الميرزا عبدالله مجتبى ، وانتهت المطبعة منه في اليوم الاول من شهر رمضان المبارك ، وبقى من الملزمة الاخيرة ثلاثة صفحات ييض ، فرغت الى القائمون على المطبعة ان املأها بـ اي شيء ، وفكرت حائراً : ماذا اختار؟ وكنت قد بلغت من «الشرح الكافش» عن خطب نهج البلاغة الى قول الامام (ع) : «وانبلغتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآلـهـ من الخطبة السادسة عشرة ؟ فاخترت للصفحات الباقيه شرح هذه الفقرة .

يريد الإمام (ع) أن المسلمين اليوم كما كانوا في الجاهلية الجهلاء تحسبهم جمماً وقلوبهم شتى على مافيهم من سائر العيوب.. وتكلم كثيرون

عن السبب الموجب لتأخير المسلمين ؟ ووضعوا في ذلك المؤلفات؛ وفسروه بالفرق والشتات ؛ والمخالفة عن أمر الإسلام؛ وعدم الالتزام بحكمه وكلامه وكلام الإمام يومئي إلى ذلك، لأنه يربط ولازم بين عدم التقوى والبلية؛ وآيات القرآن صريحة في هذا المعنى: «فلمما زاغوا زاغ الله قلوبهم ۖ -الصف» «والذين اهتدوا زادهم هدى - ۱۷ محمد» .

ونوجز بيان التلازم والترابط بين المسلم الحق هو الذي يؤمن ويعتقد أولاً: وقبل كل شيء بان وراء هذا الكون ذاتاً وقوية يجب أن يحبها ويقدسها وأيضاً يؤمن ويعتقد بان تلك الذات والقوية هي مصدر الخلق والتدبر ومصدر التحليل والتحريم ، وانها تهاب وترجى ، وتنسب وتعاقب .

ثانياً : ان يترجم المسلم تقديسه وحبه لله . وابيماه بأنه تعالى هو وحده الخالق والحاكم والشرع والمحاسب والمعاقب، ان يترجم ذلك كله بالأفعال لا بالأقوال ؛ لأن الحب والإيمان يقاسان بالإنار والاعمال ؛ أما مجرد النظرية المنطقية ؛ والحالة النفسية فتشبهان الخيال وحديث النفس.

هذا هو المسلم الحق والاسلام الصحيح، وإذا نظرنا الى المسلمين في هذا العصر، واردنا ان نقيم تدينيهم على هذا الاساس - وجدنا انهم يترجمون تقديس الله بالظاهر والشعائر كالصوم والصلوة ، وبناء المساجد والحسينيات؛ أما الإيمان بان الله وحده هو المخلل والمحرم ؛ والذى يجب ان يخاف ويرهيب ؛ أما هذا الإيمان فلا اندر له الا عند القلة القليلة من الأفراد ، أما المجتمع الاسلامى على وجه العموم فالاسلام عنده نظرية منطقية تمحض فى الازهان والاستدلال؛ وعصبية دينية لا تتجاوز الخطارات والأقوال .

ان الذين في مجتمعنا اليوم مجرد «انيكيت» و «بروتوکول» تماما كالتهنئة في الافراح والعزية في الاتراح، ولا نرى له اثرا الا في العبرات وضرب القمامات، وفي سير المواكب واقامة الحفلات والاذان والصلوات، وفي ما يفعله اذن ذلك لا اثر للدين الا عند الافراد كما اشرنا. وهكذا كلما كثرت المظاهر الدينية وارتفع طinenها ضعف تأثير الدين من الوجهة العملية حتى قال قائل على صفحات الجرائد: «ان الله لا يوجد بين القوم الذين يؤمنون به». وعسى ان يرى ان الذين يكثرون من التظاهر في الایمان هم ابعد الناس عنه تماما كالكسول البطل يكثير من التبررات والتفاهات . . . ان المتمدين حقا و صدقوا يظهر دينهم وأيمانه في جميع افعاله وحركاته ، ووجوه نشاطه و اخلاقه لافى مجرد الشعائر والمظاهر .

فهرست

المقدمة - ٣

العوده الى نقاش الباحدين ٣ - استفت قلبك ٤ - انا والقارئ
٤ - نجاحي كمؤلف ٥ - نفثة مصدور ٦ - الفرار ٦ - الى قم ٧ - اعادة
النظر برواية ١٠ - تنبئه ١١ .

فلسفة التوحيد - ١٥

آيات الخالق بمنطق الحس والعقل ١٥ - الدين والشباب ١٥ -
وجوب البحث والنظر ١٨ - دلالة الكون على علته ٢٠ - نحن والتجربيون
٢٤ - نحن والبرمجاتيون ٣٠ - العلم يدعو الى الايمان بالله ٣٢ - الفلسفة
والتأمل العقلي ٣٣ - العلم والتجربة ٣٣ - العلماء المفكرون ٣٤ - القمر
٣٤ - الانسان ٣٩ - الانسان والفرد ٤١ .

صفاته تعالى - ٤٥

التوحيد ان لا توهمه ٤٥ - العلة اكمل من المعلول ٤٦ - نفي الصفات
٤٧ - انما هو الله واحد ٥٠ - حسبى الله ٥١ .

الخير والشر - ٥٤

٥٤- هذه المسألة - ماقيل حول الخير والشر - ٥٤ - معيار الشر والخير
٦٥- الاسلام وتحديد الخير والشر - ٥٨ - شبهة الشر - ٥٩ - الخلاصة - ٦٢ .

فلسفة الاختيار - ٦٤

مواضيع ثلاثة - ٦٤ - معنى القضاء والقدر - ٦٤ - موضوع القضاء والقدر
٦٥ - الاراده والاختيار والرضى - ٦٧ - هل الانسان مسيير او مخير
٧٠ - الاراده والاختيار والرضى - ٧٣ - العبرية - ٧٤ - المفوضة - ٧٦
امر بين امرین - ٧٨ - الله و معصية العبد - ٨١ - اشكال و حل - ٨٣ - الشقى
والسعيد - ٨٤ - ليبلوكم ايكم احسن عملا - ٨٥ - الهدى والضلال - ٨٦ .

فلسفة النبوة - ٩١

النبوة - ٩١ - هل العلم يغنى عن الدين - ٩٦ .

محمد والقرآن - ٩٩

القرآن و معجزة الانبياء - ٩٩ - هل لمحمد معجزة غير القرآن - ١٠٢
ما هو الدليل على صحة الاسلام - ١٠٥ - القرآن والتوراة والانجيل - ١١٠
الاسلام والصهيونية والاستعمار - ١١٢ - اعجاز القرآن - ١١٣ - التحدي
القرآن يتحدى الطغاة - ١١٦ - اخبار القرآن بالمخيبات - ١١٧ -
البشارة بمحمد - ١١٩ - اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم - ١٢١ - كتاب
اظهار الحق - ١٢٧ - الفتح - ١٢٨ - ايمان العقل والوعي - ١٢٩ - اسلام على
واسلام ابى بكر - ١٣٠ - الاسلام والقائلون بالحق - ١٣٢ - من الذين آمنوا

١٣٤ - محمد خاتم النبئين ١٣٥ - العصمة نوعان ١٣٦ - اين هو المقصود
١٣٨ - الشيعة والعصمة ١٤٠ .

فلسفة الولاية - ١٤٥

أصول الدين ما يجب بلا شرط وما يجب مع الشرط ١٤٥ - بساطة
العقيدة ووضوحها ١٤٥ - اصول الدين على نوعين ١٤٦ - ما يجب التدين
به من غير شرط ١٤٨ - ما يجب التدين به على شرط ١٥٠ - ما يحرم
انكاره فقط ١٥٣ - طريق المعرفة الى اصول الدين ١٥٣ - التقليدي اصول الدين
١٥٦ - الشك في اصول الدين ١٥٧ - الغافل واصول الدين ١٥٨ .

من هم اهل البيت ١٦٢

الولاية علم - ١٦٨

معنى الولاية ١٧٠ - اقسام الولاية ١٧٠ - التفویض في تشريع
الاحکام ١٧٠ - الولاية المحمدية لالتكوينية ١٧٢ - الولاية الطبيعية
١٧٤ - اصل او فرع ١٨٣

حول التسنن والتشیع - ١٨٨

ولاية اهل البيت وخلافة ابی بکر ١٨٨ - السنة و مبدأ الاعتراف
بالواقع ١٩٠ - الاسلام و خلافة ابی بکر ١٩٣ - لماذا لم يبحج الامام
بسالنص ١٩٧ - لماذا سكت القرآن عن اسم على بالذات ٢٠٢ - على
والعصمة ٢٠٧ - المهدى المنتظر عند الشيعة والسنة ٢٠٩ - لماذا الامام
الغائب؟ ٢١٠ - حياة المهدى المنتظر ٢١٦ . اشارة ٢١٨

فلسفة المذاق - ٢١٩

التعجب من المعاد هو العجب - ٢٢١

انها اليوم الآخر - ٢٢١ لماذا انكر، والبعث - ٢٢٣ - لماذا وحد الانسان -

٢٢٥- هل هذا علم او تحقيق؟ ٢٣٨- لا توحيد ولا نبوة الامام البیعث -٢٢٩-

المعاد الجسماني ٢٣٣ - الاكل والماكول ٢٣٦ - جهنم والاسلحة الجهنمية ٢٣٧

٢٢١ الشيوعية والرأسمالية

قصة هذا الفصل ٢٤٣ - فلسفة الشوعيه و نظامها الاقتصادي

-٢٤٤ - طبعة الرأسمالية ونظامها ٢٤٧ - النظام الاشتراكي - ٢٤٨ -

بيان النظم الاقتصادي الشيوعي والاشتراكى - ٢٥١ - الاسلام والاقتصاد

٢٥٢- اطارات واحد لجميع الاحكام ٢٥٨- الاسلام ضد انظمة الثلاثة - ٢٥٩

٣٦٣ من شرح النهج الجديد

للمؤلف :

الوضع الحاضر في جبل عامل .

الفصول الشرعية .

مع الشيعة الإمامية .

أهل البيت .

الاسلام مع الحياة .

الله والعقل .

النبوة والعقل .

الآخرة والعقل .

المهدي المنتظر والعقل .

طبعت هذه الكتب الاربعة في مجلد واحد باسم «الاسلام والعقل».

الفقه على المذاهب الخمسة ،

الحج على المذاهب الخمسة طبع هذان الكتابان في مجلد واحد

باسم «الفقه على المذاهب الخمسة» .

الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة .

الوصايا والمواريث على المذاهب الخمسة .

الوقف والحجر على المذاهب الخمسة . طبعت هذه الكتب الثلاثة في مجلد واحد باسم «الاحوال الشخصية على المذاهب الخمسة » .

مفاهيم انسانية بكلمات الامام الصادق .

على والقرآن .

فضائل الامام على .

على والفلسفة .

امامة على والعقل .

دول الشيعة .

الشيعة والحاكمون .

الشيعة والتشيع .

نظارات في التصوف -

معالم الفلسفة الاسلامية .

المجالس الحسينية .

فلسفة المبدأ والمعاد .

مع علماء النجف .

مع بطلة كربلاء .

هذى هي الوهابية .

اصول الایيات .

فقه الامام جعفر الصادق عرضوا استدلاً في ستة اجزاء و ٣ مجلدات .
الائنا عشرية و اهل البيت .

التفسير الكاشف في سبعة مجلدات .

من هنا وهناك

فلسفه التوحيد والولاية .

من ذاذاك .

تجارب محمد جواد مغنية بقلمه . ولهذا الكتاب وارجاء طبعه
ونشره اكثر من قصة « وما نؤخره الا لاجل معدود » .